الفلاح



عبد الرحمان الشرقاوي

الفلاح

نشر وتوزيع مؤسسات بن عبد الله

1

فجأة قررت أن أعود الى قريتى .

لا أعرف من أى أغوار النفس انفجر بغتة هذا الحنين الجارف الى كل شيء هنـاك .. فى ذلك الركن الهادىء من الدنيـا على نهر صغير !

غير أن الصباح كان حزينا ..

الشمس لاتريد أن تشرق ، رغم أن النهار يطوى ضحاه ، وفى السماء سحب كثيفة بلا ألوان ، وأنا أتنفس دخانا لكثرةماأحرقت من سجائر ليـلة أمس ، وقد أقسمت ألا أدخن بعد ، ومع ذلك فالسيجارة فى يدى ، ولا شيء فىرأسى ، الهواء بارد ولكنهساكن لايتحرك كأنه لحظات هموم متجمدة تضغط على القلب ..

هـذا الصباح الحزين عرفته أكثر من مرة .. ولكن فى غير وطنى !

عرفته .. وعرفت معه الشوق الى السعادة عندما كان البعـد والحنين الى الوطن والبحث وراء المجهول يمنح الحيـاة أحزانا غريبة .. عذبة على الرغم من كل شيء ! ..

والسحب تلقى ظلالها على المبانى القديمة فى شارع قصر النيل . لكأنى عشت هذه اللحظات ألف مرة من قبل .. !

هاهو ذا صباح حزين آخر ، وظلال سحب على البيوت القديمة ونساء أنيقات .. وواجهات المحلات التجارية يخفى مابها عن العابر زحام فتيات وأطفال وأمهات ، ورجال قليلين ..

لكأنى مرة أخرى أطوف فى أحد شوارع باريس ، التى لم أعش بها كما كنت أحلم قبل أن أراها منذ سبعة عشر عاما ! ..

كيف أتقبلها لو سافرت اليها الآن ؟ .. أأشعر هناك أننى ثقلت فوق تيار الزمن كصعلوكها العظيم الشاعر فرانسوا فيون الذى تحدى بها الليل والخطر والملك..ثم غاب عنها سنوات ، وعندما عاد وجد كل شىء قد تغير .. حتى لويس الحادى عشر .. غريمه ، وسيده ، وعاره !! ..

كل شىء قد تغير فى باريس .. رفيقاته ترهل كل ماهو غض فيهن ، وزملاؤه أصابهم الوهن وهم مع ذلك حول الخمسين .. السن التى يستعرضها رجال اليوم ليجذبوا الى فراشهم فتيات يقلدن « لولينا » .. لكم سرت على الأرض التى عاش عليها الشاعر التعس ، ودفعنى الشغف بمغامراته الى أحياء تضاء شوارعها فى النهار ، تقوم تحت شوارع على ظهر الأرض ، ويصخب فيها أفاقون ، وصعاليك ، وغجريات ، ومهربون ، وشحاذون يشعرون بالكبرياء ، ورجال تتدلى لحاهم المصبوغة الى أحزمتهم المشدودة على ثياب من العصور الذاهبة تحت عباءات غريبة ، كأنهم سلاطين « الريالتو » فى مسرحية تاجر البندقية ! ..

أنت ..؟! لكم تذكر باريس ، وهناك ما عرفت غير الحاجة الى

الاستقرار وهناك ما عرفت كيف تستقطر صفاءها وثراءها ! ..

ولكنك مع ذلك طفت بها مشيا على الأقدام وتعرفت الى كل أركانها .. واندفعت الى كل مكان تجلله دماء الثوار الأوائل ، وخالطت الليل الذى يضىء بالشعب ، وناديت بالتحرير للمستعمرات ، وبالحرية للانسان الأفريقى ، ولعنت الحرب القذرة على فيتنام .. على الهند الصينية !

كان ذلك منذ سبعة عشر عاما .. وما زالت الأصوات ترتفع تلعن هذه الحرب القذرة .. وربما كانت مظاهرات اليوم عامرة بفتيان وفتيات لم يكونوا قد ولدوا بعد منذ سبعة عشر عاما .. أعزاء هذا أم عذاب ؟!

ولكنك الآن تسير فى شارع قصر النيل .. وفى ليلة الأمس سهرت تكتب وتدخن حتى الصباح .. ثم مزقت كل ماكتبت ، وأصبحت بصدر يجرحه الدخان ! ..

وهزنى ابن عمى الذى يسير الى جوارى :

ــ انت سرحان فى ايه ؟

ماذا أقول لك ؟ يا أخى .. خلنا نسر ..

وعاد ابن عمى يقول لى :

ــ ان ماكنتش عاوز تسافر البلد بخاطرك .. لكن أنا باقول يعنى ! ..

عندما كنت فى باريس ، كنت أحب دائما أن أسير وحدى فى جو كهذا ، ولكنى هناك بدأت أحس الشوق الجارف الى الشمس

.. كان اختفاء الشمس وراء السحب الكثيفة يثير بى رغبـة فى البكاء ..

واقتربنا من تمثال « مصطفى كامل » ، لكأنى أراه لأول مرة ووقفت أتأمله .. ولكنى تأملت تمثال « دانتون » أكثر مما تأملت تمثالك أيها القائد الذى أيقظ الأجداد !!

لماذا يحدث لنا دائما عندما نكون فى الخارج أن نهتم بالآثار والمتاحف وبصمات الحضارة على وجه الأرض الغريبة ؟! .. أما هنا فى الوطن ، فنحن نعبر بها ولا نكاد نشعر .. أتكون هى الألفة .. لكم وقفت أمام التماثيل فى شوارع وميادين باريس !

وهمهمت : « باريس » ! ..

وزعق ابن عمى وهو يلوح بيـده فى وجهى ويكاد يلطم كتفى بكم جلبابه الأزرق الواسع :

ــ حنرجع لباريز ؟ .. دى ماكانتش سـنة عبيا اللى عشـتها هناك..دانت ياجدع مابتتشوقشى لبلدك اللى فيها عضم جدودك زى مابتتشوق لباريس .. طيب تعال كده اقعد سنة على بعضها فى البلد ! ..

وشعرت باهانة فأمسكت بيده قائلا :

ــ مين قال لك .. انت يعنى دخلت فى نفسى وعرفت أنا عايز ايه ؟ .. أنا من أول ماصحيت ناوى أروح البلد .

ــ أهو يوم والا يومين وتتلسوع على مصر .. طب بالله العظيم انت دلوقت ما تعرف ولا واحد من العيال الجداد أولاد البلد ..

بلاش أولاد البلد حتى أولاد العيـلة .. أنا عارف ايه قعدة مصر على طول كده .. وقال ايه يوم الواحد مايحب يروح هنا والا هنا ينط لى على أوربا .. تقولشى يعنى كان أصلنا فى حـال الأصل خواجات .. ياعم تعال أقعد لك جمعتين فى البـلد .. دا الوطن الأم .. أمال بس اشتراكيين وانتم قاعدين لى بين مصر وأوربا ؟!

الوطن الأم ؟!.. اشتراكيين ؟! ماهذا كله ياعبد العظيم ؟ لم يتح لى منذ سنوات طوال أن أتحدث معك . كنا ندرس معـا فى مدرسة القرية الأولية ولم يتح لك أن تخرج الا قليلا من القرية.. لم يتح لك حتى أن تذهب الى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الاقليم .. فلم يكن عند أبيك مايكفى من المال لتواصل تعليمك .. وقد تراخى العهد بينك وبين القراءة ، فأنت لاتكاد تقرأ غير ماحفظتـه وأنت طفل من القرآن وبعض عناوين الصحف بصـعوبة .. أنت لا تكتب الا توقيعك .. وتقرأ أسماء الشوارع فى القاهرة بصعوبة وأنت لاتأتى القاهرة الا مرة كل عام أو كل عامين لتزورنى ، وتزور بعض أقاربك .. آه .. نسيت أن لك ابنا فى كلية العلوم .. أنت الآن تزور القاهرة أكثر مما كنت تصنع من قبل .

وقلت له فجأة :

ــ ازى الواد فتحى ابنك ؟

ــ يعنى بتسأل عليه ؟ .. أهو فى المدينة الجامعية ، و ... وبعون الله كده عاوز يدرس ذرة .. ان شاء الله يطلع عالم ذرة ..

يمكن يطلع زى العالم ده .. اللى اسمه كورى .. البت ماهو من باريز !

كورى ياعبد العظيم ؟! .. دعنا من باريس ، وقل لى .. قل لى أنت .. ولكن لم لا يكون كورى آخر ابنك فتحى هذا ؟ .. أنا والله أسأل عنه ياشيخ ولكنك تتخيل القاهرة قرية صغيرة وتطلب منى أن أراه كل يوم .. وهذا مستحيل .. ابنك فتحى يزورنى أحيانا وأطمئن عليه .. متى رأيته يا ترى آخر مرة؟..منذ شهور ، لا .. أكثر .. من العام الماضى .. لك حق .. ماذا أقول لك ودوامة الحياة فى القاهرة تأخذنا ، وغول رهيب يقتات بالوقت ويلتهمه ونصبح فجأة فاذا الشهر قدمر وراء الشهر والعام وراء العام .. وانا أتناقش مع أصدقاء لى حول صراع الزمن والتحدى الذى يواجه شعبنا لكى يمتلك مصيره ، وواجب المثقفين والأدب فى المجتمع الاشتراكى .. الكلمات تبتلع أيامنا .. وماذا تقدم بعد؟!. حتى المودات الصغيرة لا نجد لها وقتا .. لك حق يا عبد العظيم .

واستدرت عائدا من شارع قصر النيل أبحث عن مكان أقعد فيه مع عبد العظيم .. وتاه منى فى زحام أمام واجهة أحد المحلات .. وسمعته يزعق ضاحكا وهو يمد لى يده ليضعها فى يدى من جديد ونحن نمشى :

ــ هم ستات مصر دول ماعندهمش شغلة ولا مشغلة غير اللف على المحلات .. ايه ده ؟! .. طب ماطبعا الحاجات اللى فى المحلات لازم تخلص .. طلعوا منين دول كلهم ؟ .. طب دا لو نسوان بلدنا

داروا فى الشوارع كده البلد لاهى زارعة ولاهى قالعة ..مايعملوا لهم مصنع غزل زى اللى عملوه فى المحافظة عندنا خليهم ينشغلوا شوية .. أنا عارف يا أهل مصر بتجيبوا منين الفلوس اللى بتشترى بيها النسوان الحاجات دى كلها ؟! الفلوس دى منين يا حريم مصر!؟

قاطعته :

ــ انت ليه ياعبد العظيم بتكره مصر ؟

فوقف وانفجرت ضحكاته حتى التفت الينا بعض المارين والمارات فى الشارع .. ووقفت فتاة أنيقة تتأمله بجسمه الطويل وجلبابه المنسدل فى شموخ والطاقية على رأسه .. ورفع ولد صغير رأسه الى فوق وهو يتأمل عبد العظيم بعوده النحيل ووجهه المتص الأسمر وشاربه الكثيف وضحكاته تدوى ..

وقال عبد العظيم :

ــ أنا باكره مصر ؟ .. يا أخى يمكن با أحب باريز !

وسبقنى الى المشى واستمر يقول :

ــ شفت البنت اللى كانت بتبص لى دى ؟ .. حلوة ماقلناش حاجة ، لكن يعنى .. يعنى مش عيب عليها تطلع وفستانها فوق ركبها .. بقى دى لو كانت بتشتغل فى غيط والا فى مصنع زى المصانع اللى عندنا كنت تلاقيها متعرية كده .. بقى المخسوفة دى لها أهل بيشموا ؟! .. ماشية كده .. ليه ؟ مش مكسوفة ..

خواجـاية يعنى •• وكمـان بتتقصع •• يا أخى ده كل بلد وله سلوه •• طب خليها تهوب ناحيـة بلدنا باللبس الفضـاح ده كده وشوف اللى حايجرى•• بقى دى لو كانت فيه حاجة شاغلاها غير التفكير فى جسمها كانت لبست كده ؟ •• والأكادة يا أخى عينيها يندب فيها الرصاص •• متعرية كده ولا هاممها برد •• ولا حيا ولا كسوف ، هو احنا على شط البحر •• وبتتلعبط كده ليه •• زى بتوع السينما الافرنجى •• ياخسارة يامصر !!

ـ احنا يعنى عارفين ظروف الناس ••

ـ وظروف ايه يعنى دى اللى تخللى واحـدة تعرى نفسـها بالشكل ده !! ما عندهاش تكمل بقية الفستان •• بقى تلبس كده؟ ما هو اللى ماشى فى الشارع رايح شغله لازم يقف يبص ، الرجالة معذورة ، والله أنا خايف على ابنى فتحى من الحاجات دى •• أكيد النوع ده من الستات لا بينتج ، وكمان بيضيع وقت الانتـاج •• بيقلدوا بتوع بره •• ما هم بيوردوا لنا اللبس والمشية المعووجة كمان ! •• طب وازاى ننتج !!

لا ينتج •• ويضيع وقت الانتاج ؟! من أين تعلمت كل هذا ياعبد العظيم يا ابن عمى •• أنت تقول كلاما أكبر منك بكثير •• من أين تعلمت هذا كله ؟ !

أوشكت أن أسأله ، ولكنى أحسست أن سؤالى سيجرحه •

ودفعته الى باب مشرب فى شارع قصر النيـل •• لنشرب شيئا •

فقال لى بصرامة :

ـ أنا مش فاضى لا أقعد على قهوة ولا على بورصة •• أنا جاى أشوفكم وآدينى اطمنيت عليكم وعلى ابنى وعندى ميعـاد فى وزارة الاصلاح الزراعى الساعة واحدة •• هى ساعتك كام ؟• لا بد من مقابلة الوزير •• الجدع المشرف بتاعنا مزروط الدنيـا ومنيلها بنيلة ••• لازم أقابل الوزير أو أى مسئـول اشتراكى فى الوزارة •

وعجبت لابن عمى عبد العظيم •• كانت الساعة تقتـرب من الثانية عشرة وما زال لديه وقت ••

وألححت عليه أن يدخل الى المشرب وسأصحبه الى الوزارة فى تاكسى •• ولكنه وقف معترضا ؛

ـ تاكسى ؟ •• يا سيدى المشى صحة •• خللينى أروح فى البراح •• بس انت وصلنى لهنـاك ، شور لى على باب الوزارة وماتدخلش معايا •• دى وزارتى أنا ، وانا ليه هناك كلام وشغـل تانى ما تعرفوش انت •• حاكم انتم بقى ناس بتوع كتب والحكاية عندكم كلها كتب فى كتب وكلام فى كلام •• احنا بقى اللى ايدنا فى النار •• دى حكايتنا يا آبا ••

وضحك ••

عدت يا عبد العظيم تقول كلاما كبيرا ••

انك تدين المثقفين بكلماتك دون أن تعرف .. ولكنك تعرف! تعرف أكثر مما أستطيع أن أتخيل .. مع ذلك يا عبد العظيم فالكتب لازمة .. لا بد منها يا أخي ..

وقلت له :

ـ ما هو يا عبد العظيم الناس لازم تقرا ..

ـ ما قلناش حاجة .. لكن اللى بيجرا فى الغيط عمرك ما حتعرفه من كل كتب الدنيا .. ما هو أنا كمان رجعت أتعلم القراية تانى .. لكن اللى فى الغيط حاجة تانية .. مهمة قوى .

ـ طب تعال بدل وقفة الشارع نقعد نشرب قهوة فى خمس دقائق وأوصلك للوزارة .

وأزاح الطاقية عن شعره القصير وحك مقدمة راسه قليلا وهو يتأمل الرجال والنساء الذين يسيرون فى الشارع وابتسم فجأة وهو يتأمل امرأة تلبس ثيابا قصيرة تكشف ما فوق الركبة بكثير .. كانت شقراء وساقاها المشربتان بالحمرة يثيران فضول كثير من العيون ، وقال وهو يتابعها بنظراته :

ـ خواجاية .. معلهش .. سلو بلدهم كده .. لكن احنا مالناش فى اللبس ده ولا فى المشى المخلع الملعبط الأغبر ده ..

واصطدمت به امرأة فى تمام زينتها ملفوفة القوام تمشى مسرعة جدا وكل جسدها يختفى تحت ملابس ثقيلة ، ونحت

عبد العظيم باشمئزاز وغلظة لتدخل المشرب .. وتنحى لها عبد العظيم ساخرا :

ـ اتفضلى يا هانم .. ما أنا فلاح ما يصحش أقف قدام محلات زى دى .. هو لسه الصنف ده والأفكار دى موجودة عندكم .. يا سلام يا مصر !

والتقطت أذناى همسات رجل كان يتابعها هو وزميل له :

ـ اتفضل يا سيدى .. عينى عينك .. حا تقابله هنا .. الراندى فو دايما هنا ، كل يوم سبت من ١١ ـ ١٢ يخرجوا من الباب الخلفى فى العربية .. وترجع الشغل الساعة ٢ تمضى وتروح! مواعيد الليل بقت موضة قديمة .. آدى آخرة شغل الستات !.. ولابسة حشمة عالآخر حتى ايديها فى الجوانتى .. والله احلويت يا بلدى ..

ورد زميله :

ـ واحدة منحرفة مش معناها ان كل الستات اللى بيشتغلوا وحشين .. ما ستات البيوت فيهم كده وكده برضه !

وتدخل عبد العظيم فى الحديث :

ـ واحدة منحرفة لازم تنحش .. زى النبتة الفسدانة فى وسط الغيط لازم تنحش من جدرها بدل ما تخسر الزرعة كلها .. دى النعجة الجربانة تعدى النزل كله .. المجتمع الاشتراكى مسؤول عن تطهير نفسه !

وضحك أحد الرجلين ، وهو يتابع سيره ، بينما نظر الآخر الى عبد العظيم فى امتعاض ، وتابع سيره وهو يقول فى سخرية واضحة يخالجها القرف والغيظ :

ـ دا باين عليه فلاح اشتراكى من بتوع اليومين دول ! يا سلام يا سيدى على الفلاح الاشتراكى ! •• ولسه ياما حانشوف! والله احلويت يا بلدى ! ••

وهز رقبته من داخل ياقة القميص الحريرى فعدل من وضع رباط عنقه الفرنسى الفاخر ، ومسح بيده شعره الفضى ، وتاه فى الزحام بعطره الفواح الذى ترك آثاره الثقيلة حيث كنا نقف أنا وابن عمى عبد العظيم •

وصاح عبد العظيم :

ـ على الطلاق الراجل ده رجعى •• طب أحمد ربنا اللى احنا لسه محتملينك •• كمان حاتتريق •• قال والله احلويتى يا بلدى •• أى احلوت وزهزهت ••

وقلت له وأنا أحاول أسكته :

ـ هس •• دا رئيس مجلس ادارة مؤسسة ومسؤول سياسى كبير •• أمين الاتحاد الاشتراكى فى المؤسسة •

وضحك عبد العظيم ••

ثم غاضت ضحكته شيئا فشيئا وتقلص فمه ، ودهمه شىء كالهم المباغت •• ولاح لى أنه يفكر فى بعيد •• كانت نظراته تائهة •• لم يعد زحام النساء على المحلات يثير تعليقاته ••

ومرت أمامنا فتاة سمراء تلبس فستانا قصيرا جدا أقصر من كل ما رآه فلم يشعر بها ••

وخرج من المشرب رجل أعرفه والسيجار الهافانا فى فمه ووقف يحدثنى ، ورأى عبد العظيم ، وأدرك أننا معا فتقدم منه يحييه ، ولكن عبد العظيم لم يشعر •• وسأله الزميل عن الحالة فى القرية وحدثه عن الفلاحين فى لهجة شعرت فيها بالتودد وقليل من النفاق •• ولكن عبد العظيم لم يسمعه ••

كانت نظراته شاردة ، وفى أعماق عينه يضطرم شعاع غريب•• لم يكن هنا فى شارع قصر النيل على التحقيق ••

وهزنى فجأة بعنف كأنه يهز نفسه من خواطره ليفيق :

ـ اسمع •• فين المحروق ده اللى اسمه •• اسمه •• ش • شب •• شبرد !! فين ؟ • فاكر لما انطردنا منه من قيمة خمسة وعشرين سنة وخدنا لنا يومين فى القسم •• ان كنت عاوز تسقينى قهوة ياللا بينا على شبرد ••

ـ لكن انت مش عندك ميعاد الساعة واحدة فى وزارة الاصلاح الزراعى ••

ـ ميعاد ؟! •• أنا لسه حاروح أناكف علشان أقابل الوزير أو أى مسؤول اشتراكى •• قالوا لى فى لجنة الاتحاد فى البلد ان أحسن وقت للمقابلة بعد الساعة واحدة •• ودينى على شبرد •

لك حق يا عبد العظيم •• لماذا ذكرت هذا الحادث فجأة •• كنت اذ ذاك تزورنا ـ ونحن نتعلم فى مصر ـ أكثر مما تفعل اليوم

.. لم تكن قد تزوجت بعد . وأخذتك يوما الى كليــة الحقوق وجلسنا معا فى بوفيه كلية الآداب وانت مبهــور ورأيت البنــات يتناقشن مع الصبيان .. وتمنيت أن يكون لك أولاد يتعلســون ويتكلمون بمثل ما كنت تسميه اذ ذاك الفصاحة ! ..

وأحببت أصدقائى وأحبوك .. وكلمت احدى الطالبات فلم تنفر منك فقلت لى انها لا بد أن تكون من أصل ريفى .. من يومك وانت ترى كل الفضائل من أصل ريفى ..

وفى الليل ذهبنا الى السينما .. كنت تراها لأول مــرة .. شاهدنا « بنات الريف » .. وبكيت لمصــير البطلة .. وقلت لى وقتها ان يوسف وهبى رجل شجاع وفاهم..وانهم هؤلاء البكوات يصنعون هكذا ببنات الريف ..

وخرجنا من السينما .. أنا ببدلتى ، وانت بجلبابك الأزرق المقلم .. انت تحب هذا اللون دائما .. ما يبلى عندك جلباب حتى تأتى بعد سنوات بآخر من اللون نفسه .. وكنت وقتها تلبس على الطاقية شالا وتجعلها كالعمامة .. كنت تخشى أن تجىء الى مصر بالطاقية..لم تكن فخورا بها دائما كما أنت اليوم ..وكنت تلبس حذاء فصلته خصيصا لزيارة مصر .. كان بنيا هذا الحــذاء كنت تسميه « الجوز العنابى » .

وخرجنا من السينما ولم تشأ أن نعود من فورنا الى البيت فى بركة الفيل ، قرب الحلمية الجديدة .. كنا نحن نسمى الحى أحيانا

الحلمية الجديدة تطلعا الى السكن هنــاك قبــل أن نسكنهــا بسنــوات .. وكــان ذلك المساء من الربيــع يزحف فيــه على البرد الذاهب دفء جديد يثير فى النفس الرغبة فى الانطلاق .. واردنا أن نمشى الى البيت لنطيل المسافة .

ومررنا بحديقة الأزبكية ، واستنشقنا هواءها بملء صدورنا .. وعمرت رائحة الخضرة من حديقة الأزبكية قلوبنــا المتفتحة للحياة .. كنا فى نحو العشرين .. وقلت لى فجأة :

ـــ فى البلد دلوقت تلاقى ريحة البرسيم ريانة وحلوة ..

وضغطت على كلمة حلوة .. ثم تابعت كلامك :

ـــ وروايح البرتقان ! .. البرتقان زهر .. زهره فتح . آه مما يصنع بى عطر البرتقال يا عبد العظيم ! ..

وتوقفنا أمام حديقة الازبكية وقلت لى :

ـــ ما فيش قهوة تطل على الجنينة دى نقعد فيها حبتين ..

ودرت بك على شبرد القديم .. وقصصت عليك شيئا من تاريخه .. وقلت لى انه سراى عظيم ! .. نعم .. كان كذلك . أتذكر ما قلته يوم حدثتك عن نابليون بونابرت .. لا تخف فلن أتحدث عن باريس .. ويوم حدثتك عن كليبر ؟ هنا أقاما الواحد بعد الآخر والأرض تتفزز تحتهم باللهب .. داسوا الأزهر وكل قداسات الحضارة بسنابك الخيل ، ولكن نار القاهرة شوتهم .. هرب نابليون فى زى امرأة ! لكم ضحكت وأنت تسمع هذا وشعرت

بالزهو والكبرياء .. أما كليبر .. تعال يا عبد العظيم .. أترى هذه الشجرة ..هنا سقط كليبر تتويجا لانتصار مقاومة شعب لا ينام ولا يستسلم .. أجدادنا صنعوا هذا يا عبد العظيم .. أخذنا تتأمل الشجرة من بعيد ونحن ندور حول شبرد وصممت على أن ندخل شبرد .. لنستريح ولنجلس حيث انتصرت بطولة الأجداد .. صرخت اذ ذاك : « يا واد يا حلبى يا بطل .. ولا الادهم فى زمانه وعزه » .

ولم نكد نجلس فى الشرفة حتى جاء « جرسون » نوبى .. له لون جلدنا نفسه يا عبد العظيم .. وسألنا متحرجا عمن ننتظر .. ظن أننا ننتظر أحد الرواد الكبار .. كانوا يجلسون هنا ، هم والعاهرات الفاخرات والضباط الانجليز والغوانى الكبيرات.. وطلبنا منه شايا لك وقهوة لى ..

فذهب متحرجا .. وتأملت أنت عددا من الضباط الانجليز الكبار يجلسون مع امرأتين مصريتين وصحت :

ــ بقى ما فيش حد هنا يعمل عملة الحلبى ده يا رجاله

.. ولم أكد أقول لك أن الجهاد ضد الانجليز لم يتوقف حتى جاء رئيس خدم الفندق ، وهو رجل أجنبى فخيم مهيب ، فطلب منا بلغة عربية ركيكة أن نخرج .. وصحت أنت فيه بغضب :

ــ ليه بقى يا خواجه .. احنا قاعدين فى حتة من بر مصر وقاعدين بفلوسنا ..

وبعد قليل جاء بضابط مصرى .. وأفهمنا ان الجلوس بالطواقى والجلاليب ممنوع !

أتذكر ؟ .. لقد قلت انت له :

ــ المرة الجاية حاجى لك متنك فى بدلة وبرنيطة ..

ولكنه تجهم

وقلت له انا اننى طالب بالحقوق أعرف حقوق المواطنين والدستور يمنع هذا ، ومن حق كل مواطن أن يجلس فى أى مقهى .. انها الحرية المقدسة .

ولكن الحديث تطور .. لا نعرف كيف .. وانتهى بنا الى يومين فى حجرة خانقة بقسم الازبكية .. حجرة كدس فيها عشرات الأشخاص ..

وأقبل الليل بلا نور ، وبلا نوم ، فما كان فى الحجرة مكان يتسع بعد لرجل واحد يقعد على راحته .. لم نخرج الا عندما استدعى أحد الضباط كل الموجودين فى الحبس ، وحين عرف قصتنا ضحك .. ثم أبدى اعتذاره الصادق وقال بمرارة :

ــ نحن غرباء فى بلادنا .. معلهش ! .. ثم ان كلمة المواطنين دى اللى قلتها فى شبرد كلمه خطر ! المواطن دى كلمة اخترعتها الثورة الفرنسية والعياذ بالله . احنا مملكة مش جمهورية ! على كل حال معلهش .

وعندما قلت أنا له اننا حبسنا بلا ذنب ، وهذا ضد الدستور ، اعتذر لى .. وعدت أنت تقول له كيف يعوضنا عما لقيناه ... وكيف نحبس ويكون العوض هو كلمـة « معلهش » .. اعتذر مرة أخرى وقال انه سيحاسب المسئول عن هـذا ، فصحت أنت تحييه :

ـ يحيا الرجل الشهم .. يحيا الرجل الوطنى ويسقط الرجال الجبانات !!

لك حق ..

لن أنسى ذلك الضابط الشاب ، وضيقه الذى غمر ضحكاته عندما أدرك ما أصابنا لأننا أودنا أن نقعد فى جزء من أرض الوطن .. هو فى النهاية مقهى مبذول لمن يدفع ثمن الطلبات !

كل هذه الذكريات عن شبرد يا عبد العظيم هى التى تدفعك الآن الى أن تجلس فيه ولكن المـكان تغـير .. ذهب فى حريق القاهرة .. ألا تعرف يا أخى .. والشجرة التى كنت تطوف حولها من بعيد كالعابد الورع .. الشجرة التى شهدت قمة المقاومة ضد الجيش المحتل .. لم تعد بعد .. لقد قطعت !

أنا أعرف ماذا يعنى قطع شجرة عند فلاح مثلك . ولكن هذه الشجرة بالذات ، والأرض التى كان يحتلهـا شبرد أصبحت الآن ملعب كرة يقلد فيها أبناء الحى نجوم الكرة الكبار الذين يقرأون عنهم فى الصباح والمساء .. لا تحدثنى فى الكرة كما يحدث هنـا دائما فى القاهرة ...

ولكن شبرد الجديد سيرحب بك .. لا داعى للامتحانات .

وعلى باب شبرد فتح « جرسون » مصرى البـاب ، وابتسم مرحبا .. وعبد العظيم يدخل .

ونظر الى عبد العظيم بزهو .. وقال لى :

ـ بلاش منه بقى .. كفاية كده .

واستدار قائلا :

ـ ياللا بنا على الاصلاح .. ياللا بنا ..

ـ ما تيجى نشرب القهوة .

ـ مافيش وقت للقهوة ، بلاش تضييع وقت فى القهاوى .. أنا كان نفسى ألمس بنفسى التغيير ده .. دلوقت أنا فرحـان .. وحاسس بحق وحقيق انى فى حتة من أرض الوطن .. ان كل حتة من أرض الوطن هى حقيقى بتاعتى .

أرض الوطن !!

كنت تقول من عشرين عاما «البر » .. أرض الوطن؟! .. ما أروع رنين الكلمة .. ولكن ياعبد العظيم .. أين تعلمت هذا كله ؟!

ولم أشأ أن أسأله .. فقد خشيت أن يجرحه السؤال ..

وانطلقنا أوصله الى وزارة الاصلاح .. وفى الطريق ونحن صامتان قلت له :

ـ أنت مسافر بعد المقابلة دى ؟

— بعون الله أسافر منصور . بعد ما أساعد على تصفية العقليات الرجعية والمخربة دى ..

ما هذا أيضا يا عبد العظيم .. العقلية الرجعية والمخربة .. من أين تعلمت هذا كله ؟

ورآنى أنظر بدهشة وبشىء كالحيرة .. فنظر الى مبتسما

— أوعى تكون زعلان منى .. أنت فاكرنى يعنى باشد المسخرة على الكتب واللى بيقروا الكتب .. لا والله العظيم ..أنا مش ضد الكتب والله .. ما تزعلش منى لما أهاجم الناس اللى قاعدين يقروا ويتكلموا وسايبين مواقع العمل ! .. دول ما يساعدوناش مع انهم كفاءات برضه واحنا أعداءنا كتير ، لكن حانصفيهم بعون الله .. انت فاكر اللى زقتنى عشان تخش القهوة اللى كنا واقفين قدامها .. فاكر الراجل اللى بص لى بقرف وقعد يتريق على الفلاح الاشتراكى .. والبنات اللى ماشيين ملعبطين وكاشفين أفخاذهم ... بقى دى كلها مش معوقات .. مستغرب كلامى ليه .. يعنى أرطن لك بالفرنساوى .. والا آكلك زى الفلاحين اللى بيطلعوا فى السيما والاذاعة والتليفزيون علشان ما تستغربش .. على كل حال كلها عشر سنين بالكتير قول خمسة، ولا يمكن تلاقى فى الجمهورية كلها حاجات معوقة زى دى .. دا الزحف الثورى زى الموج .. اللى يقف قصاده يتعب ، واللى يعاند الموج يجره بعزم مافيه .. ربنا يطول فى عمرنا ويدينا الصحة واحنا بكره ياما نشوف .. بكره تروق وتحلى كمان وكمان

.. بعد عشر سنين يا عالم ! .. يمكن الواد فتحى يكون بقى حاجة تانية .. بقى عالم ذرة .. يساهم فى عمل ذرى للسلام .. زراعة بالذرة ، علاج الأمراض بالذرة .. توفير الأكل بالذرة .. بكره تشوف بعد عشر سنين البلد دى حاتبقى ايه .. والوطن العربى كله ! ..

يا عبد العظيم أرحنى وقل لى أين تعلمت كل هذا ؟! .. كيف تعلمت هذا كله .. ؟!

ونظرت اليه بإعجاب .. أترانى حقا كنت أنتظر منه أن يتحدث كما ألفته منذ عشرين عاما .. أين اذن التطور الذى أومن به ؟

أنت يا عبد العظيم مع ذلك محير ..

وقاومت فى نفسى الاستعلاء الذى سيدفعنى الى الاعجاب بفلاح يتكلم هكذا .. شعرت أن فى اعجابى به — حتى اعجابى — نوعا من التيه سيجرحه .

وسألته فجأة :

— أنت مسافر النهارده بعد ما تخلص مشوار الوزارة ؟..

— ان شاء الله .

— ما تشوف لنا خدامة ..

— ما عادش فيه حاجة اسمها خدامة

— قصدى شغالة !

— يا سيدى المصنع ما خلاش حد من بنات البلد ولا بنات

الناحية كلها محتاج للشغل فى مصر .. البنات الكبار حتى اللى كانوا بيخدموا فى مصر رجعوا كلهم للبلد وبيشتغلوا فى المصنع وبياخدوا دروس محو أمية بالليل فى مدرسة البلد .. شفت بقى .. والبنات الصغار بيتعلموا .. أجيب لك هبابة شغالةمنين بقى ؟

وصبت قايلا قبل أن يكمل :

ـ زمان الجهل راح .. ما كل حى يخدم نفسه .. والا شغلوهم بالساعة زى بتوع بلاد بره .. زمان الجهل راح وماحدش يقدر ياكل عرق حد .. زمان الاستغلال راح وراحت أيامه !

زمان الاستغلال .. الاستغلال ! هكذا يا عبد العظيم ..

وزعقت فيه فجأة وقد نفد صبرى :

ـ قل لى انت اتعلمت الكلام ده فين ؟

وضحك قائلا ونحن نقترب من وزارة الاصلاح الزراعى :

ـ يمكن من باريز ؟! والا يمكن من باريز ؟! حاتعلمه فين يعنى .. من الكتب والحاجات اللى أنتم مغروزين فيها لشوشتكم ليل نهار !؟ أتعلمته من على رأس الغيط يا بتاع مصر .. وده سؤال ده ؟ اتعلمته من البلد .. طب تعال البلد كده أقعد لك كل سنة شهر والا اتنين وانت يا ما تتعلم .

لك حق يا عبد العظيم .. يا ما يمكن أن أتعلم .. من قريتى!

وعندما خرج عبد العظيم من وزارة الاصلاح كنا معا فى الطريق الى قريتنا .. كان الهواء البارد قد بدأ يتحرك ، وعاصفة تقترب ، والسماء تمطر ، ولكن النهار كان يغنى .

2

نسمة فاترة مثقلة بدفء الشمس ، هبت على الحقول المترامية حتى الأفق .. والأعواد اللينة الجديدة تتدافع أمام الريح وتتموج ، كأنها شعر امرأة شقراء فاتنة .. لا .. فماكانت الأعواد قد اصفرت بعد وأصبحت ذهبيات السنابل ..

كانت الأرض السوداء الطيبة تبدو تحت الأعواد المتأودةالى المدى ، كأنما غمرتها أمواج ناعمة خضراء تختفى حيث أشجار التوت تشمخ فى البعد كحراس خالدين ! ..

كل ماحولى عن يمينى حقول من القمح الجديد .. وعن يسارى على الطريق الزراعى تقفز العين على مساحات ضيقة من حقول البرسيم تجاور حقول الفول وحدائق البرتقال .. ورائحة الخضرة والأرض والخصوبة والنماء تملأ الهواء بشذى دسم ، رقيق شفاف مع ذلك ، يثير فى النفس الرغبةالجامحةالى الانطلاق وسط هذه الخضرة الرخصة ..

لكم يتنفس الانسان هنا بحرية !.. لكم يشعر بالقدرة على أن يكون مفيدا للآخرين ، وبالحاجة الى أن يحب أكثر مما يصنع، وأن يعطى أضعاف ما يأخذ ، وأن يقول أروع الكلمات ! ..

والعربة تمضى بنا أنا وابن عمى عبد العظيم .. ثم تتوقف بعيدا عن القرية .. فهنا موقفها ، وما زال على مدى البصر هذا

الموج الناعم المثير الذى تصنعه الريح الحانية الممطرة الخفيفة بأعواد القمح الجديد .

وسألت عبد العظيم :

ــ هى كل البلد زارعة قمح الناحية دى والا ايه ؟ ..

ــ الناحية دى فيها تجميع زراعى .. كلها قمح .. والناحية التانية اللى على شمالك متروكة حرة كل حى يزرع فيها على هواه .. وفيها خلق زارعة قمح برضه . لكن شوف بقى الفرق بين ده وده .. شوف العيدان بتاعة التجميع عاملة ازاى ؟ العود طول الراجل .. والتانية ماتخبيش حتى ديب .. فرق بين الجهد الفردانى والمجهود الجماعى .

أنا لم أزر قريتى فى الشتاء منذ سنين .. ألفت أن أزورها فى الصيف ليوم أو يومين ثم أمضى .. !

هذا المطر ؟.. كيف سنسير الآن ؟ قديما عندما كنت فى القرية غلاما صغيرا كنت أفرح بالمطر .. كنا نجرى أنا وعبد العظيم وأطفال القرية ، حفاة والمطر يغمر شعورنا المتلصصة من تحت الطواقى ، ونحاول أن تتلقفه فى الأفواه .. وكانت أقدامنا الحافية تشعر بلمس عذب للأرض التى يحولها المطر الى شىء لزج بارد.. وكنا نجرى فى فرح الى المنخفضات التى جعل منها المطر بركا صغيرة ونسميها بحارا وبحيرات .. ولكن مطر هذا اليوم لايمكن اجتيازه بالأحذية .. هاهى ذى البحار القديمة التى كنا نبحث عنها فى الطفولة تحت المطر .. مستحيل أن نجتازها اليوم !

ووجدت عبد العظيم قد اجتازها بيسر بعد أن شمر جلبابه ووقف ينادينى .. وأنا أبحث عن قطعة من الأرض لا ماء فيها :

ــ اجمد .. آجى أشيلك .. شمر البنطلون .. مالهاش لازمة أول جنابك ماتنزل البلد تنغرس فى الطين يابتاع مصر.. ادلش ماتخافش .

وضحك ثم استمر :

ــ والا خليك مكانك .. أنا حاجى أشيلك ..

ولكنى نحيته ضاحكا ، وهو يحاول أن يحملنى ليجتاز بى منخفضا صغيرا ملأه ماء المطر .. وشمرت أطراف البنطلون ، وبدأت أتحسس طريقى ..

وأمسك بيدى فى رفق وهو يقول :

ــ ما هو طبعا لا فيه هنا طرق مسفلته ولا بلاعات لشفط الميه، الفلاحين فى بلاد بره عايشين كده برضه ! والطرق الزراعية بتاعتهم كده ؟ شوية مطره يلغمطوا الدنيا ؟ .. هه ؟ .. قل لى .. اشمعنى يعنى كل الأسفلت اللى عندنا حاطينه فى شوارع مصر واسكندرية .. ما تسيبوا لنا حبة كده نسلك بهم الطرق عندنا ..

وكان مع ذلك يضحك .. ولم أعرف بماذا أجيبه .. وعدت أسأله :

ــ انت ليه مش راضى تحكى لى على اللى حصل لك جوا الوزارة .. ؟

ــ مشواری ده کان مهمة من لجنة الاتحاد الاشتراكی ..
ما يصحش تتحكى الا فى مكانها .. فاهمنى .. لو كنت عضو معانا
هنا كنت حكيت لك..لكن دى حكاية لاتهمك ولا تهم حد غير أعضاء
الاتحاد الفلاحين .. انت عارف اننا عضو طبعا فى لجنة البلد ..
وكنت حاطلع لجنة المركز لولا رزق .. اللى مبوهينه .. رزق
بيه .. هىء .. سلامات يارزق بيه !

ــ يعنى وفقت فى مهمتك ؟ ..

ــ الموفق ربنا ..

وشعرت أنه مصمم على ألا يحدثنى فى هذا الأمر ، رغم إلحاحى عليه فى السؤال منذ خرج من وزارة الاصلاح .. وأدرك ضيقى .

ــ ما تزعلش .. ما هو يا اما الكلام له فايدة ولزوم ..
يا امة يبقى رغي ودوشه ولك فارغ .. ما هو حاكم احنا حاجة تانيه غير الفلاحين اللى اتعودت عليهم فى مصر من السيما والاذاعة والتلفزيون .. الفلاحين اللى بيضحكوكم .. بذمتك بيضحكوكم علينا ليه ؟! ما يضحكونا كلنا على الرجعيين والانتهازيين والمنحرفين .. ما يضحكوكوا على سى رزق ، والا على المشرف الزراعى اللى عامل لى شاب طرب ودایر بالفرسة بتاع الاصلاح وعاوز يغوى بنات البلد اللى بيشتغلوا فى أرض الاصلاح .. مش يضحكونا على الصنف ده أحسن .. والا على البنات اللى لابسين فوق الركب فى مصر ، والا على الست اللى زقتنى دى ، والا .. على

سعادة البيه اللى بيتريق على الفلاح الاشتراكى .. يضحكوهم ويضحكوكم علينا ليه بس ! دول حقهم يضحكونا احنا على الأصناف دى .. والا أنا بارغى زيادة ؟! ..

يا عبد العظيم انت تتحدث فى الفن والأدب أيضا .. وبعمق غريب ، وشائق ! .. كل شىء يسير عندك .. أعماق الأشياء تعبر بها فى نفاذ خارق ، بأدق الكلمات .. بلا حذلقة .. ولا فلسفة ! فى كلماتك من التحديد لدور الادب والفن فى المجتمع الاشتراكى أكثر مما تنفق نحن فيه الليالى ، تتحدث وندخن ونشرب الخمر الرديئة أو الفاخرة !

وكنا قد اجتزنا الطريق الصغير الضيق الملىء بالحفر الذى يفصل بين القرية والطريق الزراعى الكبير .. وأشرفنا على المقابر القديمة يعلوها مقام « سيدى مسعود » .. دائما باللون الأبيض .
وسألته :

ــ البلد لسه بتعمل مولد سيدى مسعود ؟

فأجابنى :

ــ شى الله يا سيدى مسعود .. آهو سيدنا الشيخ طلبة بيفوت دلوقتى على الدور ياخد اللى فيه القسمة ويجيب شوية من أهل الله يذكروا لهم شوية وخلاص ! أنت فاكر يعنى زى زمان.. فقها وصييت وهيصة ورقص ومواويل وكلام من ده .. ماعادش فيه جهد المحاجات دى .. تعرف الفلوس اللى كانت بتنصرف عالمولد ده زمان ؟ دلوقتى بتلمها اللجنة وتشترى بها كسوة للفقرا

اللى مش قادرين يشتغلوا .. مش كده أحسن من النصبةالقديمة .. كده برضه أقرب لله .. ويمكن يرضى سيدى مسعود أكتر .. بدل الهلك الفاضى نعمل حاجة تنفع .. ننور البلد .. نساعد حد محتاج .. أيها حاجة .

ــ لكن سيدنا الشيخ طلبة مبسوط كده .

ــ مبسوط ؟ .. دا مطلع البلد كلها كفرة ! .. عاوز الميغة الأولانية .. وانْ ما كناش نعمل نصبة وصبيت وكل واحد يطلع له صنية عالعشا وصنية عالفطار للاغراب والمجـاذيب اللى كانوا بيبجوا المولد .. تبقى بلد كفرة .. لكن بقى ما حدش بيسأل عنه .. زمن الجهل والتنبلة زاح .. دا حتى العيال اللى كانوا عايشين عالمولد دلوقتى بيشتغلوا بعشرين وبتلاتين قرش فى اليوم .. زمان عمرهم ما شافوا منهم حتى ريحتهم .. وآهـم بقوا فلاحين رضا والاعمال فى المصنع ، بدل ما كانوا عواطلية ، ينتظـروا المولد من السنة للسنة والواحد منهم يجر محرات والا حتى ساقية .

ودخلنا القرية والشوارع الضيقة فيها يغطيهـا الطين وماء المطر ، على رغم من الشمس الساطعة ، ورغم توقف نزول المطر من ساعات .

كنا بعد العصر ولم نجد فى الطرقات أحـدا .. أين ذهب الناس ؟ .

قديما كنت أعثر برجل أو رجال يجلسـون على المصاطب

ونسـاء أمام أبواب الدور ، وفتيات رائحات غاديات وأولاديلعبون هنا وهناك فى طرقات القرية فى أى ساعة من النهار ..

ــ البلد مالها كده زى ما تكون عزلت ..

ــ أصلك من زمان ماجيتش .. هو فيه حد فاضى .. والا عاوز البنات والستات يمشوا فى الشوارع يتلطعـوا على المحلات زى بتوع مصر ؟ .. الرجالة فى الغيطان .. والبنـات يا اما فى المصنع او المدارس أو فى الغيطـان .. والعجـائز جـوه الدور مكنونين .. والأولاد الصغيرين لسه فى المدارس زمانهم خارجين .. عايز أيه بقى .. وقرب المغرب كده تلاقى البـلد بتشغى زى خلية النحل ..

ووقفنا أمام دار عبد العظيم وتشبث أن أدخل معه ، ولكنى اعتذرت ، وتواعدنا على أن نلتقى بعد المغرب فى بيتنا .. فقال لى بعد تفكير :

ــ ابقى تعال لنا اللجنة بعد الساعة تمانية .. احنا حانجتمع بعد المغرب .. وحانخلص فى قيسة ساعة كده .

وقبل أن أنصرف أقبل رجل ملىء أصغر سنا من عبد العظيم، يلبس معطفا من النوع الذى يباع جاهزا فى شوارع القاهرةمهربا من غزة ، ويمسك عصا ثمينة ، وفى أصبعه خاتم ذهبى يلمـع .. وجلبابه أنيق من الصوف الانجليزى الفاخر .. وتقدم مرحبا بى وقدم لى سيجارة انجليزية من الصنف الذى لم يعد يستورد ..

كان وجهه مكتنزا مستديرا وأنفه أحمر أفطس فوق شارب أصفر منسق بعناية .. وشفتاه رفيعتان مطبقتان .. ووجهه يحمل طابع التحدى .. تحدى أى شىء .. كانت عيناه زرقاوين حادتين .. وكان عارى الرأس ، شعره القصير المنسق يكاد يقف على فروة رأسه وكان لكل وجهه منظر قط برى .. وحاولت أن أتذكره فلم أستطع .. وسأل عبد العظيم :

— عملت ايه يا اخويا فى مصر .. قابلت الوزير .. جبت الديب من ديله .. الحمد لله على السلامة !

— اللى عمله ربنا خير .. ان شاء الله النهارده فى اللجنة بعد المغرب أبقى أحكى .. اتفضل القهوة .

— وكنت مسروع ليه كده على مشوار مصر ؟ وهو المشرف كان عمل ايه ؟ بيقعد عند رزق بيه ؟ وايه يعنى ؟ .. ما الناس مقامات .. مش لازم يقعد مع واحد من مقامه .. عمل ايه يعنى؟ ادى البنت تفيدة بنت سيدنا الشيخ طلبة قفص برتقان من جنينة الاصلاح .. ما هو مورد فلوسها ، والبنت هى اللى عينها منه وسيدنا الشيخ طلبة لادد عليه .. مالنا احنا .. وآهو سيدنا بيقرا قرآن فى سراية الاصلاح بتمن جنينة بحالها ..

وضحك عبد العظيم :

— ومركبك فدانين من أرض الاصلاح غش يا توفيق يا ابن حسنين .. خللى الطابق مستور .. ومشغل وابور الجمعية

التعاونية فى أرض رزق بيه بتاعك .. البيه اللى ماشافش البهوية الا بعد ما اتلغت الالقاب .. واحنا اللى ندفع تمن الوابور لرزق بيه .. هه .. هه .. و .. و . أقول لك ايه كمان ؟ ما تخللى الطابق مستور .. اتفضل قهوة وفضك من الكلام ده .

آه .. هذا هو توفيق حسنين .. لم أره منذ أكثر من عشرين عاما .. كان أبوه مشهورا بالبخل .. ويتقولون انه كان يملك « زلعة » مليئة بالنقود الذهبية وجدها مدفونة تحت الأرض .. حسنين هذا لم أره أبدا حتى فى طفولتى ، ولكن قصصا عجيبة وحكايات كالأساطير كانت تتناقلها البلد عن بخله .. كانوا يسمونه المرابى .. ومنذ مات لم يعد أحد يذكر هذا الاسم .. حتى عندما كان أحد الرجال يريد أن يشتم ابنه لم يكن يجسر على الرجل الميت فيقول لولده يابن المرابى كما كان يحدث والرجل حى .. حسنين كان يقرض كل الناس بالربا .. حتى اخوته .. ومن هذه «الزلعة» التى وجدها ظل ينفق وبنى بيتا كبيرا .. وذهب الى مصر مرة وعاد بامرأة سمينة صغيرة بيضاء الجسد شقراء الشعر زرقاء العينين وخبأها فى البيت .. مع زوجته الأولى التى لم تكن تنجب .. وسكن فى بيته ضابط النقطة وبدأنا نسمع ونحن صغار عن علاقات بين ضابط النقطة وبين هذه السيدة الشقراء التى لم نكن نعرف عنها شيئا .. كانوا يسمونها « غندورة » حسنين ..

وعندما ولدت له «توفيق» عرفت فى القرية باسم أم توفيق .. ولكن ضابط النقطة نقل من القرية . وسافر ذات مساء ، وبعد

أيام اختفت أم توفيق .. تركت البيت الكبير الجديد ، وزوجها حسنين ، وطفلها توفيق ذا العام الواحد .. ونفذت بجلدها ومعها ما بقى فى الزلعة من النقود الذهبية .

وجن حسنين ، وظل يصرخ ويلطم ويبكى ، وعاش بعدها عامين قعيدا .. ثم مات .

لا أحد يعرف أين ذهبت .. أهربت مع الضابط ؟ .. لا أحد يعرف .. أسرقت النقود وفتحت ملهى فى الأزبكية ؟ .. سمعنا هذا أيضا .. ولكننا بعد أن راحت من القرية بدأنا نسمع أشياء عجيبة تناثرت من الزوجة القديمة .. كان حسنين يقبل يد زوجته الثانية ، وكان يتركها تهين زوجته الأولى وتضربها أحيانا ، وكانت زوجته الأولى فى عمر أم هذه الزوجة الثانية .. وكان حسنين يكبر هذه الزوجة الهاربة بنحو أربعين عاما .. ومع ذلك فقد أنجب منها ..

ويقسم الشيخ طلبة أن حسنين لم ينجب منها ، ولكنها آخت عفريتا من الجن جميل الصورة فأنجبت منه ولدها توفيق .. وهذا العفريت هو الذى أغراها بالهرب .. ولو أن حسنين أقام مولدا لأهل الله ــ كما كان طلبة قد نصحه ــ لما حدث له كل هذا .. ولكنه بدلا من كل هذا ملأ ذراعيها بالذهب .. وتركها للعفريت .. والشيخ طلبة يقسم أنه يملك من الدلائل ما يؤكد أنها كانت عشيقة هذا العفريت ولكنه لا يستطيع أن يبوح بشىء لأن هذا

العفريت شرير ، ولولا أن الشيخ حامل للقرآن الكريم لركبه العفريت ، وآذاه فى بنته تفيدة ..

ان ما يلقاه الشيخ من استهزاء الناس بعطف المشرف الزراعى على ابنته تفيدة ، ليس الا أذى من العفريت لأن الشيخ منذ سنوات باح بشىء يسير من السر الخطير !!

وكان توفيق حسنين قد ورث من أبيه ثلاثة فدادين ..زرعها بنفسه واستعمل فيها عددا من الأجراء فى القرية .. وقد شب وهو يسمع حكايات عن أبيه وأمه ..

وكان أبوه على صداقة بالبك .. رزق .. وكان أحيانا يأخذ زوجته ، ويزور رزق بك هذا .. يدخل حسنين الى منظرةالرجال، ويترك زوجته الصغيرة السمينة الشقراء لرزق بك يقودها الى مكان الحريم لتؤنس زوجته .. وأحيانا كان رزق بك يترك حسنين وحده ساعة أو أكثر ثم يعود اليه معتذرا لأن النساء عطلنه فى مكان الحريم ..

وعندما قال أحد الرجال مرة لحسنين أن رزق بك هذا غير متزوج ، هاج ولعن القرية وغباءها وحقدها عليه .. فرزق بك نفسه هو الذى قال له انه متزوج من سيدة تركية بنت أكابر وأنه يخبئها فى بيته ولا أحد يراها حتى الخدم وهى منذ دخلت قصره لم تر الشارع .. وعلى أية حال فبعض الناس فى القرية يقسمون أن الست أم توفيق ، لم تهرب مع الضابط ولم تهرب الى القاهرة

وانما تقيم فى قصر رزق بك ولا ترى الشارع .. وبعضهم يقولون ان فى توفيق شبها كبيرا من رزق بك .. طوله ، ونفس الوجه المستدير ، والشارب الأصفر والأنف الأفطس الاحمر .. وحتى حجم جسمه الربعة المكتنز ، وعيناه الزرقاوان ، وكل شراسة القط البرى التى ركبت فى الاثنين .. ولكن الشيخ طلبة أقسم للناس أن الولد طلع لأمه !!

وعلى أية حال فلم يعد أحد فى القرية يذكر هذا كله ..

ولكنى تذكرته فجاة عندما تعرفت على توفيق حسنين بصوته النحاسى الأقرع ، ووجهه المتحدى وهو يتحرش بابن عمى عبد العظيم .

— طيب ما تقول لى بس الوزير قال لك ايه .. بقى انت قابلت وزير فى مصر ؟ .. والله اللى يدور عليك يلاقيك لا قابلت وزير ولا غفير .. طب دا رزق بيه بجلالة قدره لو راح ما يعرفش يقابل حتى سكرتير وزير .. هم الوزرا فاضيين لبلدنا .. والا فاضيين يا عبد العظيم بيه .

— عبد العظيم بيه ؟! .. انت بتشد عليه المسخرة يا توفيق يا بو حسنين ؟! .. اسمع يا توفيق .. اقصر الشر يا توفيق بلا كتره .. انت برضه قدام دارنا وواجب على أكرمك .. الليلة تعرف كل حاجة فى الاجتماع بعد المغرب .. أنا حافوت على الأعضاء بنفسى واحد واحد .. روح انت لرزق بيه بتاعك يحضر الاجتماع .. اتفضل قهوة .

— رزق بيه يا جدع هو اللى يدعى للاجتماع مش انت .. الله .. هيه الميه تركب العالى .. يا خبر يا عبد العظيم ..

— البيه بتاعك ده مش هوه العالى .. احنا العالى ياتوفيق .. فوق بقى .. الفلاح هو ال ..

ومرت فتاة فى ثياب مزركشة .. سمراء قانية الأنف ،واسعة العينين .. مليئة ، متوسطة الطول ، بارزة الصدر على نحو ملحوظ ، وعلى وجهها راحة هادئة .. فى وجهها وكل بدنها هيئة أنثى تطعم فى سلام لتتمتع فى رضا .. وفاجأتنى بالسلام ، ومالت على يدى فقبلتها .. وشعرت لملمس شفتيها على ظهر يدى بدفء ودسم .. وتطلعت فيها مرة أخرى فوجدت وجهها رائقا صافى البشرة مستريحا كأنه لم يحمل هما أبدا .. وعادت تسلم على :

— نورت البلد .. ازيك يا سيدنا البيه .

وسلمت على عبد العظيم وهى منتصبة القامة متخايلة بقوامها وصدرها :

— حمد الله عالسلامة يا سى عبد العظيم .. قريت لنا الفاتحة فى الحنفى عند أهل البيت .. شى لله يا سلطان يا حنفى شى الله يا أهل البيت يا أسيادنا يا أهل البيت .

من هذه ؟ لا عهد لى فى القرية بمثل هذه الراحة المطمئنة على الوجوه .. وهذا الامتلاء كله ؟! أتأكل عسلا وقشدة وتعيش بلا عمل ؟!

وقبل أن أسأل عن اسمها التفت توفيق الى عبد العظيم ورد عليه بتأنق وحدة :

ــ انت حاتوعظنى ..حاتفهمنى فى الفلاح ، طب سلام عليكم .. ولنا كلام فى الاجتماع ..

ثم التفت الى الفتاة وهى تتحرك :

ــ استنى يا تفيدة .. انت جايه منين ؟

ــ من عند البيه المشرف ..

كان صوتها مفعما بحرارة خاصة ، خفيفا ، جسورا مع ذلك.

ــ رزق بيه هناك ؟ ..

ــ أيوه .. سبتهم مع أبويا .

وقال عبد العظيم :

ــ ازى سيدنا الشيخ طلبة .. والله له وحشة !

ــ يوه .. على يومين يا سى عبد العظيم ..

وضحكت ..

تفيدة هذه كانت منذ عشرة أعوام طفلة يسحبها أبوها وهو يقرأ القرآن كل صباح فى دور الميسورين .. وتفرح بما تأخذه من خبز القمح .. رأيتها أكثر من مرة منذ عشرة أعوام فى صيف عام ١٩٥٥ ، واستوقفنى منها جمال عينيها الطفلتين والبراءة الموحية فى وجهها .. ثم نهمها الشديد فى الأكل .. لم أرها أبدا الا وهى

تقضم رغيفا من خبز القمح الطرى .. وأبوها يزجرها ان تبقى له شيئا من خبز القمح وتأكل هى خبز الذرة فأسنانها تقوى عليه ..

وانصرفت تفيدة .. وانصرف وراءها توفيق حسنين وهو يقول بصوت مرتفع :

ــ طب الحقى البيه قبل ما يروح عزبته .. الحقيه عند البيه المشرف يا تفيدة .. قولى له يشرف اجتماع اللجنة بعد صلاة المغرب ..

ثم ضحك :

ــ سى عبد العظيم هو اللى عامل الاجتماع .

ومشت تفيدة تتأود فى حذر ، خوفا من أن تنزلق فى الطريق الملىء بالطين .. وشدت جلبابها الملون وهى تعبر بركة صغيرة تخلفت من المطر .. وبانت ساقاها .. جميلتان ناصعتان ..

وسرت الى بيتى ، وعبد العظيم يتابعها بنظراته وهو يقول بصوت مرتفع ضاحك :

ــ ما تلبسى يا بت فوق الركبة زى بتوع مصر ما دام ماشية تتقصعى زيهم كده .. ما اللى بيلبسوا فوق الركبة دول زيك .. والله تنطلى فيها .. آكل ومرعى وقلة صنعة يا غجر .

3

ظلت القرية أربعة أيام تنتظر أن تجتمع لجنتها ولكن بلا فائدة ! ..

قال لها رزق انه لا يستطيع أن يغامر بفرسه الأصيل ويخوض به البرك والأوحال التى خلفتها الأمطار .. اردمى البرك يا بلد وأنا تحت أمرك .. عندكم تبن كتير يا أهل البلد .. ارمـوه فى طرقات القرية ليستطيع حصانى أن يسير آمنا ..

يا سلام يا رزق بيه !.. نرمى خير البلد ليمشى عليه حصانك! ولا الوالى التركى فى زمانه !! يا رجل ! اخز الشيطان .. انت أمين لجنة الاتحاد الاشتراكى ورئيس الجمعية التعاونية وبيتك العامر على الطريق الزراعى فى مدخل البلد وما بينه وبين مقـر اللجنـة والجمعية الا مائة خطوة بالعدد .. يا رجل اخز الشيطـان فأنت المسئول الأول ..

ولأنى المسئول الأول يا بلد فأنا لا أقبل أن أدعى الى اجتماع لم أحدده أنا .. أنا الذى يدعو الى الاجتمـاع . أنا المسئـول ولا أرى داعيا للاجتماع الآن افهمى يا بلد .. افهموا يا ناس .. افهموا ان الاجتماع الذى قرر ارسال عبد العظيم الى القـاهرة باطل ، وكل قراراته باطلة .. أنا لا أعترف بها ، ولن أحضر اجتماعا يحكى فيه عبد العظيم نتائج رحلته فى القاهرة ، فهذه الرحلة غـير معترف بها ، ومقابلاته غير قائمة بالنسبـة لى .. انتهى .. من يعجبه كلامى فهو حبيبى ، ومن لم يعجبه فليشرب من البحر أومن ماء البرك .. !

يا رجل .. ما مسألة الاعتراف وعدم الاعتراف هذه ؟ .. عبد العظيم سافر يومين ورجع .. عاد بنتيجة طيبة ، ولكنه لا يريد أن يتكلم الا فى الاجتماع..وأنت فى أول الأمر ما قلت انك ممتنع لأنك لا تعترف باجتماع سابق أو لا تعترف بسفر عبد العظيم ! بل اعتذرت بالمطـر وبرك الطـريق والأوحال .. والشمس تضرب الارض بحرارتها المفاجئة منذ أربعة أيام .. جفت الطرق والبرك ولا أوحال .. لا أوحال غير التى تريد أن تصنعها أنت وتغرس فيها البلد لشوشتها .. اخز الشيطان يا رزق بك ، وتعال احضر الأجتماع .. أنت لا تريد أن يدعو عبد العظيم للاجتمـاع لأنه عضو لا غير .. يا سيدى ادعنا أنت للاجتماع يا سيدى وخلصنا.

ومر يوم خامس ورزق بك لا يريد أن يحضر الاجتماع أو أن يدعو الى اجتماع .. وقد بدأ يضيق بمن يكلمه فى الأمر ..

ـ خلاص بقى يا عم الشيخ طلبة .. أرجوك .. أنا مش مستعد أسمع كلام تانى فى الموضوع ده .. ما الأصول ضاعت ! ما خلاص ما بقيتش البيه بتاع زمان .. خلاص .. لكن ورحمة أبويا لأعرف ازاى أربى العيال المشاغبين اللى طلعوا لنا شيطانى دول .. خلاص على قولة يا سيد رزق .. حتى قولة رزق بيـه مستكترينه على ..

ـ اهيه .. مهما يكن برضه المقامات محفوظة . ما بقيتش البيه بتاع زمان ازاى ؟ .. دا انتم أسيادنا من قديم الأزل .. طب قسما بالله دا المرحوم والدك عطا الله بيه لما كان يقعد فى الشكمة

اللى احنا قاعدين فيها قعدتك دى ، وشوف بيننا وبين الطريق الزراعى قد ايه ما كان فيها أيها واحد يفوت على السراى راكب.. كان أجعصها واحد ينزل من على ركوبته قبل السراى بياما .. ويسحب الركوبة ويمشى قبل ما يقرب للسراى بمدة .. وسعادتك برضه مقامك عالى قوى ومحفوظ قوى .. الأصول مرعيةياسعادة البيه .. غيرشى هيه بلد نجسة وكافرة وجاحدة .. دايرة ورا شوية عيال كفرة . لكن الأدب واجب عليهم برضه .. واجب عليهم ما يخرجوش من طوع سعادتك .. دا اللى مالوش كبير بيشترى له كبير .. واحنا عندنا أسياد الناس من يوم ما فتحنا عينينا .. نقوم نعصاهم .. ده حتى ربنا يقل بركة البلد .. الدين أمرنا بطاعة كبرائنا ..

وشعر « رزق » بشىء من الراحة وهو يسمع الشيخ طلبه يستنكر ما صنعه « عبد العظيم » فى حماس صادق ..

وأخرج علبة سجائره الفضية ، فضغط عليها برشاقة ومدها الى الشيخ طلبة .

وهرول الشيخ طلبة منحنيا فسحب سيجارة من تحت الشريط الذهبى الذى تجمعت تحته سجائر طويلة أمريكية .. ووضع السيجارة فى فمه ضاحكا :

ــ هو كل يوم تدينى سيجارة من الحاجات الهاى لايف دى .. ربنا يديم عليك عزه .. لكن مش مولعها .. خليها .. هىء.. هىء .. خليها كده .. بركة ، حاجة من ريحة البهوات ! الله

يقطعك يا بلد .. ايه يا اخويا السيد رزق دى .

وعاد الشيخ طلبة يلم جلبابه الصوف الفضفاض على جسده النحيل .. كان جلبابا فاخرا نحلت بعض أطرافه .. خلعه عليه « رزق » منذ شهور كما ألف كل عام .. وكان الجلباب واسعا على الشيخ طلبة ، ولكنه كان سعيدا به يشعر لملمس قماشه الفاخر على جسده بلذة العز ..

ومسح الشيخ طلبة وجهه الأسمر الذى تلفه لحية قصيرة شيباء .. من تحت رأسه الذى تغطيه عمامة كبيرة شالها الأبيض مغسول بعناية وقد شاع فيه لون الزهرة الزرقاء ..

كانت خدوده تبدو غائرة تحت عظام ناتئة تستند عليها عينان واسعتان عكرتان .. لم يكن من الممكن لهذا الكيان الجاف بالبدن النحيل الضاوى ، والوجه الاعجف ، أن ينجب فتاة ممتلئة ريانة ، ترقص الحياة فى عينيها الواسعتين ، ويفيض جسدها الغض الشهى بريح المتاع ! .. ولكنها مع ذلك هى كل مايملكه هذا الرجل فى دنياه .. تعود أن يصحبها دائما منذ ماتت أمها .. وعندما كبرت وأصبحت أنثى كاملة ، خاف أن يتركها فى البيت وحدها .. والقرية ـ عنده ـ نجسة ، شبابها غيلان ، فحرص على أن يصحبها فى كل مكان يقرأ فيه القرآن .. وهى الآن هنا عند « رزق بك » تعمل فى الداخل ، وستخرج معه عندما ينصرف .. أو عندما يريد أن يبعث بها قبله الى الدار لتهيىء له الطعام .. ستخرج محملة بزاد طيب ، فزوجة « رزق بك » سيدة طيبة تحب

تفيدة ولا تتركها تخرج من عندها أبدا بيد خالية .. «رزق بك» متزوج الآن وله ذرية صالحة : بنت تدرس الآداب فى القـاهرة وتقيم مع عمها « فرحات بك » فى القاهرة وأربعة أولاد صـغار يركبون العربة الحنطور كل صباح الى مدارس عاصمة الاقليم ، ويعودون مع العصر ..

وأخذ الشيخ طلبة يتأمل المكان من حـوله .. شرفة البيت الكبير هذه .. انه يذكر يوم بنى هذا البيت .. كانوا يسمونه « السراى » .. كان البيه الكبير قد أحضره وأمره أن يقرأ القرآن حيث يوضع الأساس لتطرح البركة فى البيت .. وهذا النخيل الذى يحيط بالسراى .. لقد شهد هو زراعتـه ، وقرأ على كل نخلة سورة صغيرة .. وأشجار الحور والـكافور التى تتخلل النخيل ، قرأ لها أيضا .

وشاهد البيت وهو يعلو حجرا بعد حجر ، حتى الطابق الثانى ، وهذه الأعمدة المرمرية ، جاءت بها السفن تشق البـحر المالح من ايطاليا ..

لكم تمر الأيام مسرعة !

لم يمض على هذا كله أكثر من خمسـين عاما ! .. « رزق بك » لم يكن قد ولد بعد .. كانت الست الكبيرة حاملا فيه .. لا .. كانت حاملا فى أخيه الأصغر فرحات بك ، كان رزق بك اذ ذاك يجرى .. ويتعلق بكتف الشيخ طلبة وهو يقرأ القرآن ، ويقلد حركاته ، ويركبه اذا انحنى للصلاة .. ياه .... خمسون عاما ؟!!

كيف مرت بهذه السرعة ؟! ..

بكم كان رطل اللحم أيامها ياشيخ طلبة ؟! .. كم كان عمرك ؟! كنت جميل الصوت حسن الصورة .. كنت قد أعفيت من الجهادية لأنك وحيد أمك وأبيك .. لا ، بل دفع البك الكبير لك البدل لتبقى عنده تقرأ له القرآن .. كان يحب صوتك . كنت فى الثامنة عشرة تماما .. ياسلام ياولد ياطلبة .. كم جلجل صوتك هنـا طوال خمسين عاما تقرأ الموالد ، وترتل آيات القرآن فى ليـالى رمضان .. فى الشتاء فى المنظرة الكبرى على يمين الداخل ، وفى ليالى الصيف هنا فى هذه الشرفة الواسعة .. البك الكبير يجلس هنا فى الصدر على الكرسى الضخم الذى جلبـه مع الأثاث عبر البحر المالح من ايطاليا .. الكرسى نفسه الذى يقعد عليـه الآن « رزق بك » وانت على الدكة الخشبية التى يجلس عليهـا الآن عبد المقصود ناظر المدرسة الابتدائية .. رجل لا يحبك عبد المقصود هذا .. أمامك يتفلسف .. هو يفهم القرآن بطريقة غريبـة .. كلامك الآن لايعجبه .. فياطالما قال لك أن الناس أسياد أنفسهم وأن النبى عليه الصلاة والسلام كان لا يحب أن يقـول له أحـد سيدنا .. المصطفى عليه السلام وأفضل صلاة .. سيدنا محمد .. كان لايحب أن يقول عنه أحد سيدنا ؟! .. من أين جئت بهـذا الكلام ياسى عبد المقصـود ؟! .. بلد كفرة ، حتى الذين قرأوا القرآن فيها كفرة ! ..

أنت تنظر الى بعين ثعبان أو وحش كاسر .. كأنك تريد أن

تأكلنى يا سى عبد المقصود..طبعا كلامى لايعجبك، لايعجبك؟!والله عال!..أنا يا ابنى اقرأ القرآن ولى سمعة وأنت فى بطن أمك..الناس تسألنى الرأى والفتوى وأنت فى بطن أمك ، وأبوك الله يرحمه فى بطن أمه .. انت ابن متى ؟ .. ابن تلاتين .. خمسة وتلاتين سنة، وتفهم الدين أحسن منى .. وتحرجنى وتغيظنى كلما تكلمت..؟! الحمد لله انك ساكت .. بلدكفرة .. مالك تتنحنح .. لاتوبخنى يا ولد ، اياك أن توبخنى .. انت ولدك وأبوك ولد وأنا ما ناديت المرحوم والدك الا بياولد .. ولكن الحمد لله .. عبد المقصود لايريد أن يتكلم .. ظلمت الرجل .. استغفر الله من الظلم ومن كل ذنب عظيم .. ولكنك ياعبد المقصود أخذت مكانى فى الجامع .. تخطب بدلا منى وتتركنى كالشحاذ أتناول أجر الخطابة بلا خطابة ! .. أنت لاتقرأ من الكتب التى ورثناها من عاشر جد ولكنك تقول كلاما من عندك .. الله يلعنك ! ..

وجاءت تفيدة من الداخل تحمل صينية القهوة ، واتجهت الى توفيق حسنين ، فقدمت له القهوة أولا .. يامضروبة مالك وابن حسنين .. ابن العفريت ؟! ألأنه أشقر الشارب أبيض الوجه شكل البيه رزق ؟ انه ابن عفريت ! .. اتجهى الى الأفندى أولا .. فوالله مايجدر بك غير عبد المقصود .. اختاروا لبناتكم فان العرق دساس ..

ولكن عبد المقصود لايرفع عينيه .. عمى فى عينيك يارجل، تأمل .. والتأمل فى الخطبة حلال بل وواجب .. مافى البلد كلها

من ينفعك مثلها .. ربيتها على اللحم والخبز الطرى وطيبات الست حرم « رزق بك » .. خذها على امرأتك .. وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ..

ولم تكد تفيدة تستدير حتى رفع عبد المقصود عينيه وتابعها حتى دخلت ..

ــ ياعم الشيخ طلبة ماخسارة تفيدة تسيبها كده .. أرسلها يا أخى لفصول محو الأمية .. البنت كبرت وهى جاهلة .. ارسلها تتعلم .

وقاطعه الشيخ طلبة :

ــ أرسلها ايه ياسى عبد المقصود .. أرسلها .. ربنا يرسل عليك مصيبة .. أبعتها فى وسط الشحوطة بالليل تتعلم ، ربنا ما قالشى كده ..

ــ لأ قال بس انت مش فاهم .. على كل حال أحسن لها من الوضع ده ..

وتدخل رزق بك بحسم :

ــ فضونا من المناقشات الفاضية دى ..

فزمجر الشيخ طلبة :

ــ والله البلد خسرت .. البنت من دول تبقى فايرة وتعمر دار وتخرج بالليل تنحشر وسط الرجالة فى فصول الهباب محو الأمية .. والصبح تلقى الزراعية مبدورة بنات وصبيان رايحين المدرسة الثانوى فى المحافظة وينحشروا مع بعض فى العربيات

الكبيرة .. البلد خسرت .. قال ايش حرر [illegible] .. بعد الرجان عنهم ..

وضحك عبد المقصود :

ـ الله .. حاسب ياعم الشيخ طلبه ، دا بنت السيد رزق فى كلية الاداب بتدرس مع الشباب جنبا الى جنب ..

وامتعض « رزق » :

ـ بنت مين ؟ .. السيد رزق ده مين ؟؟

وضحك عبد المقصود :

ـ سيادتك يعنى .. رزق بيه .. ولا يهمك ! .. المهم أن الشيخ طلبة ..

واحتد الشيخ طلبة مقاطعا :

ـ اسمع ياعبد المقصود بلاش مناقرة ويايا .. دهدى .. انت جاى هنا على الصبح تناقرنى .. واقفلى على الغلطة .. ده يا أخى من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .. والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا يقوم يبقى مرصوص .. مش المؤمن يشتهى غلط المؤمن .. انت جاى يعنى تناكفنى وتزرزرنى وتهزل مقامى .. هو أنا يعنى ما اعرفش أكلم .. والا باخبط فى الكلام .. علشان يعنى ما انت بتخطب بدالى خطبة الجمعة تقوم تقل أنستك عليه .. دا حتى خطبك حرام .

وابتسم عبد المقصود فى هدوء :

ـ لا ياعم الشيخ طلبة أنا جاى أقنع السيد رزق يحدد موعد

لاجتماع لجنة الاتحاد الاشتراكى .. لا آنا جاى احرجاك ولا حاجة أستغفر الله .. انت [illegible] فى [illegible]

واحتد رزق :

ـ آنا خلاص ياعبد المقصود بيه .. ماليش دعوة بالاجتماعات .

ـ العفو أنا مش بيه .. ماخلاص الألقاب ألغيت من زمان .

ـ لا لا .. ما انتم بهوات الزمن ده ..

وضحك :

ـ مافيش لا بهوات ولا أفندية .. كلنا السيد .. كلنا سادة ..

وضحك توفيق حسنين وضج ضاحكا فى تبذل وهو يهز رأسه فتهتز ذقنه المتكرشة :

ـ سادة ؟! .. لأ .. سكر زيادة .

ولم يضحك أحد ، وشعر الشيخ طلبة بأن توفيق هذا تقيل .. هكذا كان حسنين أبوه .. ولو أن أبا توفيق الحقيقى كان عفريتا ..

وامتعض عبد المقصود ، وضحكات توفيق حسنين تجلجل ..

وأخذ عبد المقصود يتأمل توفيق حسنين كأنه يكتشف لأول مرة أنه تقيل الظل ، ولكنه عبره بنظرة ازدراء وعاد يحدث رزق :

ـ امتى ياترى سيادتك تحدد موعد الاجتماع ، لأن الموضوع هام جدا .

— خلاص .. مافيش اجتماع للجنة الاتحاد .. أنا الأمين .. أنا قررت وقف الاجتماعات .. واللى عاوز يجتمع يتحمل هو مسئولية عمل اجتماع غير قانونى ..

— ليه .. لماذا .. يعنى .. ولمتى ؟ .

— ماذا ؟ .. مافيش لا ماذا ولا متى .. الاجتماعات موقوفة وخلاص .

وضحك عبد المقصود بهدوء :

— يعنى لأجل غير مسمى !

— خللوا عبد العظيم يروح مصر يكلمهم يأمرونى بعمل اجتماع ..

وقال عبد المقصود بهدوء :

— الحكاية مش محتاجة ، نتفاهم هنا أحسن .. طيب عاوزين اجتماع جمعية عمومية للجمعية التعاونية .

وصرخ رزق :

— جمعية عمومية .. ليه .. علشان تقولوا عليه رجعى واقطاعى ؟ يا أخى أنا طول عمرى ضد الأمير .

— لا .. لمناقشة مسائل هامة .. ولعمل انتخابات جديدة .

— المجلس الموجود لسه قدامه سنة .. واذكروا أن عيلتى كانت دايما ضد البرنس .. انتم نسيتم مواقف المرحوم والدى ؟

— والله الجمعية العمومية تملك سحب الثقة من مجلس الادارة وتملك عمل انتخابات جديدة .. القاعدة الشعبية عاوزه كده ..

مالناس دعوة بقى بحكاية الأمير .. ما الثورة صفته من قيمة ١٣ سنة وملكت أرضه للفلاحين .. احنا فى ظروف تانية وبنواجه أعداء آخرين .. دلوقت القاعدة الشعبية — وهى السلطة الحقيقية — عاوزه تحاسب المجلس على بعض تصرفات وتعمل انتخابات جديدة .. يعنى .. لكى .. لكى تتخلص من بعض المنحرفين .

واحمر وجه « رزق » وانتفض واقفا بجسده المكتنز ، وارتعش جلبابه الكشمير الفاخر ، ونفضت عروق جبهته الناصعة ورقبته السمينة .. وصاح بأعلى صوته :

— اخرس .. اخرس .. انت عارف انت واقف فين وبتكلم مين ؟! ..

وأقبلت نفيدة مسرعة من الداخل فوقفت فى فتحة الباب .. وأقبلت السيدة زوجة رزق فوقفت وأسندت رأسها على مصراع الباب .. واندفع رزق يقول :

— أنا لا أسمح تقول فى بيتى كلمة منحرفين دى .. قاعدين تقولوا السيد رزق وبالعها لكم من زمان .. وتطور وزفت وزحفه ثورى وهباب وقاعدة شعبية .. وبالع لكم الكلام اللى لا أنا فاهم أوله من آخره .. وكمان جاى فى بيتى تقول منحرفين .. فيه منحرفين فى مجلس الادارة ، والا فى الاتحاد فيه حد عنده شذوذ ؟! المنحرف ده يعنى عنده شذوذ جنسى ، مين بقى هنا عنده شذوذ ؟ ..

وأجاب عبد المقصود بهدوء :

— شذوذ ؟ •• شذوذ ايه •• اقعد بس واستهدا بالله كده ، ومافيش داعى للكلام اللى مالوش لازمة •• [illegible] أولا بصفتك أمين اللجنة ورئيس الجمعية عارف من هو منحرف ••

وقام الشيخ طلبة فاتجه الى عبد المقصود :

— الهى يحرفوك على القبلة وأصلى أنا عليك صلاة الأموات يا شيخ •• منحرفون ياجاهل يعنى الذين يعبدون الله على حــرف •• فيه حد هنا بيعبد الله على حرف ؟ •• أهو انت •

وحاول توفيق حسنين أن يتدخل فى المناقشة ولكنه لم يجد ما يقوله •• غير أنه وقف متمسحا برزق :

— اتفضل ياسعادة البيه ، اقعد يارزق بيــه ، البلد كلهــا برجالتها بعيالها بنسوانها بأحسن ما فيها ، والله ما تستاهل زعلك•• ماتستاهلشى الوقفة دى •• اتفضل اقعد مطرحك ياسعادة البيه داللى تقوله يكون •

ووقف عبد المقصود قائلا بهدوء :

— الطريقة دى فى المناقشة لاتليق بوحدة أو بجماعةقيادية فى القرية ••

وارتفع صوت تفيدة :

— ماتقولوا كلام نفهمه ، بقى ياسى عبد المقصود •

فرد عبد المقصود بهدوء :

— ماهو لازم تتعلمى وتغيرى طريقة حياتك علشان تفهمى•

وزعق رزق :

— خشى يا بت يا تفيدة مالكيش حشرة وسط الرجالة

ووقفت تلوح بيديها :

— هم منكادين من سعادتك ليــه ، انت والبيه المشرف •• دا انت خيرك على البلد •• والبيه المشرف راجل ايده سخية وقلبه أبيض •• يا ناس يا للى ما يتمرش فيكم ، منكادين ليه من البيــه رزق ؟ •• يا بلد جاحدة •

وقال الشيخ طلبة هاشا بعصاه :

— خشى يا بت جوه••اسمعى كلام البيــه •• هس اسكتى••

ودخلت تفيدة وزوجة رزق وغابتــا فى الداخل بينما عاد عبد المقصود يقعد فى مكانه ويقول فى هدوء :

— منحرف ياسيادة رئيس الجمعية التعاونية وأمين وحدة الاتحاد الاشتراكى يعنى حاجة تانية غير المعنى اللى انت فهمته •• منحرف يعنى خارج عن الخط الثورى ، عن الخط الاشتراكى ، عن طريق التعاون ••

وسيطر الغيظ على رزق فلم يستطع أن يرد •• ماذا يقول لهذا الرجل ذى اللسان القارع الجاف الذى يحدثه بهدوء بارد ويوجه اليه اهانات خفية • كم من أشياء تغيرت خلال هذه الثلاثة عشر عاما ••!!

عبد المقصود هذا كان أبوه لايستطيع أن يقعد فى الشرفة يارزق .. كان يعمل عندكم باليومية .. كان يقعد بعيدا على أرض الحديقة فاذا ضغطت عليه ، جلس القرفصاء على بلاط الشرفة ، أو قعد دون أن تمس مؤخرته الأرض متكئا على قدميه ويداه على ركبتيه كما يعذب المذنبون فى سجن المركز..وهاهو ذا ابنه يجادلك ويحرجك ويوجه اليك ألفاظا غريبة ويستعمل تراكيب من الكلمات يعرف انك تكرهها ! .. ولكن ماذا تقول ؟! ولى زمان أبيك وزمانك .. يجب أن تصبر على هؤلاء الناس لكيلا يقال عنك اقطاعى أو رجعى .. ولكنك لاتملك أكثر من سبعة عشر فدانا لاتستغل فيها أحدا ، فقدزرعتهاحديقةللموالح منذ زمن .. وما عاد لكم أرض فى القرية .. أخوك فرحات بك باع أرضه واشترى بثمنها عمارة فى القاهرة ، وأخواتك البنات السبع تزوجن من زمن .. وباع أزواجهن الأرض وانتشروا فى الاسكندرية وأسيوط والقاهرة .. وأنت لا تعرف بعد ماذا صنع الله بهذه الأموال .. تشتتت العائلةالكبيرة ، حتىأخوك فرحات بك لايكاد يجيء الى القرية .. انه مشغول جدا فى القاهرة بوظيفته الكبيرة التى يشغلها .. كان الله فى عونه وجازاه خيرا فهو يؤوى بنتك عليات وسيرعاها طول دراستهاللآداب فى جامعة القاهرة .. له الشكر .. ربما لم تخرج عليات من بيته فابنه ماجد فى السنة الثالثة فى كلية العلوم .. وعينه على البنت .. انه يكبرها بعامين فقط .. فى السن والدراسة .. زواج بديع

لو تم .. ولكنها ستقيم هى الأخرى فى القاهرة أو فى أىمكان آخر .. حتى أولادك الأربعة الصبيان مصيرهم الى القاهرة .. سيهجرون البلد .. لا عزوة لك هنا بعد .. انت وحدك هنا .. أعمامك وأولاد أعمامك فى الفيوم .. وسينقطع جذرك يوم يكبر أولادك ويتفرقون وتموت أنت .. ماذا سيبقى لهم ؟ .. سبعة عشر فدانا لبنت وأربعة صبيان ؟! كان أبوك يملك أكثر من مائتى فدان ، اغتصب الأمير منها مائة .. اشتراها قسرا ، ومات أبوك عن نحو مائة أخرى .. فماذا بقى لك ؟.. هذه السبعةعشر ؟.. يجب يارزق أن تشترى أرضا باسم الأولاد ، لكل منهم عشرين فدانا على الأقل .. فالحديقة الكبيرة تمنحك ثلاثة آلاف جنيه فى العام لاتنفق منها خمسمائة ، والمشرف الزراعى يسهل لك الخدمات ، شكرا له .. ولكنك تزرع أرضا أخرى بفضل المشرف ..

ايه .. لا تفكر فى الخدمات التى يقدمها لك .. أمن أجل هذا ثار عبد العظيم والأولاد المشاغبون وشجعهم عبد المقصود وأمثاله ؟!

وجاء عبد المقصود الآن يتحداك فى المكان الذى شهدمجد أبيك ، ومجدك .. المكان نفسهالذىلميكنيجرؤأبوعبدالمقصود أن يقترب منه الا ارتعد من الرهبة والاحترام .. لو كان عمدة البلد حاسما لعرف كيف يربى الناس .. ولكنه رجل طيب ! .. لكم شهدت هذه الشرفة يارزق من رجال عظام جاءوا أيام

أبيك واصطف هنا جنود يرفعون أيديهم بالتحية لك وانت صغير .. حتى فرحات أخوك الصغير ، دعا المستشارين مرةالى هذا البيت عندما كان طالبا فى كلية الحقوق .. كان قد خطب ابنة أحد مستشارى الدائرة الجنائية ، فدعاهم وتناولوا القهوة فى هذا المكان بالذات ، وجاء معهم المدير .. الباشا المدير ! .. لم يكن هذا من أجل أبيك البك الكبير .. كان اذ ذاك قد مات .. ولكن من أجل فرحات ومن أجلك ! .. زمن !

ثم جاء الزمن الذى تشهد فيه هذه الشرفة كلمات عبد المقصود ، وينادونك فيها ياسيد رزق .. سيد رزق ، هكذا! يارزق .. أين العمدة ليؤدبهم .. ولكنه دائما مع أوامر الحكومة ..

وتنهد رزق وقال بنبرة خاصة جارحة وهو ينظر الى عبد المقصود :

ـ الحتة دى ياما شافت .. الله يرحم والدك ياعبدالمقصود بيه ..

فضحك توفيق حسنين والشيخ طلبة ، وصفق الشيخ طلبة طربا من الذكريات :

ـ أى نعم .. شافت بهوات وباشوات وقضاة ومديريون .. و .. و .. القصد بقى ، دنيا ، وآهى شافت جعصةعبدالمقصود .. ولا جعصة ميت فدان !

ونهض عبد المقصود مسرعا فى ضيق :

ـ طب استأذن أنا بقى .. واحنا سندبر مسألةالاجتماعات بطرقنا الخاصة القانونية .. ماهو لايمكن حد يتحدى ارادة القاعدة الشعبية .. لا بالسخرية ولا التهديدات .. ولا مناورات ، ولا تحكم ، ولا ذكريات ، ولا أى شىء كان .. سلام عليكم ، موعدنا الاجتماع ، واللى تراه القاعدة هو اللى يمشى ، واللى يعمله ربنا بقى هو اللى يكون .. موعدنا الاجتماع ..

وشيعه رزق بنظرة ، وهو يقول ساخرا :

ـ موعدنا ؟! طب يا سيدى .. موعدنا مرج دابق .. هى حرب ؟ عال .. بيقول لى موعدنا ؟! طيب يا سى موعدنا .. طيب ياسى قاعدة !

ومشى عبد المقصود فى صمت ..

ورزق يشعل سيجارة من سيجارة وينحى بيده توفيق حسنين الذى كان قد أسرع ليشعل له السيجارة الجديدة .

وطوح ببقية السيجارة بأقصى عنف وراء عبدالمقصود الذى كان فى غضبه يخرج من باب الحديقة ويتجه الى القرية .

بينما كان فلاح صغير يدخل من باب الحديقة ويتجه فى حرج الى رزق .. كان الفلاح يضطرم من الغيظ ويحك شاربه الجديد الذى لم يثقل بعد .. ويحبك الطاقية على رأسه ، ويضرب طوب الأرض بأقدامه الحافية .. واندفع على الشرفة زاعقا :

ـ السلام عليكم ..

ولم يرد عليه غير الشيخ طلبة ، وقال له توفيق حسنين :

ـ مالك مدخن كده .. عاوز ايه .. جاى منين .. البيـه المشرف ضربك ؟ ..

ولم يرد على توفيق .. وخرجت « تفيدة » لتحمل صينيـة القهوة الفارغة ، واذ لمحت الفلاح الصغير زعقت فيه :

ـ واد يا سالم .. ينيلك .. انت كمان جاى ورايا لحد هنا، سايب أرضك اللى واخدها من الاصلاح وجاى ورايا لحدهنا.. سايب البيه المشرف ؟ ..

فقال الشيخ طلبة متعجبا :

ـ هو يابت بيجرى وراك ؟!

وصاح سالم :

ـ ياشيخة اتلقحى .. جاتك الغم ياتفيدة يابت أبويا الشيخ طلبة .. هيء .. جاى وراك قال ؟! .. البيه المشرف قال ؟! طب وايمان المسلمين دا ماخلاش حاجة لوكيل دايرة البرنس .. دا ختمنى على ورقة زور ..

ورمى رزق بالسيجارة فى وجه سالم صائحا :

ـ اخرس ياولد .. امشى بره .. غور !

وقال الشيخ طلبة :

ـ تقول على البيـه المشرف بيزور ؟! بقى بعـد ما آكلك لحمة .. تقول عليه كلمة غليضة زى دى .. والله ما أنا عاتقك عن ضرب المركوب .. بقى دا جزاة الاحسان ؟! يا أخى ماجزاء

الاحسان الا الاحسان .. آه يابلد جاحدة .. دا انت كنت مش لاقى اللضا .. اسمك معدم .. بقى كده بعـد ماكلت اللحمة واشتغلت فى العيش الطرى .. دا المفحور أبوك الله يجحمه كان يشوف اللحمة ينطرب !

وضحك توفيق متشفيا ..

وانفجر سالم :

ـ استنى بقى يابا الشيخ طلبة هو ده وقته ..

واستمر الشيخ طلبة :

ـ وبتجرى ورا البت تفيدة ليه ؟ .. علشان ماركبت لك فدانين فى أرض الاصلاح يعنى فاكر انك تنفع لها.. والله لو ركبت عشر فدادين .. برضه انت مش من مقامها .. اياك يركبوك عشر عفاريت .. دا انت فى حال الأصل معدم .

وقال سالم بضيق :

ـ دهدى .. ما انت كمان معـدم ؟! .. ما تصلى عالنبى بقى وخلينا فى المهم .. قول لنا بقى يا ..

واتجه الى « رزق » واحتار كيف يناديه فعدل عن مناداته واستمر يقول :

ـ ماهو انت تشوف لك تسريفـه بقى فى المشرف ده .. اتصرف معاه بقى .. يارزق بـ ..

وعاودته الحيرة .. عبد العظيم طلب منه ألا ينادى أحـدا

بكلمة بك ، وكذلك عبد المقصود •• و « رزق » يغضب من كلمة السيد رزق •• ما العمل ؟ ••

وصاح سالم :

ــ دهدى •• دا ايه الدوخة دى ؟ •• شوف حل بقى ياسى رزق !

وهب رزق بغتة فى غضب هائل وكل بدنه يرتعش :

ــ انت بتقول لى ايه ؟! سى رزق ؟ هى حصلت •• أناكنت العربجى بتاع أبوك •• سى رزق ؟ •• هى حصلت الخدامين وأولاد الخدامين بتوعنا كمان ؟! هات الكرباج يابنت يا تفيدة •• ياولد •• بت ياتفيدة هاتى كرباج الخيل من الاسطبل ••ياولد، يابنت •• أربطه ياتوفيق على شجرة ، لأ على النخلة !

ومضى توفيق حسنين يدفع سالم الى أقرب نخلة •• وخلع الحزام التيل الذى كان سالم يشد به وسطه فأوثقه به الى النخلة باحكام •• وسالم يقاوم ، ولكن بلا جدوى •

وعندما جاءت تفيدة بالسوط الطويل المجدول بسلك نحاسى غليظ •• تقدمت زوجة رزق من الداخل حتى هبطت درجات الشرفة متوسلة وهى تمسك السوط من يد تفيدة :

ــ على مهلك يارزق •• حاسب ! موته بس ماتزعلشى نفسك •• أولادك عاوزينك •• النرفزة وحشة علشانك •• أولادك عاوزينك •• خللى توفيق يضربه لك •• والنبى يا رزق

بيه ماتنرفز نفسك •• ده كلب مايستحقش زعلك••حاسب على نفسك •• صحتك ياسيدى ••

وشد منها رزق السوط بعنف وهو ينحيها :

ــ اتفضلى اتى ياهانم •• ادخلى •• بلاش تقفى كده بقميص النوم والروب دى شامبر ••

ولكنها لم تدخل •• ووقفت بقميص النوم من تحت معطف منزلى من المخمل الوردى •• دقيقة التكوين كأنها لم تلد خمسة أولاد •• والجزع يغمر وجهها المستدير الجميل الطفل •• وهى مع ذلك فى نحو الأربعين •

وانقض رزق بكل غيظه الذى كظمه طوال خمسة أيام ، وربما ثلاثة عشر عاما ، يضرب « سالم » بالسوط ، وسالم ينظر اليه فى صمت ، عيناه صامدتان ، ووجهه معذب ، وشفتاه المضمومتان تحت شاربه الجديد تبتسمان فى سخرية :

ورزق يصرخ وهو يضرب •• وسالم مازال يبتسم •• وصاح رزق :

ــ قل حرمت •• انطق •• قل حرمت •

ــ ما ناقص تقول لى قل أنا مره !

وعاد رزق يضرب من جديد ••

وهرول الشيخ طلبة الى رزق فأمسك بيده :

ــ كفاية بقى ياسعادة البيه ، مابلاش من دى •• دى عمرها

ما جرت من أيام البرنس ، كفاية بقى يا سيدنا البيه .. ده البيه الكبير المرحوم والدك عمره ما عملها .

ورمى رزق السوط على وجه سالم واستدار فى اعياء :

ـ هو حد كان يقدر يعمل كده مع البيه الكبير ..

وقال الشيخ طلبة :

ـ العيال المشاغبين مش حايفوتوها لنا .. والحكومة معاهم .

وأخذه الشيخ طلبة من يده ، فاستسلم ، وأمسكت به امرأته من الذراع الأخرى ، ووراءه تفيدة تربت على ظهره .. وهو يعود الى الشرفة منهكا وتوفيق يفك وثاق سالم ..

وقالت زوجة رزق لتفيدة :

ـ اعملى ليمونادة لسيدك البيه .

وعندما انطلق سالم كان وجهه يتقلص من الألم وهو يمسح الجميع والقصر والنخل بنظرة صابرة معذبة ، متفائلة مع ذلك ، ويتمتم :

ـ لك يوم يارزق .. ألعن من يوم الأمير ..

ونظرت تفيدة الى وجهه المعذب الصابر ، وجسده الشامخ المترنح .

واستدارت فى أسى وبدنها يهتز فى صمت ، وهى تكتم البكاء.

4

يوم جميل رائع من أجمل أيام الدنيا .. لابد أن آلاف العشاق يتعاقبون الآن فى حدائق اللكسمبرج وبولونيا ، وعلى ضفاف الفولجا ، وفى هايد بارك ، وعلى شواطىء استراليا .. ورجال ونساء كثيرون قد نهضوا الآن فى كل مكان من الأرض، يمارسون بهجة العمل والابداع ..

ومع ذلك فالصحف تحمل الينا أنباء غريبة عن أماكن مختلفة من الأرض .. لحم الانسان يمزق بالديناميت فى جنوب اليمن المحتل .. انهم هناك يصوغون من وهج الدم الزكى فجر الحرية .. ولكن أشلاء الانسان المتطلع المناضل فى شرف مازالت تدهسها الأحذية الغليظة .. ومئات من الرجال يموتون على مهل فى حفر مظلمة تحت أرض النبى حيث مشت البطولات وعطرت التاريخ، وحيث ورثنا من الماضى أصواتا عظيمة تؤكد حق البشر فى حياة أفضل وأن الناس كلهم سواء ، لا فضل لأحد على غيره الا بعمله وتقواه .. وتحت أقدام جبل الجليل حيث سار النبيون العظام يبشرون بالحق والحرية وأمن القلب ، وحيث بيع دم المسيح بعشرين قطعة من الفضة ، يطرد شعب بأسره من أرضه وتستمر الجريمة عاما بعد عام .. وضمير العصر نائم ! ..

وفى فيتنام أصبحت رؤوس البشر تقطع بالسكين ، ويدور

بها السفاحون فى الأسواق يتبسمون فى زهو ، وفى أيديهم رؤوس ثوار ، مازال يقطر منها الدم ، وما زالت تتأجج فيها أحلام العدالة والحرية .. حتى الوحوش لاتعرف هذا الزهو الآثم حين تفترس ، ولا تملك كل هذه القدرة على الابادة .. ولا هذه الفرحة الهمجية حين ترى شعاع الحياة ينطفىء فى عيون الضحايا !!

ومع ذلك فما زال انسان هذا العصر يستطيع أن يأكل ويشرب وينام ويستمتع وينطلق ويتبسم ويعشق النساء .. وينظر فى عيون الأطفال ! ..

الكلمات لم تعد تؤدى معناها .. فنحن بعد فى حاجة الى كلمات جديدة مشحونة تصعق وتضىء وتملك الجسارة على مواجهة الفوضى والعار والجنون .. كلمات خلاقة تنقذ الانسانية من العار وتنشر الحب ، وتجعل السماء للحمامات البيض ، لا لقاذفات الموت ، وتجعل الأرض عالما للمودات ، لا مصيدة يقتنص فيها الجشع رؤوس الحالمين والفقراء .

وهنا .. حتى هنا فى قريتى الآمنة .. يصلب سالم !.. وتأكل السياط كبرياءه ، وتمزق جسده الجديد الفتوة الذى يتجدد ويستطيل ليعانق الحياة والأحلام وأشواق المستقبل !.. كل ما فيه يهدر وهو موثق الى جذع نخلة ، يضرب بالسوط الذى يضرب به الحصان ! ..

قذفت بالصحف التى وصلتنى ، وانتفضت واقفا وأنا أسمع

تفيدة تروى لى ماحدث أمس .. وهى تبكى وأبوها يقرأ فى المنظرة البعيدة حصة الصباح من القرآن .

هناك شىء ما يجمع عبر الزمن بين الذين يعذبون فى أرض النبى منذ قرون ، والذين تمزق لحومهم بالديناميت فى جنوب اليمن ، ودم المسيح ، والذين تهتز رءوسهم فى أيدى السفاحين بفيتنام ، والذين طردوا من أرضهم فى فلسطين .. وبين سالم هذا الذى صلب بالأمس الى جذع نخلة ، وضرب بأداة ضرب الحيوان !

وشىء ما يجمع بين كل الذين صنعوا العذاب .. شىء ما ، غير انسانى ! ..

ماذا يريد « رزق » ؟! أن يسمن ويشبع ويغنى فى هدوء ، أن تكون له الهيبة بلا كلمة وبلا اعتراض ! .. وهاهو ذا « سالم » يسقط الهيبة فى براءة لأنه صدق أن رزق ليس فوق الآخرين ، ولأنه رفض التزوير ، واحتج على الباطل .. أمن أجل هذا يصلب ؟!

رزق يملك سبعة عشر فدانا .. ولكنه يركب عشرين فدانا أخرى .. أخذها من المعدمين بعقود ايجار غير صحيحة سيق الى التوقيع عليها أمثال سالم ! .. وهذا كله ضد القانون !

القانون ؟! يا للرنين الموحش الذى أصبح لهذه الكلمة عند أمثال رزق !!

وهو يستخدم آلات الجمعية الزراعية فى خدمة أرضه

بالمجان .. فهى تعمل فى أرضه ساعات طويلة .. ويوقع أمثال سالم على أنها عملت فى أرضهم هم .. ويحاسبون هم على الأجر .. يستقطع منهم آخر كل عام ! .. وهكذا يوفر «رزق» القروش ويكسب الجنيهات .. وهذا كله ضد العدل !

ولكن هذا لن يجعل « رزق » يأكل فوق طاقة معدته ، ولن يجعله يلبس فوق احتمال جسده ! انه يدخر المال .. المائة بعد المائة .. ثم الألف بعد الألف .. والآلاف من الجنيهات تكسبه الهيبة والطمأنينة وتجعل من غده قلعة تحمى نفوذه الذى يجب أن يمتد جيلا بعد جيل .. وهذا كله ضد التاريخ .

وفى لحظات كنت أطرق باب رزق .. وصورته تتخايل أمامى مختلطة بصور السفاحين الذين يحملون رءوس ضحاياهم ويتباهون بها فى الطرقات ، والذين يدفنون الناس أحياء فى أرض النبى .. الجشع يحركهم جميعا .. كل بطريقته .. ولكن هذا كله ضد منطق الحياة واندفاع الزمن ! .

وقبل أن أدخل وجدت تفيدة تسبقنى الى الباب وهى تهمس لى فى ضراعة يلفحها الفزع ألا أقول لرزق بيه أنها حكت لى شيئا .. فهى وأبوها يعيشان من خير البيه ، والبيه لا يرحم ! .. ولئن طردها هى وأباها ، فلن يجد الشيخ طلبة لقمة طرية كالتى يجدها هنا .. ولن تجد هى بيتا تشتغل فيه كهذا البيت .. فما فى القرية كلها دار فيها فائض عن حاجة أهلها .. انها ماحكت لى الا لأنها ظلت تبكى طول الليل كلما ألحت عليها صورة سالم

بعد أن فكوا وثاقه ، اذ حاول أن يمشى فلم يستطع ، وظل يتمرغ فى الأرض ، وعيناه تائهتان تتأملان السماء وتنظران اليها ولا تقولان شيئا .. ولا هو يقول !

سالم هذا زميل طفولتها .. كانا معا فى الفصول الأولى من المدرسة الابتدائية ، ثم عملا معا فى جمع الدودة من القطن ، ولعبا معا ، وبكيا معا حين كان يضربهما ملاحظ الأنفار ..

وهو دائما عطوف حنون ، كم ساعدها فى جنى القطن .. وكم بكى لها عندما كان يلسعها الملاحظ بعصاه الرفيعة فى تنقية الدودة .. وهو بعد قد صار حاميها منذ وثبت بها الحياة الى الأنوثة منذ ثلاثة أعوام وهى فى الثالثة عشرة ، وكان سالم فى الخامسة عشرة ولقد ذهب مع أمه انصاف يخطبها من أبيها ولكن الشيخ طلبة رفض ..

ولم يغضب سالم فما زالت عينه على تفيدة ، وعشمه أن يرضى عنه الشيخ طلبة .. وتفيدة لا تعرف أهى تريده أم تفضل توفيق حسنين .. توفيق حسنين أغنى .. ولكنها لا تحب وجهه الأبيض السمين ، ففى رأيها أن البياض من صفات نساء البندر لا رجال القرية ! .. وهى على أية حال تكره طريقته فى معاملتها .. انها تشعر كلما رأته بأنها أرنبة صغيرة أمام قط برى .. وهو حين يكلمها يصبح طويل اليد ، يلوح بيده تجاه صدرها ويلمسه أحيانا ، وحين تنهره يغلظ لها أنه لمسها عفوا وأنها لا تروق له لأنها زرقاء ! ..

***

وأعدت أنا الطرق على باب رزق ولكن أحـدا لم يرد .. وأسرعت تفيدة الى الداخل وعادت تقول لى انه لا أحد هناغير الست .. وأن البيه سافر الى القاهرة هو والمشرف فى أول ساعات هذا الصـباح .. والست تسـألنى أن أدخـل لأشرب القهوة ولتحدثنى ! ..

كيف ؟ .. ما ألفنا أن ندخل الدور فى غيبة الرجال

وعادت تفيدة تستحلفنى الا أذكر شيئا عن موضوع سالم للست .

ولكنى لم أكن قد قررت بعد أن ادخل .. وتفيدة تعـاود استحلافى فى ضراعة ألا أذكر اسمها ان تحدثت فى الموضـوع مع الست ، ومن الخير على أية حال ألا أتحدث فى الموضوع الا اذا كنت أسمعه من أحد غيرها .. فسالم مهما يكن حرصه على كتمان الأمر ، فهو لن يكتمـه طـويلا ، ولا بد أن يبـوح به نعبد العظيم أو الاستاذ عبد المقصود .. والاستاذ عبـد المقصود ناظر المدرسة الابتدائية يحب سالم ويعجب به لأنه أنهى دروس محو الأمية فى مدة قصيرة وكان الأول ..

وسألتنى بالمناسبة أن أقنع أباها أن يتركهـا تذهب لفصول محو الأمية ، فهى تريد أن تعرف العالم الغريب الذى تصنعـه الحروف والكلمات على الورق ..

تريد ــ كسالم ــ أن تعرف أسرار هذه الخطوط على الورق

وأن تعيش الدنيا التى تكمن وراء هذه الكلمات .. انها مازالت تذكر فرحتها وهى فى المدرسة عندما كانت تقرأ زرع ، خرج ، ولكن أباها انتزعها من المدرسة بسرعة ..

كانت اذ ذاك جـارة سالم على دكة واحدة فى الفصل

وأقبل الشيخ طلبة مهرولا .. وكنت قد تركتـه فى بيتى يقرأ القرآن :

ــ واقفة توجعى دماغ البيه فى ايه يا بت ؟ ..مالك ومال البيه ؟ ! ..

أنا أيضا .. بيه ؟! .. لا ياشيخ طلبة ! ..

وأجابته مضطربة :

ــ لا يا ابا .. دا كان جاى يقابل البيه رزق والبيه سافر مصر هو والبيه المشرف ، والست عاوزه تتكلم معاه ..

وتقدم أمامى الشيخ طلبة وهو يشدنى الى داخـل باب الحديقة الصغيرة :

ــ طب وواقف بره ليـه .. الله .. اتفضل . ده بيتك .
يا ساتر .. يا أهل الله .. اتفضل يا سيدنا البيه .. باسـم الله الرحمن الرحيم .. يا ساتر .. اتفضل .

وفى لحظات كنا فى الشرفة التى تظللها أشجار الياسمين وتمتد أمامها حديقة صغيرة مليئة بأشجار البرتقال والجـوافة

كفاية انه من سبعة عشر فدان بيكسب أكتر من اللى عنده مابة .. الله يكسبه كمان وكمان .. قل يا باسط .

وجاءت تفيدة بصينية القهوة ، وقدمت الى فنجانا فاخرا مذهبا وطبقه مرسوم عليه صورة عاشقين بملابس العصور الوسطى ، يتعانقان .. هذه أشياء لم نعد نراها بعد ..

وابتسم الشيخ طلبة وهو يلاحظنى :

ـ دى فناجين اشتراها البيه من دايرة الأمير .. هو الأمير يعنى جابها منين .. ما هى من الارض اللى خدها غصب من البيه الكبير بتراب الفلوس .. أهو البيه ورثها .. يا الله يا سيدى الله يرث الأرض ومن عليها .. وتلك الأيام نداولها بين الناس ..

ودخلت السيدة زوجة رزق .. وسلمت على فى أدب جم .. وجلست قبالتى وظهرها الى الحديقة الصغيرة الممتدة تحت الشرفة حتى الباب الحديدى الخارجى وسط السور .. واذ تأملت المكان الذى أجلس فيه الى جوار الشيخ طلبة على الدكة ، قالت وهى تشير الى كرسى كبير كأنه كرسى عرش ..

ـ لا والله .. لازم تقعد هنا مكان البيه ، دا كرسى نادر طراز لوى كانز .. تتصور ان الكرسى ده عمره ميتين سنة تقريبا .. تحفه حقيقى .

فقال الشيخ طلبة :

ـ طراز ايه يا هانم ؟! دا احنا اشتريناه برضه من دايرة الأمير .. ده طرازنا احنا .. والا دا باين البيه الكبير كان جايبه من بلاد بره ..

فقلت :

ـ أيوه يا شيخ طلبة ده طراز ملك فرنساوى اسمه لويس الخامس عشر ..

اسكت .. يا شيخ طلبة لا أريد أن أتحدث عن فرنسا .. لا تجرنى للحديث عن باريس !

وتطلعت الى زوجة رزق بيه أسألها بنظراتى : فيم تريدنى ؟

كانت تلبس ثوبا صوفيا محتشما أصفر اللون وتربط شعرها الأسود بمنديل حريرى أخضر .. وكان لها منظر ملكة .. وجهها دقيق التقاطيع هادىء ، شامخة واضحة النبالة .. والحديقة الصغيرة من ورائها .. لاحظت لأول مرة وجود أزهار فى الحديقة .. أزهار هادئة الرائحة متناثرة فى الحديقة كلها ، وعلى جانبى الدرجات الرخامية المؤدية الى الشرفة .. ورأيت بدنها الدقيق ملفوفا بعناية ، ووجهها يحمر عندما تلتقى نظراتها بعينى .. وأحسست أن هذه السيدة لم تنظر أبدا فى عينى رجل ، ربما حتى فى عينى زوجها ، وكان لعينيها لون رائق تختلط خضرته بلون عسلى .. ولكنى ما كنت أريد أن أتأملها .. وأحسست بحرج وأنا ابدى فى داخلى ارتياحا لشكلها ولون عينيها وتناسق تقاطيعها

.. انفها الدقيق الرومانى ، وفمها الواسع بشفتين رقيقتين وجبهة ناصعة عريضة وخدود ملساء .. ورقبة عالية .. أهذه أم طالبة فى الجامعة .. لكأنها هى نفسها فى العشرين ! .. ولكنها لوت رقبتها تأمر تفيدة أن تجىء بعلبة « السيجار » من المنظرة الكبيرة لتقدم لى سيجارا .. ووشت استطالة تجاعيد فى رقبتها بمرور السنين .. وتحرجت فيما بينى وبين نفسى .. مالى أنا بها !؟ ان تكن كبيرة أو صغيرة ، قبيحة أو حسناء .. فلزوجها .

ولكن كل هذه الرقة يمتلكها رزق ، ويعتبرها بالطبع كالحديقة أو كالمنحل ومزرعة الدواجن ! .. مالى أنا ؟

ولكن هذا الصفاء ونبالة الطلعة لرجل يضرب بسوط الخيل فلاحا فقيرا أعزل وهو بعد لا يشعر بالمهانة أمام هاتين العينين الرائقتين .. رزق بيديه يضرب ويعذب الآخرين .. بيديه هاتين اللتين ظلتا تلامسان هذا البدن البديع الذى ينضح بالنبالة الانثوية مدى عشرين عاما أو يزيد ! .. لكن ما لى أنا ؟ ..

وقطعت الصمت بقولها :

ــ سيادتك عارف طبعا ان رزق كان مهدد بالذبحة ، وانه فى حاجة الى جو مريح يعيش فيه .. وانا مش حاقول لك انه ابن عز لأنه دى جايز تكون أفكار رجعية ، لكن .. لكن يعنى .. ما يصحش كده .. ده رجل له مكانته طول عمره بين الفلاحين . يعنى .. وأبوه الله يرحمه كان محامى الفلاح .. يعنى

كانت نبراتها ثابتة هادئة .. وكلماتها تنساب فى يسر .. وبدت لى مشرقة وهى تتحدث أكثر منها اشراقا وهى صامتة .. كانت صادقة لاطراف أناملها الرقيقة ..

وبعد أن توقفت قليلا تابعت حديثها :

ــ لكن يعنى البلد كلها متحفزة ضد رزق بيه والمشرف الزراعى .. أنا مش عارفة ليه .. ممكن يكون رزق بيغلط لكن لازم تعرف انه رجل منتج وبيفيد الثروة العامة .. ثم انه مش اقطاعى دى الحكاية كلها سبعة عشر فدان .. والسراى دى

هكذا !؟ أهذا هو حكمك على الأمور !؟

ومع ذلك فقد كانت صادقة أمام نفسها فى حبها لزوجها ودفاعها عنه ، وفى نظرتها للأشياء .

كان فى طريقة كلامها شىء رفيع ، وكانت تبدو أعلى ثقافة من زوجها بكثير ..

آه .. تذكرت .. هذه هى ! . كانت تدرس فى معهد عال للتربية الرياضية منذ أكثر من عشرين عاما ، ولكن رزق تزوجها وجاء بها الى القرية وخبأها فى بيته .. انها تمارس الالعاب الرياضية فى الحديقة حتى اليوم ، وهى أخف حركة من ابنتها عليات ومن الأولاد الصغار !

وعندما كبرت ابنتها عليات ، وجاءها الخطاب صممت على أن تعلمها وأن تتركها تعمل حتى تختار هى زوجها . فعلى

البنت اليوم أن تختار .

تذكرت .. هذه السيدة نفسها حاولت فى العام الماضى أن تقيم فى القاهرة مع بنتها عليات وتنتسب للجامعة وتذاكر مع بنتها وتحصل على شهادة وتعمل ، ولكن رزق رفض وثار عليها وعندما أصرت اتهمها بأنها تريد أن تلعب وتجرى وسط طلاب الجامعة .. وسط أولاد فى عمر أبنائها .. وحين هاجمت تفكيره ضربها .. ضربها حتى سمع الذين يعملون فى الحديقة صراخها .. وهى مع ذلك تدافع عنه ..

ـ أنا قصدى أن وجودك فى البلد اليومين دول فرصة لتهدئة الجو بين البلد وبين جوزى .. وخصوصا أن عبد العظيم ابن عمك متزعم حركة ضده وانت طبعا لك تأثير عليه .. وأؤكد لك اننى مش بطالبك بعمل ضد تفكيرك لأن جوزى لا هو اقطاعى ولا هو رجعى ولا هو منحرف .. رزق من الشعب العامل المنتج .. وهو حتى حسب التعريف العلمى يعتبر فلاح .. كل اللى حيلته سبعة عشر فدان . ومهدد بالذبحة والانفعالات خطر عليه .. دى مسألة انسانية !

كانت تتحدث بطيبة واقتناع ..

وسألتها :

ـ طيب واللى عمله امبارح فى سالم ؟.. ده أسلوب تعامل ؟ .. تسميه ايه الأسلوب ده ؟ انسانية ؟

وتضرج وجهها كله بالدم فجأة .. وأخذت تضع ساقا على ساق .. ثم تغير قعدتها ، وشبكت يديها .. ثم طوحت الهواء بذراعها ، وأخذ الدم يغيض من وجهها شيئا فشيئا تحت المنديل الحريرى الأخضر الذى عقدت به شعرها .. وأصبح لوجهها لون ثوبها الصوف الليمونى الأصفر ..

وقالت بصوت جاف خافت :

ـ مين قال لسيادتك الحكاية دى ؟ أنا صالحت سالم النهارده الصبح وطيبت خاطره واعتذرت له بنفسى..هو..هو رزق عيبه انه .. أحيانا .. يلجأ للضرب فى حل مشاكله .. لكن .. على كل حال سالم هنا .. انده له .. يا تفيده نادى سالم .

كنت أعرف ان رزق حتى معها هى نفسها يلجأ للضرب .. ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تهاجمه .. وكان قد خيل اليها أن الأمر انتهى لأنها اعتذرت لسالم .

ولكن سالم عندما جاء مع تفيدة من خلف القصر ، وهو يقضم رغيفا من خبز القمح طواه على قرص من عسل يتساقط من طرفى الرغيف وهو يقضمه .. كان ذا وجه محايد .. وسألته السيدة :

ـ انت لسه زعلان يا سالم ، انت كنت اشتكيت لحد .. انت مش قلت لى ان ما حدش عرف بمسألة ال .. مسألة النخلة دى ! مش لازم حد يعرف .

وأجاب سالم :

ـ ياست أنا مش زعلان منك انت .. انت أميرة الأمرا .. لكن اللى بينى وبين جوزك ، عمره ما حايخرج من القلب .

ـ انت ليه قلبك اسود كده ياسالم ؟! مش خلاص بقى .. انا اعتذرت لك .

ـ أنا قلبى اسود ياهانم ؟ الله يسامحك .

ونحى الرغيف بعيدا ، فقالت له :

ـ انت مش قلت لى انك ما اشتكيتشى لحد .. ليه الفلاح منكم قلبه اسود كده !

ـ ولا حاشتكى لحد ، لكن اللى فى القلب فى القلب .. وكل شىء بأوانه ! .. أنا بس شكيت همى لعبد العظيم ..

كان يتحدث باصرار .

وشعرت ان زوجة رزق بكل شموخها وهدوئها ، تخاف سالم!

وقلت لها :

ـ أسلوب التعامل ده أسلوب غير انسانى .. عقلية رزق بيه مع الأسف عقلية اقطاعية متأخرة ..

وانتفض الشيخ طلبة :

ـ اقطاعية ايه .. يقطع دى بلد .. أمال يسيب الأصول تضيع فى وسط البلد .

وقضم سالم الرغيف من جديد وهو يمسح العسل من على جانبى فمه ، ونظر الى الشيخ طلبة ضاحكا ولم يقل شيئا ..

فقالت زوجة رزق بحسم :

ـ استنى انت يا عم الشيخ طلبة .. على كل حال رزق غلط لكن انت ممكن تصفى الجو ومافيش داعى للشوشرة .. واحنا ننسى حكاية سالم دى وانا تانى مرة قدام سيادتك باعتذر له .. حقك على يا سالم .. حقك على يا ابنى ..

وتدخل الشيخ طلبة قبل ان أتحدث أنا أو يتحدث سالم :

ـ خلاص بقى يا واد يا سالم .. الست هانم .. الست ذات نفسها انحنت لك .. جالك كسر حقك ، عاوز ايه بقى !.. ستك بتنحنى لك ! .. وبتقول لك يا ابنى ..

ومرة أخرى قالت السيدة فى حسم :

ـ أسكت انت يا شيخ طلبة .. سته ايه أستغفر الله .. دا أنا امبارح شتمته قدام رزق بس علشان أهدى رزق لكن .. اللى حصل .. حقك على يا سالم .. المسامح كريم يا ابنى !

وسألتها :

ـ هو رزق بيه مسافر ليه مع المشرف ؟

ونظر الشيخ طلبة الى سالم مؤنبا قبل أن تجيب السيدة :

ـ يا سالم الكلب سامع البيه بيقول ايه ؟ .. بيقول رزق بيه .. تقوم انت تقول له سى رزق ..

وضحك سالم ضحكة طيبة وقال بخفة :

— طب وانا مالى .. هم بهوات زى بعض يقولوا لبعض زى مايقولوا .. لكن أنا فلاح يابا الشيخ طلبة أعرف أن البهوية اتلغت .. وان كل واحد ينادى للتانى باسمه وقبله كلمة « السيد » ..

أنت أيضا ؟! انك تتحدث عنى كما يكلمنى عبد العظيم .. كلماتك الطيبة لا تخلو من نبرة تأنيب .. ولكنك لا تنصفنى يا سالم .. لا .. لست أنا مثل رزق ! .. ما كان ينبغى أن أضيف الى رزق لقبا ألغى . ولكنها العادة .. نحن فى القاهرة لا نقاومها بالشكل اللائق .. انتظر جيلا آخر .. الا اذا استطعنا هناك أن نتعلم منكم هنا يا سالم ..

وسمعنا صوت نفيدة يرتفع من الباب الخارجى .. الباب الحديدى الأسود الذى يتوسط السور الحجرى ذى الحراب المدببة :

— البيه سافر .. دهدى .. رايح فين .. البيه مش هنا .. ايه البرود ده .. داخل ليه بقى .. أما برود .. !

ولكن توفيق حسنين أقبل مندفعا وهو ينحيها بغلظة وصاحت السيدة زوجة رزق :

— أقف عندك .. البنت بتقولك البيه مش هنا .. داخل ليه ؟ .. أما قلة أدب صحيح

ووقفت شامخة ذات كبرياء ، وقال توفيق معتذرا :

— يا ست هانم ، عبد المقصود افندى مدور عيال المدرسة عالدور عشان يعمل اجتماع بكره بعد صلاة الجمعة .. اجتماع للبلد كلها .. اجتماع للجنة والجمعية غصبن عن البيه .. وعبد العظيم لامم شوية عيال من المشاغبين ودايرين يلفوا البلد ويقولوا لا رجعية ولا اقطاع .. هى حصلت .. لا اقطاع ولا رجعية .. ايه العمل بس . دبرينى يا هانم .. وسعادتك بتقولى البيه مسافر .. ايه العمل بقى ؟ .. فين البندقية أطخ فيهم بالعيار واللى يجرى يجرى .

وقفز سالم وكل وجهه يتهلل من الفرح .. وطوح ببقية الرغيف والعسل فى الهواء وهو يصيح راقصا :

— وسع يا ولد .. لا اقطاع ولا رجعية .. لا رجعية ولا اقطاع .. أنا الزير سالم ياجدع .. لا رجعية .. لا رجعية .. ولا اقطاع .. ولا اقطاع .

وكان يرقص على ايقاع الكلمات ، وهو ينطلق الى القرية يشق الهواء بقامته الفارعة وبكل بدنه الذى امتلأ بحرارة واحساس عجيب بالقوة التى لا تقهر .. وبالقدرة على أى شىء .

وقفز وهو على الطريق الى القرية ، فتعلق بفرع من شجرة كافور ، وانتزعه ، وظل يشق به الفضاء كفارس أسطورى وهو يغنى :

« والله زمان ياشوم ماهزك الجدعان » .

5

أخذ عبد العظيم يفتل شاربه العريض الذى تستخفى شعراته البيض القليلة تحت الشعرات الكثيفة السود ، وهو قاعد فى قلق ، ملء هدومه ، على مقعد خشبى جدلت قاعدته بالقش ، وعيناه على باب المضيفة يتأمل الطريق ، ونظراته المتربصة تتوسل، وتضرع أن يقبل الناس ، فقد انتهت صلاة الجمعة منذ ساعة ، والمقاعد والدكك مرصوصة فى المضيفة فى انتظار أهل البلد .. ومع ذلك فما جاء منهم أحد بعد الا الاستاذ عبد المقصود ،ناظر مدرسة القرية ، الذى يجلس الآن الى جواره ، أمام منضدة ستلقى رخامة متآكلة الحروف على أرجلها الملتوية المتعانقة .

كان فوق الرخام مفرش كبير من الكتان على زواياه نقوش حمراء وخضراء وزرقاء ، تمثل أشجارا ونخيلا وحيوانات ريفية وناسا وجرارا بخاريا وأبراج حمام وفلاحا طفلا يركب بقرة ، ومنظرا للسد العالى تتدفق أمامه المياه فى خيوط رقيقة من النسيج الأخضر .. وعجبت لاستعمالهم اللون الأخضر لماء النيل ! .. انه حقا سر الخضرة وسلطانها !

هذه النقوش ! أخذت أتأملها وأدير راسى لأرى كل زوايا المفرش ..

ورفع عبد العظيم الأوراق التى كانت فوق المفرش وقدمه الى ، ووجهه المنطفىء من القلق يشرق فى ابتسامة فخار :

ـ دا شغل تلاميذ مدرسة بلدنا ..

وتناول الأستاذ عبد المقصود المفرش وأخذ يعرضه على بوجهه المطمئن :

ـ أشغال يدوية عاملينها الأولاد والبنات ذات نفسهم .. تعبير كده يعنى عن البيئة المحلية .. وعن .. أمل المستقبل .. السد العالى .

أمل المستقبل يا أستاذ عبد المقصود ! .. كم من الكلمات المضيئة تنطلق هنا بغتة فى يسر غريب ، كشعاع فجر جديد بعد الظلمات ! .. ما كنت تعرف هذه الكلمات منذ خمسة وعشرين عاما يا أستاذ .. كانوا يقولون لك وقتها عبد المقصود افندى ، وكان راسك هذا العارى الذى يغزوه الصلع يتخايل بطربوش طويل فاقع الحمرة ،معووج دائما على جبهتك .. ولكم كان يحلو لك ان تخلعه وتمر بيدك على شعرك الملمع اذ ذاك .. ثم تتحسس بعناية شاربك القصير المربع ، وأنت تتبختر فى الجلباب السكروتة ، وعصا من الأبنوس مطعمة المقبض بالعاج ، وتغازل بائعات البلح ، وبائعات الفول السودانى والحلاوة السمسمية القادمات من عاصمة الاقليم فى مولد سيدى مسعود !

ولكنك أصبحت حليق الشعر ، وما بقى من شعر رأسك قصير جدا ، وقد تخليت عن الجلاليب السكروتة ، والعصا

الابنوسية .. لا شىء غير جلباب متواضع من وبر الجمل منسوج فى القرية وعصا غليظة من الخيزران الأصفر ! ..

ووجهك المطمئن هذا وعيناك الهادئتان ، وكل هيئتك هذه توحى لمن يراك انك رجل بيت وأولاد .. لا رجل الليالى القديمة ..

كيف تسلل اليك هذا الوقار كله .. من يصدق انك أنت عبد المقصود افندى الذى عرفته منذ خمسة وعشرين عاما ،يسهر الليل كله يطارد فتاة استعصت عليه ولا يمل .. الليلة بعد الليلة .. وهو يتابع فى الحاح غريب .. حتى ينال الفتاة أو ينسحب حذر الفضيحة ! .. أتذكر انصاف أم سالم ؟ .. أتذكر منذ خمسة وعشرين عاما ، كانت أمها تعمل مولدة للقرية ، وكانت لا تدعى الى العمل الا فى الساعات الأخيرة من الليل .. فالاطفال لا يحبون أن يقبلوا الى عالمنا الا فى مثل هذه الساعات .. وكان أبوها ينام خارج البيت فى حديقة رزق التى يعمل بها خفيرا ، حيث صرخ فجأة من الألم بعد ذلك بسنوات ، ونزف دما ، ورقد وهو يتبول دما .. وظل فى رقدته حتى مات ! ..

كنت أنت تعرف أن والد أنصاف ينام خارج البيت ، وان أمها تستدعى أحيانا فى الساعات الأخيرة من الليل ، وكانت إنصاف قد شبت فجأة وأذهلتنا جميعا بحسنها الفتى الجديد .. وما كان أحد يجرؤ على التعرض لها ، حتى فى الموالد ، فما كان أيسر عندها من أن تلتقط أى شىء من الأرض .. حجرا أو حتى

روثا ، وتقذف به من يغازلها .. وصممت على أن تنالها ، تلك الحسناء ابنة الثالثة عشرة التى كان جسدها الفوار ووجهها الممتلىء الجميل ، وكل فتنتها توحى لمن يراها أنها فى نضج العشرين ! ..

انتظرت الليلة بعد الليلة .. وكلمتها يوما على حذرفعاملتك باحترام ، ولم تظن بك سوءا ..

وفى ذات ليلة تأكدت أن أمها المولدة خرجت من الدار .. كان المولود الجديد سيأتى مبكرا عن المألوف ، فقد استدعوها بعد صلاة العشاء بقليل .. وانتظرت أنت حتى خلت طرقات القرية من الناس ، فذهبت الى دارها .. واستقبلتك هى على الباب ووقفت فى فتحته وأنت تحاول أن تدخل .. ولكن البنت صرخت فى وجهك :

— رايح فين ؟ امش من سكات أحسن أفضحك فضيحة اللحم فى السوق .

— بلا جرسة وهتيكة يا أنصاف .. بس أدخلى لما أكلمك فى حاجة مهمة .

— حاجة مهمة .. لا أمى ولا أبويا هنا تخش بتاع ايه .. انت يعنى تخلينى لوحدى وتنسقط عالدار زى الديب لما ينسقط على الغنم ! ..

وحاولت أن تدفعها متوددا ، ووعدتها بأى مبلغ تطلبه ان تركتك تدخل .. ومددت يدك الى داخل الجلباب السكروتة

لتخرج المحفظة من جيب الصديرى ، ولـكنها فاجأتك ويدك فى جيبك ودفعتك بعنف وهى تطلق صراخا مفزعا •• واتسخ جلبابك السكروتة من الروث ! ••

وعندما اختفيت عنها ، كان قد خف اليها عـدد من الجيران يسألونها •• فقالت لهم :

ــ دا الديب ! •• كان حاينسقط عالحولية !

وفى صباح تلك الليلة كنت أنا وعبد العظيم نسألك عن قصة الذئب والحولية : النعجة الصغيرة ذات الحول الواحد ، ولكنك شتمت انصاف وقلت عنها انهـا مغرورة بجمالها تتخيـل ان كل الناس يغازلونها ، رغم أنها طويلة عريضة بلهاء كالفرسة الشاردة ••

فضحك عبد العظيم وقتها قائلا :

ــ حاكم التعلب لما ماعرفشى ياكل العنب قال عليه حصرم•• مش الحكاية دى بتقروها للعيال فى المدرسة برضه ياعبد المقصود أفندى !

ما زالت أنصاف طويلة عريضة كالفرسة الشاردة ، ولكنها لم تعد مغرورة بجمالها بعد ، فقد ذبل وجهها النضر ، وجف عودها•• لا يستطيع الانسان أن يتصور أن هذه المرأة المعروقة الوجـه ، التى تجلس على دكة بعيدة فى أقصى المضيفة وسط النساء، كانت فى يوم ماتملك فتنة تدير الرءوس •• وعيناها المتكسرتان ، وفمها الذى ارتسمت حوله الغضون ، ووجهها المتوتر !!! ••• أهذا كله لامرأة لم تبلغ بعد الأربعين ؟!

ولكنها مع ذلك تحتفظ بالقدرة على الضحك ، وما زالت الى اليوم تداعب عبد المقصود بقصة الذئب والحولية ، عندما تجده مهموما ••

وأدار عبد المقصود رأسه فى المكان ، وتجهم ••مازال المكان خاليا ، وقد مر أكثر من ساعة على صلاة الجمعة ••

ــ يعنى الناس ماجوش للاجتماع •• خبر ايه ؟ ما تقوم ياواد ياسالم تلف لك لفة عالبلد •

وقام سالم ومعه شابان من مثل سنه ••

وقالت انصاف :

ــ والنبى ياحضرة الناظر عاوزينك تمشى فى جوازة سـالم ابنى •• كلم له سيدنا الشيخ طلبة على تفيدة •• أنا شايفه الواد غاوى البت والبنيه عينهـا منه •• الحق كلمـه أحسن دا الديب حاينسقط عالحوليه ! ••

وابتسم عبد المقصـود ، وجلجلت ضحكة عبـد العظيم ، فقال عبد المقصود :

ــ دهدى ياعبد العظيم •• ايه اللى بيدحكك قوى كده •• الله ينكد عليكى يا أم سالم •• ماالحاجات دى راحت لحالهايابت يا انصاف !

وردت انصاف :

ــ يا اخويا خلينا ندحك بدل ما احنا شايلين الهم ليل و نهار•• ربنا يدحكك •• داهية تقطع الهم وسنينه ••

وأوشكت أن أسأل عبد المقصود وأنا أعيد وضع المفرش على المنضدة وأتأمل النخيل الكثير المنسوج على أطرافه: ياعبدالمقصود أفندى ... هذا هو النخيل فأين بائعات البلح ! ..

وغالبت ضحكى .. يجب أن أسأله أيضا عن بائعات الفجل .. كان وهو طالب بمدرسة المعلمين بعاصمة الاقليم على علاقة باحدى بائعات الفجل ألفت أن تبيع نفسها لبعض طلاب مدرسة الزراعة والمعلمين .. وضبطه أحد مدرسيه ذات ليلة فى مكان مظلم وراء مقهى يجلس فيه المدرس .. وفى الصباح ، عندما لقيه المدرس فى الفصل ، ضربه بالكف على صدغه وطرده قائلا :

ــ الواحد منكم أبوه طافح الكوتة هنا عشان يعلمه ويخليه بنى آدم .. وبعدين يضيع لى نفسه مع بياعة فجل .. بقرش صاغ واحد !

وسألنى عبد المقصود :

ــ بكم يباع مثل هذا المفرش فى القاهرة ؟ ..

انهم يريدون أن يحددوا له سعرا معقولا يباع به فى المعرض الذى سيقام بعاصمة الاقليم .

فهمست له .. « بقرش صاغ واحد » ..

وانفجرت ضحكتــه ، وأضـاء وجهه الطيب .. ثم تنهـد قائلا :

ــ أيام وراحت لحالها .. الواحد دلوقت جاوز الخمســين بشهور ، وعنده بقى غير مسئوليات بيتــه وأولاده مسئوليــات

المدرسة والقسم الليلى لمحو الأمية ، ومسئوليات العمل ... فى الاتحاد الاشتراكى والجمعية التعاونية .. واللى عنده مسئوليات زى دى لازم يعيش كالراهب منقطع لها .. طب والله دا احناعندنا فى فصول محو الأمية بنات ولا انصاف فى زمانها .. لكن بقى دول أمانة فى أعناقنا والواحد منا لايمكن يبيز الحلوة من الوحشة .. كلهم بناتى .. زى الدكتور تمام .. لكن تعرف نجاح الواحـد منا فى عمله أجمل من أى حاجة ..

وغمز بعينه وقد عاوده مرحه القديم !

ــ ألذ من الفول الســودانى والفجــل والبلح والحــلاوة السمسمية ..

واستمر يضحك .. وقد غمر وجهه احساس بالراحة وشىء من الزهو :

ــ لكن ايه رأيك فى شــغل أولاد مدرســتنا ! .. مش فى مستوى الأشغال اليدوية بتاعة تلامذة مصر ؟

وكررت تهنئتى .. كان فى رسم التلاميذ من الصـدق مايثـير احساسا بالروعة لا يستطيع أن يثيره غير رسم فنانين كبار عرفوا سر الألوان ، واستطاعوا أن يعبروا بالظلال والأضواء والالوان عن نبض الحياة .. كنت فى الحق مسرفا فى المبالغة .. لا أشعر باسرافى لكننى كنت مندفعــا فى فرحى بأبنــاء قريتى .. وعلق عبد العظيم :

ــ أمال التلاميذ فى مدارس مصر بيرسموا ايه .. الفساتين

اللى فوق الركب والا الشرابات الحريمى الملونة •• والا يمكن بيرسموا العربيات الجديدة اللى متلتلة فى الشوارع •• ممنوع استيرادها يا اخويا ومع كده تلاقيها مبدورة فى شوارع مصر أكتر من الطوب فى شوارع بلدنا ••

وارتفع صوت أم سالم :

ـ تلاقيهم بيرسموا البهوات •• ينيلك يا سالم يا ابنى •• بقى مش هاين عليك تقول لرزق بيه يابيه ! ••

وعلق آخر :

ـ والا تلاقيهم بيرسموا مباريات الكورة •• ماهى دى البيئة المحلية بتاعتهم •• احنا عندنا السجر والبهايم والمحاريث والجرارات والفوس •• وهم عندهم الكورة والفساتين القصيرة والبهوات والعربيات آخر مودة ••

فقال عبد المقصود جادا :

ـ لأ ياجماعة •• لأ •• بقى مصر مافيهاش غير كده •• دى مصر برضه أم الدنيا •• مايرسموا كمان السد العالى ، دا البيئة هناك فيها حاجات تسر الخاطر •• البرج ، الاهرام ، الآثار ، والأزهر ، والمصانع الجديدة ، والجامعة •• لأ •• لأ ياجماعة •• دى عاصمة الجمهورية برضه •

ثم توتر صوته وهو يستمر :

ـ طب ما احنا بقى حانعمل زى بتوع مصر اللى بيعيبوا علينا •• ماهى دى النظرة الرجعية للمدينة •• القرية لاتشق فى

المدينة ، والمدينة تسخر بالقرية •• احنا نشوفهم ناس هازلين أو متغطرسين وهم يشوفوا الفلاحين ناس فيهم خبث أو غباء •• أو حاجات تدحك •• دى أفكار غلط ! مخلفات لازم نغيرها •• المدينة بتستهوى اللى بيعيش فيها وينسى القرية •• ده حتى أولادنا اللى بيروحوا يشتغلوا عمال فى المدينة بيقطعوا صلتهم بالبلد •• حتى اللى اشتغلوا فى مصنع الغزل •• يادوبك بيجوا كده زوار •• أمال فين التفاعل •• لازم نغير المخلفات دى ••

ياعبد المقصود ! هذا التباعد هو المحنة التى يبتلى بها التطور فى وطننا ياعبد المقصود •• كيف نخلق هذه الثقة بين القرية والمدينة •• كيف نطوى المسافة التى تجعل الفلاحين ينظرون بحذر الى أهل المدينة ، وتجعل أهل المدينة يتعالون على الفلاحين ؟ •

لم يعد لكلمة الفلاح رنينها المزرى القديم •• ولكنها مع ذلك لاتحمل الى قلوب المدينة أية مشاعر نبيلة •• كم منهم يخفق قلبه عندما تذكر كلمة الفلاح ! •• لقد يذكر رائحة الحلبة ويتكوم مباعدا ملابسه خوفا من أن تتسخ ! •• وأكثرهم طيبة ينتابه الاشفاق ! ••

وبعض الذين يحملون الشعارات الاشتراكية فى القاهرة يشعرون عندما تذكر كلمة فلاح بأن من واجبهم الثورى ـ عقلا ـ أن يتقربوا الى هذا الفلاح •• ولكن من هو فى وجدانهم ؟ •• لا بد أن يكونوا من أصل ريفى ليشعروا بجلال ما تثيره الكلمة •• لا بد أن يكون هذا الفلاح أبا أو أخا أو عما او خالا ••

أما الذين ألفوا أن يكون الفلاح هو الأجير أو المؤاجر أو والد الشغالة .. فما عسى أن تثير عندهم كلمة « فلاح » ؟ .. أطيبهم يرى أن من واجبه ــ عقلا ــ أن يتعاطف معه .. من واجبه أن يحبه .. وألا يزدريه .. واجب !! .. وهذا هو كل شيء ! .. والفلاحون هم أيضا كم منهم يثق فى أهل المدينة ؟ ..

لقد مثلت المدينة دائما بالقياس اليهم سنوات طوالا من السيطرة والرعب والسلطة الغاشمة .. كل شيء رهيب جاءهم من المدينة .. أوامر السخرة فى الزمن الماضى ، والضربات ، ونزع الأرض ، والسجن أيضا فى المدينة ..

وفى دفاع غريزى عن النفس مضوا يسخرون بالمدينة ويرفضون كل مايأتى منها .. كان هذا هو احتجاجهم الوحيد الممكن : ألا يثقوا بشيء من المدينة ! .. حتى عبد العظيم ابن عمى لا يؤمن بأننى أستطيع أن أعرف القرية كما يعرفها هو .. وهى مع ذلك قريتى .. فيها كل أهلى .. ولكن جريمتى عنده أننى أعيش وأقيم وأربى أبنائى فى المدينة .. وما يربطنى بالقرية غير عظام الجدود .. القبور وحدها هى اللى تربطنى بالحياة هنا .. هكذا يظن عبد العظيم .. وهو معذور !

ومع ذلك فأنا لم أسمع فى المدينة أبدا هذا الرفض الحاسم للتفرقة بين القرية والمدينة .. لم أجد من يشعر به بمثل هذا القدر من الحساسية الذى رأيته اللحظة فى عبد المقصود .

وظللت أدير نظراتى فى اكبار يخالطه الاعجاب بين عبد المقصود وعبد العظيم وأم سالم وهذه الوجوه المتوترة المطمئنة مع ذلك ، التى ترفض المهانة وتتحدى السخرية .. هذه الرءوس التى أخذت ترتفع وتواجه قدرها .. كل هذه النفوس المتطلعة فى ثقة الى غد كأنها تصنع مصيرها وتنسج مستقبلها خيطا بعد خيط ببراعة الأيدى الصغيرة التى نسجت السد العالى والماء الأخضر المتدفق والجرارات البخارية على المفرش الكتان .. ببراعتها وثقتها وبساطتها .. ونبالتها أيضا .. لكم هو رائع ومثير للكبرياء أن يتطور الانسان الى هذا المدى خلال أعوام قلائل .. لكم يملؤنا هذا كله ثقة بالمستقبل ! ..

وقال عبد العظيم وهو يلاحظ دهشتى التى يبدو أننى لم أستطع أن أخفيها :

ــ على كل حال .. ان المدينة مسئولة مسئولية كبرى عن العمل الجاد فى القرية ..

وتزايدت دهشتى .. ماهذا ياعبد العظيم ؟ .. هذه كلمات كبيرة .. تقولها بصدق غريب كأنها تنبع منك انت نفسك .. ولكنى سمعتها أو قرأتها فى غير هذا المكان .. مع ذلك ففى نبراتك مايؤكد انك أنت الذى يقولها .. أهو ما يسمونه خداع الذاكرة يدهمنى أيضا .. أين سمعت هذا ؟ .. أين قرأته ؟! ..

وأضاف الأستاذ عبد المقصود :

ــ طبعا .. ياعبد العظيم .. تمام زى ماقال الميثاق ..

آه .. كلمات من الميثاق ! ..

واستمر عبد المقصود يقول بنبرات صادقة كأن كلماته تنبع من أعماقه هو الآخر :

ــ ان وصول القرية الى مستوى المدينة الحضارى وخصوصاً من الناحية الثقافية سوف يكون بداية الوعى لدى الأفراد ..

لم تكن لكلمات الميثاق منذ سمعتها لأول مرة ، مثل هذه الشحنة ..

وابتسم عبد المقصود ،وأشار الى امام قائلا لى :

ــ أنظر ..

حائط أبيض لصقت عليه أوراق كثيرة .. لم يكن هذا الحائط هنا من قبل .. كان هنا منذ سنوات أكوام من التراب ، وبعض أحجار ونخيلات صغيرات وحشائش .. وكان المكان يفضى الى أرض فضاء تنتهى عند الحقول ..

كانت هذه الأرض الخربة فى أقصى المضيفة مليئة بالثعابين ، وكانت تتسلل اليها الذئاب والثعالب والقطط البرية .. لم تكن تعمر الا ليلة مولد سيدى مسعود . فهنا كانت حلقات الغوازى وبائعات الفول السودانى والحلاوة السمسمية وبائعات الهوى المحترفات ، وكل ما ترسله المدينة الصغيرة الى القرية ليلة مولد سيدى مسعود .. كانت هنا تجرى صفقات ، ويخاف الآباء انزلاق الأبناء .. وكانت فتيات القرية يتجنبن هذا المكان .

ولكن ليلة مولد سيدى مسعود لم تعد تقام بعد .. وبدلا من تلك الأرض الخراب ، أرى أمامى الآن بناء جديدا أنيقا من طابقين .. وقال عبد العظيم :

ــ ما احنا هدينا الخرابة وقتلنا كل التعابين اللى فيها وبنينا بدالها الدورين دول .. أول دور للجمعية التعاونية ، والدور الثانى للاتحاد الاشتراكى ومركز الشباب .

وأكمل عبد المقصود :

ــ فى المدخل مكتبة .. عاوزين كتب هدايا من أولاد البلد اللى عايشين فى مصر .

وأخذت أنظر الى الحائط الخارجى للمبنى .. كله بلون أبيض ناصع يشرح القلب .. والباب بلون أخضر ريان بهيج .. وفى أعلى الباب صورة للرئيس .. ينظر باسما ، ونظراته تطل على الجميع ، كأنها تعبر الآفاق الى مستقبل مشرق .. وعلى الحائط الخارجى علقت لوحات فى نظام هندسى بديع كتبت عليها مقتطفات من الميثاق ومن خطابات الرئيس بخط جهد أصحابه فى أن يكون جميلا .. وقال عبد المقصود :

ــ أولاد المدرسة وخريجى فصول محو الأمية هم اللى كتبوا اليفط دى .. بعضهم كتبه من عنده والله .. أنظر .. تأمل .. هذا كله من حصص تحسين الخط ..

واستوقفنى خط ردىء للافتة فأخذت أتأملها وأقرأ بصوت خافت :

« ان شعبنا قد عقد العزم على أن يعيد صنع الحيـاة على أرضه بالحرية والحق ، بالكفاية والعدل ، بالمحبة والسلام » .

فقال عبد العظيم :

ــ أهه ده خطى .. مش حلو ؟

وجاءت أنصاف فأشارت الى لافتة .. كان لها نفس قوامها القديم الشامخ .. وبقية حسن ذاهب :

ــ ودى كتبها سالم ابنى .. مش خطه أحلى من كتابة عبد العظيم .. هو اللى كتبها من عنده ما حدش قال له ..

كان حقا خطا أجمل ..

وأخذت أقرأ :

« ان الطريق الثورى هو الجسر الوحيد الذى تتمكن به الأمة العربية من الانتقال بين ما كانت فيه وبين ما تتطلع اليه » ..

وجرى ولد صغير فقال لى : طب اقرا دى .. أنا حافضها لوحدى .. ما حدش من الأساتذة ملانى ..

وقرأت : « حتمية الحل الاشتراكى » .. كلمات ثلاث كتبت بحروف كبيرة ضخمة ، الكلمة تحت الكلمة على ورقة ضيقة طويلة كالشريط .. كانت قطعا أطول من التلميذ .. ونظر الى فى انتظار ، واذ رآنى ابتسم وأحييه..طار فرحا ، وعاد الى مكانه هناك وسط النساء ..

وظللت أتابع فى اعجاب كل اللافتات المكتوبة .. مقتطفات ذكية وفعالة من الميثاق أو كلمات الرئيس جمال عبد الناصر .

ما هذا كله ؟ .. كنا ونحن صغار نتعلم الخط العربى على حكم من نوع : « القناعة كنز لا يفنى » .. كانت تفرض علينا فى كراريس توزعها المدارس .. ولكنكم هنا تصنعون جيلا جديدا حقا .. وتصنعون أيضا ــ دون أن تشعروا أو تتخايلوا أو تثرثروا ــ المستقبل الحقيقى الوضاء !

وسمعنا ضجيجا خارج المضيفة .. وغبارا قليلا مثارا .. ودخل رجلان ، ثم ثالث .. والزعيق مستمر .. وقالت أنصاف من بعيد :

ــ أهو سيدنا جه بالعفرة والجفرة ..

ثم دخل سالم ومعه رجلان آخران .. ووراءهم سيدنا الشيخ طلبة ، واندفع خلفه نحو عشرة رجال :

ــ طيب أدخلوا .. ما دام ما بقى ليش حكم عالبلد .. أدخلوا الاجتماع .. مش الأول كنا نشاور حضرة العمدة .. طب رزق بيه وقلنا مسافر .. والعمدة .. حضرة العمدة رئيس البلد!

وزعق عبد العظيم :

ــ ما احنا قايلين لحضرة العمدة يبجى .. سيبه فى حاله بقى .. ما هو محتار : ان جه حايزعل السيد رزق ، وان ما جاش حايزعل البلد .. الراجل عيى .. مرض .

وقالت أنصاف :

ــ لا وانت الصادق يا عبد العظيم .. العمدة سافر .. العمدة خد أجازة طويلة وسافر مصر لأولاده هناك وسايب بداله

نايب طول مدة غيابه •• هو أنت يا اخويا مش عايش فى البلد !••
يا ترى مين حايبقى نايب العمدة !! •• العمدة سافر من الفجر ••
جماعته قالت••هو انت ياعبد العظيم يا اخويا مش عايش فى البلد؟

أحسنت يا أم سالم •• عبد العظيم هذا لا يرحمنى انأخطأت فى معرفة رجل من البلد بعد عهدى به ! دقد بدقة ! انه يتهمنى بأنى لمأعدأعرف البلد •• هو أيضا ـ فى رأيك ـ كأنه لايعيش فى البلد لأنه لا يعرف أن العمدة سافر ! •• الذين لا يملكون أرضا فى القرية ـ مثل أم سالم ـ يعتقدون أن الذين يملكون ـ مثل عبد العظيم ـ لايعرفون البلدكما ينبغى ! •• وغضب عبدالعظيم:

ـ بقى أنا مش عايش فى البلد يا أم سالم ؟ هى البلد عندك دوار العمدة ؟ والله عال ! •• جماعة العمدة قالت •• يعنى السيدة عائشة قالت •• جاتكم الغم !•• والا يعنى قالت عائشة •

وهب الشيخ طلبة فجأة :

ـ قل ستنا عائشة رضى الله عنها ! •• ثم قل لى يا عبد المقصود •• بالمناسبة يعنى •• انت النهاردة فى صلاة الجمعة •• قلت فى حديث شريف عن السيدة عائشة رضى الله عنها كلام غريب قوى •• جبته منين ؟ •• يا أخويا انتم حاتعلمونا اسلامجديد؟•• ايه قولة ان سيدنا المصطفى عليه الصلاة والسلام زعل من سيدنا عثمان رضى اللهعنهلما شتم اللىاسمه عمار بنياسر والا ياسر بنعمار ده •• وحكم على سيدنا عثمان انه يعتذر له ويشتغل زيه سواه•• دا سيدنا عثمان كان صهره ، وكان من سادة قريش ومن أغنياء

الصحابة ، يقوم سيدنا النبى يعمل فيه كده ويشغله زى الفقرا سوا ••

ـ أيوه •• لما كانوا بيبنوا مسجد المدينة وعثمان بن عفان رفض يعمل ، وشتم بعض فقراء الصحابة لأنهم طالبوه بالعمل •• النبى كان فى وسطهم يعمل ••• غضب عليه الصلاة والسلام لما عثمان أهان فقراء الصحابة ، فقرعه وخلاه يعتذر لهم ••

ـ طب وتشبه الواد سالم ابن أنصاف بالصحابى ده •• افرض يعنى ان الحكاية صحيحة ، تقوم ••

وقاطعته أنصاف :

ـ ماله سالم ابن أنصاف يا سيدنا •• ما بتقولشى ليه سالم ابن عليوة •• الله يرحمك ياعليوة •• ياما خدمت سيدناوطفحته•

وهاج سالم :

ـ وما يقولشى عليه ليه حضرة الناظر فى خطبة الجمعة •• هو لادد عليك يعنى اننى أتصلب على نخلة •• هو ده اسلام ده ••ما انت كنتواقف••عملت ايه يعنى لما انضربت بكرباج الخيل•

وهاج سيدنا وماج :

ـ اخرس يا واد انت •• حاتبقى انت وأمك عليه ؟ جاتك داهية فى امك •• ما البلد خسرت ، ماحد عارف لها صغيرمن كبير •• وآخر المواخر سى عبد المقصود افندى طالع لنا باسلام جديد •• ما عندى كتاب خطب الجمعة اللى بيقروها فى الجوامع من أيام

جدود الجدود ..لا شفنا فيه حديث زى ده ولا اسلام زى ده!..
ده اسلام جديد علينا بقى ..

وقال عبد المقصود بهدوء :

ــ اهدا بس ياسيدنا ووحد الله .. هو ده الاسلام الحقيقى مثل اللى عندك فى كتاب خطب الجمعة .. وعلى كل حال بعد الاجتماع لنا كلام تانى .. هنا فى المكتبة كتب حلوة قوى عن انحاجات دى .

واحتج عبد العظيم :

ــ احنا جايين نتكلم فى ايه والا فى ايه ؟ نبتدى الاجتماع بقى خللوا كل واحد يروح لشغله ..

وأقبلت تفيدة فى جلبابها الملون ، ومشت الى حيث جلست النساء ، فنادتها أنصاف فأجلستها الى جوارها ، وهى تربت عليها فى حنان ملحوظ ، وتنظر بفخر الى وجهها الجميل الطيب ، وبدنها الفتى .. آه لو عمرت لها الدار وتزوجت ولدها سالم ..

وصاح الشيخ طلبة وهو يرى ابنته تلتصق بأنصاف :

ــ تعالى هنا يا مكسورة الرقبة .. ايه اللى حشرك جنب أم سالم ؟

وردت عليه أم سالم ضاحكة :

ــ يعنى عاوز تحشرها بين الجدعان وسط الغيلان..ماتخليها هنا .. ما تقول له يا حضرة الناظر .. قبل الديب ما ينسقط عالحولية ...

وصاح الشيخ طلبة :

ــ على العموم النسوان ما لهمش قعدة هنا .. ما لكم أنتم ومال اجتماع زى ده .. انجرى عالدار منك لها ..

وسرت ابتسامة وهمهمة ساخرة وسط الجميع ..

ولم تتحرك واحدة ، والشيخ طلبة يلعن النساء وآخر الزمن ..

وارتفع صوت عبد المقصود وهو ينقر رخام المنضدة بقلم من الحبر الجاف :

ــ باسم الله نبدأ الاجتماع ..

وقالت أنصاف :

ــ قابلت الوزير يا عبد العظيم ؟ ..

ــ قابلت الوزير ؟! .. هى مقابلة الوزير عندكم بالساهل كده ؟! .. مش برضه لها أصول ؟ أنا قابلت واحد فى مكتبه قال لى اكتبوا مذكرة بالحاجات اللى بتشتكوا منها ومضوا عليها البلد كلها أو لجنة الاتحاد الاشتراكى والجمعية وهاتوا وفد من اتنين تلاتة وانتم تقابلوا الوزير .. بس اعملوا حسابكم انكم حاتقعدوا ليلتين .. تقدموا المذكرة والوزير يقراها وتانى أو تالت يوم يقابلكم ..

وصاح رجل عجوز فى احتجاج :

ــ نكتب عريضة يعنى .. لا لا .. ايهى ! دا احنا ياما شوفنا من العرايض اللى قدمناها للحكومة من قديم الأزل ..

وقال عبد العظيم :

ــ احنا فى زمن تانى يا شيخ .. ما تفهموا الدور بقى ..

وضحكت أنصاف :

ــ بقى تروح مصر وترجع طويل طويل كده وما تقابلشى الوزير ؟ .. ايش حال لو ما كنتش عارف مصر .. طب دا أنا ياللى عمرى ما رحت مصر لو حطيت رجلى فيها مش راجعة من غير مقابلة الوزير ..

ــ هو انتى فاهمة ان مقابلة الوزير دى زى مقابلة العمدة .. والا فاكرانى كنت رايح أقابل سيدنا الشيخ طلبة ..

واحتد الشيخ طلبة :

ــ مالك ومال سيدنا .. ركبوك الأسياد ما خللوا فيك حتة على حتة .. ماكل واحد وزير فى نفسه يا أخى .. أستغفر الله العظيم .

وتدخل عبد المقصود فى حسم :

ــ يا جماعة .. عاوزين تنظم الاجتماع .. اللى يتكلم يطلب الاذن بالكلمة .. يرفع صباعه .

واستمر الشيخ طلبة فى حدته :

ــ يرفع صباعه ؟ .. هو احنا فى المدرسة والا ايه يا حضرة الناظر ؟ .. عشت وشفت يا طلبة لما ترفع صباعك علشان تتكلم قدام ناس قد أولادك .. وأولاد أولادك ..

وعاود عبد المقصود الكلام فى حزم :

ــ دلوقت عندنا اقتراح اننا نكتب مذكرة بالمخالفات التى ارتكبها المشرف الزراعى وهى مخالفات جسيمة ضد مصلحة الفلاح وضد التطور الثورى وقوانين الاصلاح .. والبلد كلها تمضى وتختم على المذكرة .. وتختار وفد من اثنين يقابلوا الوزير .. وفيه اقتراح تانى ان بلاش مذكرات .. فيه حد عنده اقتراح جديد قولوا قبل ما ناخد الأصوات .

وساد صمت كامل .. لا يسمع فيه غير الأنفاس .. ومن بعيد ارتفع صوت غريب يتخلل همهمة كبيرة ..

ــ زى ماقلنا الجو جميل جدا .. والفريقين نزلوا الملعب من دقائق .. والمباراة ستبدأ الآن ..

وفى غضب ملحوظ صاح عبد المقصود :

ــ اللى معاه ترانزستور يقف ..

ووقف تلميذ من المدرسة الثانوية فى عاصمة الاقليم ، كان يجلس فى ركن بعيد على اذنه ترانزستور :

ــ أصله يا حضرة الناظر .. أصلها مباراة الموسم بين الأهلى والزمالك .

وقال عبد العظيم :

ــ اخرج اسمعها بره يا أخى وخلينا فى شغلنا ، واللى عاوز يسمع المباراة يخرج معاه ..

وانسحب الطالب فى خجل ، وخرج وراءه اثنان •• ثم واحد •• وبقى الركن الذى كان يجلس فيه طلبة المدرسة الثانوية مكتظا بنحو عشرين طالبا ، استداروا كلهم فى انتباه كامل الى حيث كان يجلس عبد المقصود •

وارتفع من بينهم صوت غاضت نعومته الطفلة وسط خشونته الجديدة :

ـ احنا آسفين •• اللى خرجوا دول لا يمثلوا الا أنفسهم • ودول مجانين كورة ••

فرد عبد المقصود :

ـ شكرا •• على كل حال احنا كلنا مسئولين عن توعيتهم •• ما فيش اقتراحات جديدة ؟

اقتحم باب المضيفة توفيق حسنين ، وانحنى فى تظاهر متكلفه •• وكلاب القرية تنبح فى الخارج بشدة :

ـ اتفضل يا سعادة البيه •• اتفضل •

وفى باب المضيفة توقف رجل يلبس بدلة أنيقة ويبتسم بشكل ملحوظ ، نحيل ، سريع الحركة ، له وجه أصفر بنى ، ممتص غائر الخدين ، وشاربان رفيعان تنفر منهما شعرات •• وعلى رأسه يسيح شعر ملمع أسود مفروق بعناية ، يتهدل على أذنيه ويمنحه طابعا أنثويا •• ولكن نظراته متحدية ، نظرات ثعبان ، فى وجه غاضب كتلك الوجوه التى تلفحها كراهية كل شىء ••

وقال بصوت حاد مرتفع غطى على نباح الكلاب :

ـ فضوا الاجتماع ده •• الاجتماع ده غير قانونى ده من غير اذن من سلطات الأمن ، واللى دعوا اليه لهم حساب تانى ••

وساد وجوم !

من هذا الرجل القادم من المدينة يحمل لهم كل هذا التحدى ••؟!

وسأله عبد المقصود :

ـ مش نعرف الأول مين سيادتك ؟! •• اتفضل •

فرد بابتسامة كريهة صفراء :

ـ مين سيادتك انت الأول ؟ •• اتفضلوا •• الاجتماع ممنوع •• دى أوامر الحكومة •• ثم مين المسئول عن المظاهرات اللى حصلت هنا ؟ •• اتفضلوا •• تعال يا نائب العمدة •• افتح الباب المقفول ده وحضر لى سرير هنا •• وشوف لى واحدة تخدمنى •• اتفضلوا •

ما هذا ؟! نائب العمدة ؟ •• توفيق حسنين نائب عمدة ؟!! أية مصائب جاءت بهذا الرجل الغريب القادم من المدينة بسحنته المنفرة وبلهجة كريهة فيها ذكريات السيطرة والرعب والسلطة الغاشمة ••؟!

وقفز الرجل الغريب مرة أخرى وصاح فى كلمات خاطفة مقتضبة بلهجة قاهرية واضحة :

ـ ازاى تعملوا اجتماع رغم ارادة رئيس الجمعية التعاونية وأمين لجنة الاتحاد الاشتراكى •• دى ألاعيب فوضوية •• دى فوضى •• ده يعتبر تحدى لتنظيمات الدولة !

وزعق عبد العظيم :

ــ ما احنا القاعدة الشعبية .. احنا الأصل .. هو راجل واحد حايغلب بلد بحالها يعنى ؟ هه !

والتفت الرجل الغريب النحيل الى توفيق حسنين مبتسما :

ــ مين ده ؟ مين المشاغب ده ؟.. اسمه ايه ؟.. أكتب اسمه عندك يا نائب العمدة .. ده عميل للرجعية !

وهبط وجوم متربص متوجس على الجميع ...وهمست أنصاف لمن حولها :

ــ وماله يا أختى بيتنطط كده زى البرغوت .. حتى وشه وشنباته .. زى البرغوت تمام ..

وسرت الضحكات .. كموجة سريعة ازاحت عن النفوس قلقها وتوترها ..

واستدار هو راجعا ومن خلفه توفيق حسنين طالبا من عبد المقصود وعبد العظيم أن يفضا الاجتماع على الفور .. والا تحملت القرية كلها نتائج فادحة ! وانصرف مسرعا وهو يقول :

ــ أنا منتظر عبد المقصود وعبدالعظيم بعد صلاة المغرب .. عند رزق بك ..

مرة أخرى يقبل من المدينة رجل غريب .. غريب الثوب والتصرفات واللسان والهيئة ، يلقى أوامر قاطعة ، ويحمل الى القرية ذلك الخوف من المجهول .. الخوف الذى كانت قد نسيته القرية .. ومرة أخرى تستقبل القرية رجل المدينة بالشك .. ثم السخرية !

وبدا هذا كله شاذا ومستحيلا أمام الموجودين .. وأخذ عبد المقصود يتطلع أمامه الى صورة الرئيس ، وأحس لابتسامته ولنظراته المرتسمة فى الصورة بمعنى جديد .. لكأنها موجهة الى كل هؤلاء ..

وبدأ الآخرون يتطلعون الى الصورة .. والطمأنينة تعود اليهم .. كلنا كنا نتطلع الى هذه النظرات المضيئة التى تعبر أسوار المكان الى هذه القرية ، وأسوار الزمان الى المستقبل ..

وأخذنا نقرأ الكلمات التى كتبها الصغار ، والكبار الذين تعلموا حديثا .. كلمات من الميثاق وخطابات الرئيس .. والشيخ طلبة يسحب بنته مهرولا :

ــ اللهم حوالينا لا علينا .. احنا قلنا اللى راح راح وحانعيش اليومين اللى فاضلين مطمئنين .. سبحان الله من غضب الله ..

وبدأوا ينفضون .. وصاح سالم :

ــ اشمعنى يعنى تقابلوه عند السيد رزق ؟ هو رجع من مصر ؟ ده بيقول عليه رزق بيه .. بقى واحد من الحكومة يقول على السيد رزق رزق بيه ! .. أنا مستغرب للرجل ده .. ده حتى الكلاب هبت فيه زى ما بتهب فى رجالة الليل .. هيه الكلاب بتحس أكتر من البنى آدم ؟!..

وقالت أنصاف :

ــ وحياة النبى لاروح مصر من فجر الله القوى ..ولاكون مقابلة الوزير ..

ومشينا ... عبد المقصود وعبد العظيم وأنا .. ووقف عبد العظيم يزعق فى الطريق بغتة :

ـ وحياة النبى أنا قلبى بيقول لى ان الجدع ده نصاب .. لا يمكن الحكومة تبعت واحد زى ده .. أهه بوظ لنا الاجتماع وخلاص .. لكن احنا حانكتب المذكرة ونختم عليها البلد .. حكومة ؟ الحكومة تقف ضدنا ؟.. هو احنا اقطاع والا رجعية ؟ دى حكومتنا ! أقطع دراعى ان الواد دا نصاب .. وبكره تقولوا عبد العظيم قال .. وأنا اللى حاجيب خبره وأقطع جدره .. بكره تشوفوا .. واللى يعيش ياما يشوف ! والا بقى يمكن مصرفيها حكومة تانية .. حكومة سرية ..

***

ومشينا راجعين ..

كيف يحدث هذا ؟!

من يعش ير ....

***

6

ـ ما حدش خرج من يده يعمل اللى أنا عملته .. أنا اللى اسمى وليه ووحدانية وغلبانة ..

ـ بقى قابلت الوزير يا أم سالم ؟ والله عشنا وشفنا ..

حكت انصاف مائة مرة كيف قابلت الوزير .. قالت الكلمات نفسها لكل من قابلها فى القرية ، ومضت تبحثهى عن الذين يهمهم الأمر لتحكى لهم ماحدث .. لم يتخل عنها أبدا احساسها بالفرح والفخر . بحثت عن عبد العظيم ، فهو أول من يعنيه الأمر فى القرية .. انه يعرف طريق الوزارة طبعا .. لم تصفها له .. ولم تصف له الطريق الى مكتب الوزير ، ولكنها خبطته على كتفه وهى تقول :

ـ كانوا حيعملوا معى زى عملتهم معاك .. قالوا لى هاتى شكوى مكتوبة وسيبى عنوانك هنا .

وضحك عبد العظيم :

ـ عنوانك فى مصر يا أم سالم ؟ .. ماطلبوش منك كمان نمرة تليفونك يا .. مدام ..

وضحكت انصاف وهى تتراقص من الخفة ، تماما كماكانت منذ نحو عشرين عاما عندما كانت تفتن القرية ، وحين كانشبابها

يتب بها على الحياة ، ويسرى فى دمائها شوقا وفرحا وتطلعا ..
وعادت تخبط كتف عبد العظيم ببساطة :

ــ يا اخويا ماتشدش على المسخرة..تليفون ايه ومدام ايه ؟ أنا عملت اللى ماتعسلوش الف مدام .. ولا ألف راجل .. انت مش قالولك كلام زى ده رجعت البلد..ايد ورا وايد قدام لكن أنا رجعت بايدى مليانة .. قلت لهم حاضر..لكن الوزيرهنا؟.. قالوا لسه ماجاش .. الكلام مادخلشى مخى .. قعدت أسأل واحد واحد فى الوزارة ..ماخليتش .. السعاة والعسكر .. كلهم قالوا انه جاى الضهر علشان عنده اجتماع مجلس الوزرا سألت مجلس الوزرا ده فين ؟ .. ورحت المجلس .. مارضيوش يدخلونى .. العساكر اللى عالباب قالوا لى فيه ميعاد ؟ .. قصر القول رجعت الوزارة .. عارف الديب لما يلبد فى الدرة .. لبدت أنا قدام باب الوزارة ... الشمس ملت الدنيا وأنا برضه قاعدة .. فين كده واحنا قرب العصر لقيت حركة فى الوزارة .. ايه ياولاد قالوا لى سيادة الوزير جاى..ياحلاوة.. والعربية حاتقف فين .. قالوا لى هنا هه .. وقفت مطرح ما قالوا .. نزل الوزير من العربية .. طويل وعريض كده اسم النبى حارسه وأسمرانى زينا .. تقولش واحد من أولاد بلدنا .. بس عليه القيمة .

ــ دهدى يا أم انصاف .. هم يعنى أولاد بلدنا ما علهمشى القيمة ؟! .. هه .. والخلاصة .. انت بقيتى رغاية قوى كده ليه يا بت ؟

ــ قصر القول قلت له ياسيادة الوزير أنا فلانة الفلانية من البلد الفلانية وجاية أشتكى من مشرف الاصلاح الزراعى .. ومن مشرف الجمعية التعاونية ومن سى رزق .. ازاى ياوزير الظلم ده كله يجرى واحنا فى عهد جمال .. مش كفاية ظلم السنين اللى فاتت دى كلها مش كفاية يعنى ؟.. ساعتها ياعبد العظيم افتكرت القديم والجديد فرت الدمعة من عينى غصب ماعرفتش لا أكمل .. ولاأروح ولا آجى فى الكلام ..

ــ يا بت ما انت طول عمرك دمعتك قريبة .. جاتك الغم ..

ــ الوزير قال لى ماتزعليش ياست .. الوزير قال لى ياست .. ياست .. والتفت لواحد من اللى حواليه وقال لهم شوفوها بتشتكى من ايه .. وحققوا الشكوى على طول فورى كده ولازم الغلطان يأخذ جزاته فورى على طول كده ..

ــ بقى الوزير قال لهم كده . ده كلام يا بت يا انصاف ؟

ــ دا معناة الكلام يعنى .. وقال انتى يا ست انصاف روحى على بلدكم وان ماظهرش نتيجة مستعجلة ابقى تعالى تانى والا ابعتى لى جواب بقرش صاغ .. روحى انت واطمئنى ان لايمكن كده أبدا وقطعيا حد يتكلم أبدا أبدا دا عهد الفلاح يا ست انصاف .. والحكومة فيها تلات وزارات بحالها لخدمة الفلاح .

ــ والله نفعت يا بت يا انصاف .

ومسحت انصاف طرف فمها بأصابعها ، فى دلال وهى تقول ضاحكة :

— بقى الوزير يقول لى ياست انصاف وانت تقول لى يابت .. يا أخى جاك بنه تبتك .. والنبى لا حكم على أيها واحد حتى اللى من طرف الحكومة يقول لى ياست .. اذا كان الوزير ذات نفسه قال لى ياست ..

وظلت انصاف تضحك .. وهى تروى كيف أخذوها الى حجرة مكتب فسيحة ، وأجلسوها وأحضروا لها عصير ليمون بالسكر والماء المثلج .. ماعرفت الماء المثلج من قبل وما عرفت عصير الليمون .. فهى تمتص الليمونة أحيانا حين يدهمها القرف .. وأملت شكواها على الموظف الذى يجلس الى المكتب ونبهها الموظف الى أن ماتقوله خطير فعليها أن تتذكر كل ماحدث بدقة ، فالوزير سيعاقب الموظفين عقابا عادلا ورادعا ان تبين أن ماتقوله صحيح ولكنها ان كانت تكذب أو تضيف الى بعض الوقائع الصحيحة ذيولا غير صحيحة ، فلن تنجو هى نفسها من العقاب .. ولكنها ظلت تملى كل ماحدث حتى كتب الموظف ورقة كاملة .. وورقة أخرى وثالثة .. حكت له عن كل ما يجرى فى القرية .. عما صنعه مشرف الاصلاح الزراعى .. كيف كتب عقود ايجار بتاريخ قديم للسيد رزق ، ومكنه بهذا من حيازة نحو .. عشرين فدانا من أجود أرض الاصلاح .. وما كان رزق مستأجرا لهذه الارض من قبل أبدا .. كانت ملكا لأبيه ، هذا حق ، ولكنه باعها للامير منذ زمن طويل .. وحكت له كيف غصب المشرف ابنها سالم فجعله يوقع على عقد ملكية أرض غير التى يمتلكها .. انتزع منه الفدانين

الطيبين السمينين ليضمهما الى الأرض التى يستأجرها رزق اعتمادا على عقود قديمة مزورة .. وبدلا من هذه الأرض التى تبر ، جعل الولد يوقع على أنه مالك أرض أخرى .. فدانين ضعيفين .. أرض لا تستأهل كلبا يأكلها .. وجن الولد من القهر وجاء يعاتب رزق عندما اكتشف الخديعة ولكن رزق الذى لايطيق أن ينادى الا « سعادة البيه » عذب ابنها سالم ..

ونبهها الموظف الذى يتلقى منها الشكوى الى أن هذا اتهام خطير وعاقبته على الآخرين جسيمة ان صح فان لم يصح فعليها هى .. ولكنها أقسمت له بمقام سيدى مسعود وبمقام السلطان الحنفى أن هذا صحيح وان رزق صلب ابنها على نخلة عندما ذهب يناقشه فى هذا الأمر .. فلم يكد الولد يفتح فمه حتى كان معلقا الى جذع النخلة ورزق يضربه بسوط الخيل .

ورمى الموظف قلمه فى ذعر .. لماذا يمتهن الانسان الى هذا الحد .. من أين تنبع عند بعض الناس هذه اللذة الهمجية حين يرون الآخرين يتعذبون ؟

أتثبت لهم قدرتهم على أن يصنعوا الألم للآخرين .. انهم كائنات تمارس وجودها ، وتملأ الفراغ بمثل هذه الأفعال ؟ .. أين الحرية التى توفرها الاشتراكية للكائنات ان كان الانسان ما زال يستطيع أن يهدد الانسان الى هذا الحد ، واذا كان بعض الملاك وبعض موظفى الدولة أو أصدقاؤهم ما زالوا يستطيعون أن يقهروا المواطن ؟ .. الخلاص من القهر ، ومن الاحساس بالذل ، ثم

الشعور بأن الانسان قادر على أن يمارس طاقاته ، وأنه مؤمن فى كبريائه وفى مستقبله .. هذا كله هو أول ما تحققه الاشتراكية .

وتقسم انصاف أن الموظف ظل يتكلم وهو يكتب شكواها مقطب الجبين وقد التهب كل وجهه من الغيظ وأخذيتمتم بكلمات عن عزة النفس والحق والعدل والاشتراكية والحرية .. وأشياء كثيرة لم تفهمها .

وحكت له انصاف ما يصنعه المشرف على الجمعية التعاونية وهو الآخر شاب طرب يجىء الى القرية من يوم الى آخر ، وله حسابات عجيبة مع الجرار ، والخلاصة أن الفلاحين المساكين يتحملون الأجر الذى كان يجب أن يدفعه رزق .. وله حسابات غريبة أخرى فى التعامل معأعضاء الجمعية ومع الفلاحين .. ونصحها الموظف ألا تذكر شيئا عن هذا الموظف .. وخشيت انصاف أن يكون المشرف على الجمعيةقريبه .. لماذا كانمتحمسا ضد مشرف الاصلاح حتى ظل يتمتم بكلمات حلوة عن العدل والحق وعزة النفس والكرامة ؟ ولم تفهم ! والمشرف الآخر ؟ .. انه يأكل مال النبى .. وحين سألته لماذا ينصحها بألا تشكو المشرف على الجمعية قال لها ان شكواها غير واضحة .. ربما لأنها ليست من أعضاء الجمعية وربما لأنها لم تتلق هى نفسها مظالمه .. ثم ان الشكوى من المشرفين معا أمر يبدو غريبا لأول نظرة .. ففى مصر آلاف من المشرفين الزراعيين والمشرفين التعاونيين .. ولا يحدث غالبا أن يجتمع فى بلد واحد اثنان معا

يظلمان الفلاحين ويخونان أمانة الوظيفة .. ولكن هذا يحدث فى بلدنا..لا يا ست انصاف هذا دليل على أن بلدكم تتجنى أو أنها بلد لايعجبها العجب .. ولكن هذا هو مايحصل ياحضرة .. ياست انصاف اسمعى كلامى أنا لا أعرف واحدا منهما ولا أحابى المشرف على الجمعية كما تشكين .. لاداعى للشك .. ان بعض الظن اثم يا ست انصاف .. أنا أنصحك لوجه الله ولمصلحة بلدكم ولمصلحة العدالة ياست .. اتهام كل موظفى قطاع الزراعة عندكم يحمل شبهة عدم الجدية .. وانت لاتقولين وقائع محددة .. اسمعى ياست انصاف سأكتب لك فى الشكوى ان هناك شبهات حول موظف الجمعية التعاونية .. وسنحكم الرقابة عليهدون أن يشعر .. فلا تتكلمى انت .. امسكى لسانك وراقبوه انتم فى البلد جيدا ، فاذا أخطأ ، فما عليكم الا أن ترسلوا خطابا للسيد الوزير بقرش كما قال لك .. وسيمسكه المسئولون بهذا الخطأ .. كل ما نرجوه منكم أن تذكروا وقائع محددة .. والا وقعتم أنتم فى خطأ أشد .. وهو التشهير بموظف لم يثبت انحرافه..والتشهير بالادارة فى قطاع الزراعة كله .. أما الوقائع التى تشكون منها ضد المشرف الزراعى ، فسنحققها على الفور .. قبل أن تصلى الى دارك فى البلد سيكون هناك من يتحرى ويحقق معه وسترون النتيجة فورا يا ست انصاف .. بقى موضوع الرجل الذى جاءكم من عندنا وفض الاجتماع وهدد البلد .. فنحن لا نعرف عنه شيئا .. نحن لم نرسله يا ست انصاف ، ولا أظن أن أحدا أرسله

.. على كل حال احترسوا منه وانتظروا وسأكتب ورقة خاصة فيها شكواكم منه .. مع السلامة ياست انصاف .

ولم يكن لانصاف حديث غير مادار بينها وبين الوزير فى مقابلة خاطفة ثم ما دار بينها وبين هذا الموظف الذى أملته شكواها .. ولم تخف اعجابها به حتى لقد داعبها عبد المقصود قائلا :

ــ أوعى يابت ياانصاف يكون عينك منه ..

ــ لا ياخويا العين عليها حارس .. وهى الست انصاف فاضية لكده .. ولا هو اسم الله عليه من بتوع كده .. والا فاكر الست انصاف واحدة من اللى دايرين فى شوارع مصر..دا الموظف يقول اللى مش عاجبكم اكتبوه فى شكوى وابعتوها فى البوستة بقرش صاغ واحد .

ــ الله يلعنك يا انصاف .. أوعى تقولى بقرش صاغ واحد قدام حد ، آه ياهبله .

ولم تفهمه .. ولكنها مضت تحكى عن شوارع القاهرة .. أول مرة ترى فيها الشوارع .. المبانى بهذا الارتفاع كله..أعلى من مئذنة جامع القرية ومسجد الست الطاهرة السيدة زينب ومئذنة السلطان الحنفى .. والمحلات التى تلعلع واجهاتها .. والعربات التى تدير الرأس بحركتها الدائمة فى الشوارع حتى ليدوخ الواحد وهو يعبر الشارع من ناحية الى ناحية .. والنساء البيض .. والبودرة والأحمر فى عز النهار والفساتين القصار .. والرجال المتأنقون المعطرون .. وفى شارع واحد تسمع أكثر من

لغة .. العربية ولغات أخرى يرطن بها رجال ونساء شقر وصفر وسود .. وملابس غريبة من بلاد أبعد من السودان .. ومن بلاد بعيدة .. الهند والسند وبلاد تركب الأفيال ..

ونساء فى مثل سنها ولكنهن مازلن صبايا يقدن سيارات كبيرة .. السيارة بخمسة آلاف جنيه .. كما قالوا لها عندما سألت .. وتضحك انصاف وهى تروى كيف وقفت تستمع الى ثلاث بنات يتكلمن وهن نازلات من عربة تقودها احداهن ، ووقفن أمام واجهة أحد المحلات .. كانت تسمع بضع كلمات عربية منهن ، لكنها كانت تسمع الحروف تدغم وتمط وتتآكل ــ التاء فتحة تا كما أخذت فى دروس محو الأمية ــ تدغم فى الشين كسرة شى .. والطاء فى الجيم .. والدال تنطق بطريقة غريبة..ومضت انصاف تتقصع وهى تروى كيف كان البنات ينطقن هذه الحروف وسألتهن ان كن أولاد عرب..فضحكت واحدة تلبس البنطلون..مقصوفات الرقبة ! وسخرن منها ! .. بنات عرب .. وواحدة منهن اسمها فاطمة هى صاحبة العربة .. أذهلها كل مارأته فى مصر فى زيارتها السريعة التى لم تستغرق غير ساعات من أول النهار حتى العصر.. وبصفة خاصة منظر سيدة تسحب كلبا .. كلبا كالثعلب .. لون الكلاب الكثيرة التى تملأ سكك البلد .. وتضحك انصاف وتخبط كفا على كف وهى تصف منظر سيدة قاهرية أخرى بشعرها المقصوص كالولد وفستانها القصير يكشف مافوق ركبتها ، كقمصان شباب قريتها حينما يغوصون فى الماء يوم ري الأرض ،

كذا .. بلا حياء ، مافوق الركبتين مكشوف ، والوجه فيه الأحمر على الخدود والشفتين ، والعينان مفتوحتان ، تغرسان النظرات فى أى شىء ولا تتكسر الجفون أبدا ، ويدها تمسك بسلسلة تشد كلبا كالعجل .. فان توقف خبطت على وسطه ودللته ، باسم أفرنجى ، وهى والله مصرية ليست من بلاد الافرنج .. ويا ما فى مصر ! .. هذه السيدة .. وذلك الموظف ! .. كم يكلف كلبا مثل هذا .. وماذا يأكل .. وكم ثمنه .. خمسون جنيها يا انصاف .. خمسون على الأقل يا أم سالم ! ايه ؟ خمسون عفريتا يركبها ويركب زوجها !.. مازال فى مصر ناس مثل هؤلاء الناس .. من أين جاءوا بالمال ؟ من مرتب زوجها .. أتدفع المرتبات الكبيرة هنا لتصرفها الزوجات على الكلاب والعربات .. من أين جاءوا بالمال .. الأرض وزعت على الفلاحين .. الباشوات انتهوا .. ماعاد أحد من الرجعيين يملك المال الذى يفيض منه لتصرفه الزوجات على الكلاب وشراء السيارات .. من أين جاءوا بالمال يا عبد المقصود أفندى .. قل لنا يا حضرة الناظر .. اصبرى يا أم سالم .. الرئيس يعمل لتذويب الفوارق بين الطبقات .. الأرستقراطية القديمة صفيت تماما ولم تعد لها قدرة مالية .. ولكن هناك طبقة جديدة .. ألم تسمعى عن شىء اسمه تطلع طبقى ؟ .. بعض الذين حالهم كحالنا وضعتهم ظروف ما فى أماكن يتقاضون فيها مرتبات كبيرة .. أو تركوا يعملون بحرية وأخذوا يكسبون أموالا طائلة .. هؤلاء هم الطبقة الجديدة ! .. والرئيس يعمل يا أم سالم

لتذويب الفوارق بيننا وبين هذه الطبقة .. يا عبد المقصود أفندى انت تقول ان ما فاض عن حاجة المسلم من ماله فهو حرام .. يجب أن يرد الى المسلمين لاصلاح حال الأمة .. أنت تقول هذا فى خطب الجمعة ... أهؤلاء من المسلمين .. أصبر يا ولد يا سالم ! .. كيف أصبر يا عبد المقصود افندى والكلب الذى تحكى عنه أمى يعيش فى المدينة خيرا مما نعيش نحن فى القرية .. أما زال هناك أشياء كهذه .. انه يشرب ماء نظيفا هذا الكلب ! .. وينام فى شقة أو سراى أرضها من البلاط أو الرخام أو الخشب .. وأرضنا هنا من الطين ، وهو يأكل اللحم وخبز القمح ونحن نأكل الذرة .. وهو كلب ، وأنا سالم .. الزير سالم والله يا حضرة الناظر .. أسكت يا ولد يا سالم .. من قال لك ان هذه أوضاع .. ألم تسمع خطابات الرئيس يا ولد ؟.. سمعت يا حضرة الناظر .. سمعنا كثيرا ولكن بعض الناس ما زالوا على الرغم من نداءات الرئيس المستمرة وعلى الرغم من كل القوانين ، وحتى على الرغم من نظام الدولة .. بعض الناس ما زالوا يعيشون وكأنهم ينتمون لبلد آخر ودنيا غير الدنيا التى نعيش فيها ... لماذا يا حضرة الناظر ينفق الواحد منهم مئات الجنيهات كل شهر ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه فى الشهر ، ونحن هنا .. نحن هنا نصنع الحياة بأيدينا ومع ذلك فما زلنا نأكل اللحم مرة فى الأسبوع على الأكثر ونعيش على خبز الذرة ! .. يا سالم احمد الله .. كنت قديما لا تأكل اللحم الا فى مولد

سيدى مسعود وفى الأعياد .. وكنت أحيانا تجهد لتجد خبز الذرة ! .. الحمد لله يا حضرة الناظر .. أين نحن مما كنا فيه ، ولكن ليس هذا هو ما نريد يا حضرة الناظر .. نريد أكثر من هذا .. نريد أن نعيش كما يعيشون فى المدن .. نريد أن نعيش كما يطالب لنا السيد الرئيس ، ومن يعوق وصولنا الى هذا المستوى من الحياة فهو ليس منا ، ويجب أن يؤخذ منه أكثر وأكثر .. أنت يا حضرة الناظر مؤمن بهذا فلماذا تطالبنى بأن أصبر .. أصبر ، ورزق يعلقنى الى جذع نخلة ويضربنى بأقسى مما يضرب خيله .. انه لايستطيع أن يفعل هذا مع حصانه الأدهم!.. رح هناك فى سراى رزق وانظر ماذا يأكلون .. العسل .. يا حضرة الناظر .. الشهد يا عم عبد المقصود ! .. ونحن هنا فى قرية واحدة .. .. انه يسرق أرضى ليأكل بها العسل واللحم انهم هناك أيضا يسرقون شيئا ما ، ليجدوا من المال ما يكفى لاقتناء كلاب .. الكلب بخمسين جنيها وسيارات .. السيارة بخمسة آلاف .. آه ياسالم لو تعلم أن هناك ماهو أهم ! .. ان ابنك يا سالم يستطيع أن يكون رئيسا لابن الذى يقتنى هذا الكلب.. ولو أنك كنت قد تعلمت من الصغر لاستطعت ان تدخل الجامعة ولم يستطع هو .. فنصيبك من العلم لا من المال هو الذى يحدد مصيرك اليوم .. مع ذلك يا سالم فما زال لدينا طريق طويل بلا نهاية لنحقق المساواة التى نحلم بها وليشبع كل انسان حاجته .. لا تتعجل يا ولد .. المهم أن نعمل .. وان نجرى وراء الحق ، وألا

نسكت على ظلم..والمهم أيضا ياولد ألا تقول كلاما كهذا أمام الرجل الغريب الذى جاء من المدينة كى لايحبسك ! .. فلننظر.. ولنعمل..ياسالم اسمع كلام عبد المقصود ، لا لأنه علمك فحسب، ولا لأنه ناظر المدرسة ، ولكنه جرب الكثير ولا تعرف ! أنت لا تعرف يا سالم كيف كنا نعيش منذ عدة أعوام .. قولى له يا أنصاف.. ولكنكم جيل متطلع نشأ مع الثورة .. وهناك آلاف من الأشياء لا تستطيعون أن تقبلوها..مات أبوك يا سالم وانت طفل .. كنت فى الثانية .. منذ خمسة عشر عاما ، قبل هذه الثورة بعامين . لم يأكل اللحم طول عمره غير مرات .. كان من أبرع الفلاحين هنا ومع ذلك فقد عاش سنوات كثيرة بلا عمل .. كان يعمل أياما قليلة فى السنة .. والباقى .. ماذا أقول لك .. فلتقل لك أمك . .. وخدم فى قصر رزق على أواخر أيامه .. كان يزرع الخضر حول القصر .. ومات فجأة بعد أن مرض أسبوعا بلا علاج .. ومزقت أمك ثيابها وشعرها وصبغت وجهها بالسواد .. واختفت عن الناس .. ولكنك كنت تصرخ فى طلب الطعام ، فعادت تظهر للناس .. أرملة صغيرة لم تبلغ العشرين فى قمة جمالها .. وطلب يدها رجال كثيرون ولكنها أقسمت ألا تعيش الا لك فرفضت كل الرجال .. وعضكما الجوع .. وعاد رجال كثيرون يطلبون أمك .. ولكنها رفضت .. كانت ما تزال فاتنة ، أكسبها الحزن الفاجع سرا غامضا فأصبحت أشد فتنة .. ولكنها ظلت ترفض عروض الزواج .. واشتغلت فى بيت العمدة ، لتجد لك

لقمة .. وعندما جاءت الثـورة ووزعت أرض الأمـير كنت فى الرابعة طفلا فى خرقة ممزقة تجره أرملة حسناء مثقلة بالهموم .. وأخذت أمك قطعة من الأرض يا سالم .. فـدانين يا ولـد .. زرعتها أمك وملأت البيت خيرا ، واستغنت عن الخـدمة فى دار العمدة .. وعندما كبرت شاركتها العمل .. فداناك من أجـود الأرض .. ولكنك لغفلتك ، تنازلت عنهما من أيام بعقد دسه عليك المشرف وأخذت بدلا منهمـا فدانين من الأرض السبخ .. كل تعبك هذا العام سيعود الى رزق .. ولن تأخذ شيئا من هذه الارض السبخ .. أتسألنى لماذا يعيش رجال فى القـاهرة كالملوك وأنت هنا دائخ .. أنت مع ذلك ملك بالقياس الى ما كنت فيه .. ولكن هذا الفرق الشاسع بيننا وبينهم يجىء لأن أمثالك يوقعون دون أن يفكروا ويذعنون ! .. أنت ابن جيل نشأ فى الثورة ، فتح عينيه على الغليان فما الذى جعلك تنخدع لرجل لا تثق فيه .. وبعد ذلك تملأ الدنيا صياحا لأن أمك رأت فى القاهرة سيدة تجر كلبا بخمسين جنيها أو امرأة أخرى تقود عربة بخمسة آلاف جنيه أو لأن رزق صلبك الى نخلة ! .. أنت الذى تسلم نفسك لتصلب أيها الفلاح .. يسعك أن ترفض الخديعة .. والصلب .. تعلم من فلاح قديم كعبد العظيم .. أتعرف ما الفرق بينك وبينه .. كان عبد العظيم فى مثل سنك يتحدى القانون والخطر والجيش المحتل .. ولكنك أنت نشأت على أرض حرة .. حررتها لك الثـورة التى صنعها الذين سبقوك .. حررتهـا لك من الانجليز ، ومن

الاقطاع .. وأنت لا تعرف ضراوة الاقطاع يا سـالم .. انك تناضل ضد أعداء أقل ضراوة والقانون معك والحكومة لك ، وكل شىء فى صفك ، ومع ذلك تترك نفسك تنخـدع ، وتترك جسدك يصلب على نخلة ليتلقى سياط الخيل .. خيبة الله عليك يا شيخ ! .. ما كانت أمك فى مثل سنك تقبل هـذا .. من أين جاءكم هذا الخوف يا أبناء هذا الزمن ؟ .. مم تخاف والحكومة معك ؟! .. ما كان الأمير نفسه عندما كان يحكم كل شىء هنا ، يجرؤ على أن يصلب رجالا من نوع عبد العظيم ! .. ومع ذلك فقد كانت الحكومة مع ذلك الأمير .. وكان من الممكن أن ترمى برجال من نوع عبد العظيم الى الطـور أو الى أعمـاق السجن سنوات وسنوات لأنه رفع رأسه فى وجه أمثال الامير ! ..

وبانت الحيرة مختلطة بالنـدم على وجـه سالم الذى ألقى برأسـه بين ذراعيـه وهـو جـالس القرفصاء على الأرض أمام بيت عبد المقصود .. والى جواره وقفت أمه .. وقـد جلسنـا عبد المقصود وعبد العظيم وأنا على دكة مفروشة بالحصير ..وقال عبد العظيم :

— انت يا واد يا سالم قاعد على الأرض كده ليه ؟ .. مالمطرح واسع .. ما تيجى تتلقح جنبنا يا وله .. ما هو طول ما انت قاعد على الأرض كده حايخسفوا بك الارض .. يا واد ارفع راسك يا وله .. يا واد دا الريس بيقول لكم ارفع راسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد ..

وقالت أنصاف لابنها :

ــ قوم يا سالم يا ابنى أقعد جنب عبد العظيم .. ما هى الدكة براح .. وبطل تخاف بقى !

ونهض سالم ببطء .. وقد توترت عضلات وجهه ، وهو ينظر الى أمه مغيظا لأنها اتهمته بالخوف .. وأدار نظراته بهدوء رهيب فى كل شىء حوله ثم قال فجأة :

ــ طيب وأيمان المسلمين لأكون صالب رزق على النخلة وضاربه بعصاية الحمير !

وضحك الجميع .. ولكن عبد المقصود أفهمه أن الأمور لا تعالج هكذا .. والطريق هو أن يلزم رزق حدوده فيحيا آمنا ، وأن يعيد ما اغتصبه عن طريق الخديعة ، وأن يعاقب المشرف ..

ولكن عبد العظيم زعق :

ــ والله طول ما رزق طمعان فى الأرض ما فيه فايدة الا لو زحناه من هنا خالص .. لكن قل لى ايه العمل فى الواد الافندى اللى جه من مصر ده .. اللى احنا ما احنا عارفين اسمه .. قال ايه مندوب الحكومة .. اللى ما عارفين لا اسمه ولا شغله .. واهو نازل حش فى البلد !

وسألت أم سالم عما حدث له وهل قابله عبد العظيم وعبد المقصود .. فلم يجيبا .. ولكن سالم رد عليها :

ــ ما بقى لو يومين فى الجمعية وسى نايب العمدة الواد توفيق أبو حسنين جاب له سرير .. ودایر ورا أبويا الشيخ طلبة علشان

يخلى البت تفيدة تخدمه .. لكن مافيش فايدة .. لا سيدنا راضى ولا البت راضية .. بقى تفيدة تخدم واحد عازب جاى من مصر لا عارفين له أصل ولا فصل ولا حتى اسم ! ما تجوزها لى ياسيدنا بلا صلابة رأى فاضية !

وقالت أنصاف :

ــ أنا لشتكيته زى ماقلت لكم فى الوزارة .. قالوا لى ولا نعرفه من أصله ! .. ولا حد بعته !

ولكن هذا الرجل ، كان قد أخفى اسم الجهة التى أرسلته .. لم يقل الا أنه مندوب الحكومة

وهذا الغموض الذى يحيط به نفسه ، يشيع حوله جوا من الرهبة ويثير فى قلوب الفلاحين شيئا كالخوف . وقد اختلى بتوفيق حسنين طويلا ، منذ ذلك اليوم الذى هبط القرية فيه .. يوم أصدر تعليماته بفض الاجتماع وطالب عبد العظيم وعبد المقصود أن يجيئاه بعد المغرب فى منزل « رزق بك » فلم يسألا عنه ولم يذهب اليه أحد بالطبع .. الا الشيخ طلبة .. ولكنه عامل الشيخ طلبة بغلظة .. وقد رأى الشيخ طلبة أن زوجة « رزق بك » تستقبله بالترحاب ، وقالت له ابنته تفيدة ان هذا الرجل الغريب اسمه اسماعيل ، وأنه ينادى زوجة « رزق بك » بيا « تانت » وأنها تقول له «سمعة» وان « سمعة» هذا هو ابن أخيها .. ولكن الشيخ طلبة لم يصدق .. وشتم ابنته .. فما يعرف هو من قبل أن زوجة « رزق بك » لها أخ

عنـده ولـد يمكـن أن يكـون نائبـا للحـكومة ! غير أن الشيـخ طلبـة عـاد فتـذكر أنه لا يعـرف أيضا ان كانت زوجة رزق بك لها اخوة أم لا ! .. اسماعيل ؟! .. اسماعيل ابن من ؟! وعاد الشيخ طلبة يقول لنفسه « واذكر فى الكتاب اسماعيل » .. ويضحك .. على أن زوجة رزق بك نادت الشيخ طلبة وسمـع بنفسه هذا الزائر الغريب يقول لها يا « تانت » ما معنى « تانت» هذه ؟! .. لقد شتم ابنته حين تقلت له هذه الكلمة وتصور أنهم كانوا يتحدثون عن طنطا فلم تفهم البنت تفيدة .. وسأل هو عن معنى «تانت» فقالت له زوجة «رزق بك» أن « تانت » هذه تعنى عمة أو خالة .. وأن اسماعيل هذا فى مقـام ابن أختهـا أو ابن أخيها .. فأبوه وأمه أولاد خالتها .. وهم يعيشون فى القاهرة.. وقد جاء اسماعيل موفدا من « رزق بك » ليعمـل على تهـدئة الأحوال فى القرية حتى يعود رزق فيجد كل شىء فى حـاله .. وعندما سألها الشيخ طلبة عن وظيفة « سى سمعة » غضب «سمعة» قائلا :

ـ ولا تسـألوا عن أشياء ان تبد لـكم تسؤكم .. وبلاش « سمعة » ياشيخ انت ..

وضحك الشيخ طلبة قائلا :

ـ دا انت بتتكلم بالآية أهه .. طيب يا سيدى ربنا يبـارك فيك يا سى اسماعيـل .. طب يا سيـدى واذكـر فى الـكتاب اسماعيل ..

ولكن الزائر الغريب طلب من الشيخ طلبة الا يذكر اسمـه

لأحد .. واستحلفه على هذا .. سيظل اسمه «نائب الحكومة». وهو كفيل باقرار الأمن فى القرية .. وسيعمل من جانبـه على كفالة كل الحقوق .. وطلب من الشيخ طلبة أيضا الا يذكر لأحد قرابته بزوجة رزق بك واستحلفه على هذا .. وعنـد ما أوشك الشيخ طلبة أن ينصرف سأله الرجل الغريب أن يسمح لابنتـه تفيدة بالعمل عنده فرد الشيخ طلبة مضطربا :

ـ لا لا يا سيدنا البيه .. قلت لك بلاش فى دى .. لو كانت جماعتك هنا ماكانشى فيه مانع .. لكن كده لا .. ثم انت يعنى عاوز ايه ! .. الأكل وبيروح لك من سراية رزق بك. والجمعية والغفر بينضفولك المطرح .. بلاش فى دى .. بلاش السيرةدى تانى

وقالت زوجة رزق بحدة ، وقد اقتنصت نظرات اسماعيـل الى جسد تفيدة :

ـ ما تفكرش تانى فى حاجة زى دى .. عيب !

وغمر وجه اسماعيل خجل مباغت ! .. لأول مرة منذ هبط القرية ؛ يدهمه هذا الخجل ! ..

وخرج الشيخ طلبة مهرولا وهو يجذب يد ابنته .. وعبثا حاولت زوجة « رزق » أن تقنع الشيخ طلبة بترك تفيدة .. ولكنه قال وهو يكاد يجرى هاربا بابنته :

ـ لما البيه نايب الحكومة يروح لحاله أبقى أشيعها لسعادتك .. هو احنا قد نايب الحكومة .. اللهم احفظنا .. اللهم حوالينا ولا علينا .

***

7

أمام منزل رزق ، كان اسماعيل فى الشرفة يتحدث مع توفيق حسنين .. عبد العظيم وعبد المقصود لن يزوراه فى منزل رزق بك .. وطلبهما مرات فما جاءا .. هذا كله سيسقط الهيبة التى فرضها أول يوم جاء ... ما العمل ؟! .. وطلب من توفيق حسنين أن يحكى له ما يعرفه عن عيوب ومآخذ كل من الرجلين ! .. أى شىء يستطيع أن يقوله توفيق .. كان عبد المقصود افندى قديما يحب النساء .. وكان غزلا .. ولكنه منذ عشر سنوات على الأقل صلح حاله واستقام ولم يعد أحد يعرف عنه ما يشينه .. وكل القرية تحترمه .. عبد العظيم ؟ .. عبد العظيم هذا لا شىء عليه .. ولكنه حاد الطبع بعض الشىء .. عنيد أحيانا .. يهاجم ما لا يعجبه .. وعاد اسماعيل يسأل .. ما عيوبهما ؟ .. أليس لواحد منهما فضيحة قديمة .. تهمة لم تثبت .. أى شىء مما يمكن أن يهدد به الآن ؟ .. لا شىء ! .. لا شىء والله .. وضاق اسماعيل بتوفيق حسنين .. انه نائب عمدة خائب .. ولو كان يعرف خيبته لما أعلنه نائبا للعمدة .. يجب أن يبحث عن مخاز لكل واحد من أهل البلد يستطيع أن يهدد بها فى الوقت المناسب والا .. فلن يبقيه نائب عمدة ! . وأقسم توفيق حسنين أن يجتهد .. لا بد أن يجد شيئا لكل واحد من أهل البلد ، وبصفة خاصة

عبد المقصود ناظر المدرسة ، وعبد العظيم .. ولكنه يشعر بقلق لأن منصب نائب العمدة هذا جاءه بلا أوراق .. كل ما فى الأمر أن اسماعيل أعلن أن توفيق هو نائب العمدة .. وسأل توفيق متحمسا :

ـ يعنى ما فيش ورقة كده .. اشارة تليفونيـة .. يعنى حاجة تثبت لأهل البلد انى نائب العمدة .

ـ هو حد اعترض ؟! .. أنا قلت كده خلاص .. ورق ايه واشارة ايه .. أنا ممثل الحكومة كلها هنا وقلت كده !.. انت بتشك فيه ؟ حد هنا فى البلد دى بيشك فى ! ..

وأخذ اسماعيل يفكر فى ضربة مباغتة تأخذ البلد على غرة وتفرض هيبته التى يهددها اهمال عبد العظيم وعبد المقصود له وتجاهلهما أوامره .. وسأل :

ـ مين أقرب الناس لعبد العظيم وعبد المقصود ؟

ـ الواد سالم .. عنده كلامهم كأنه منزل من السما ..

ـ سالم له عيلة فى البلد .. ليه حد يستند عليه يعنى .. له أقارب فى مصر .. يعنى مسنود ؟!

ـ مقطوع من شجرة .. مالوش غير أمه جاته داهية فى امه .. بتروح مصر تقابل الوزرا .. تكونش فاكره انهم حايعملوها وزيرة !..

وصمت اسماعيل صمتا طويلا .. ثم قال :

ـ روح انده لى الواد سالم ..

وذهب هو الى مقره فى المضيفة ، حيث وضعوا له سريرا فى مقر الجمعية التعاونية .

وعندما عاد توفيق بسالم .. كان سالم يزعق :

ــ الله هــو مافيش ملطشة فى البــلد غيرى .. ده دى .. ده على رأى عبد المقصود أفندى أنا فتحت عينى على الثورة دى .. عايزين منى ايه ؟! ..

وسأل اسماعيل :

ــ اسمع يا سالم .. أقعد وقل لى .. أنتم بتتكلموا فى ايه انت والناظر وعبد العظيم

ــ ماتسألهم .. روح جنابك اسألهم .. استناهم لما يرجعوا من لجنة الاتحاد الاشتراكى بتاعة المحافظة وروح اسألهم ..

وأسقط فى يد اسماعيل .. ان سالم يقول له شيئا مذهلا دون أن يشعر ..

ــ هم راحو هناك ؟! .. امتى ؟! وماجتش قلت لى ليه ؟! اى حاجة تسمعها منهم لازم تيجى تقولهــا لى على طول أحسن ما يحصلكش طيب ! .. ان مشيت معايا كويس حاكرمك .. لعبت بديلك انت عارف بقى .. حاوريلك !

وزعق سالم :

ــ يعنى عاوزنى أفتن عليهم ؟ يعنى أشتغل لك جاسوس ؟ حضرتك كده عايزنى أخونهم يعنى ؟.. طب لأ .. مش قايل لك حاجة من أصله .. واللى تقدر تعمله اعمله .. يعنى حاتعمل ايه

فيه ؟ .. حاتصــلبنى على نخلة يعنى ؟ .. دا كان زمان ! .. دا الريس بيقول ارفع رأسك يا أخى !

ــ حاقطع لك رأسك ! ..

ــ يعنى الريس بيقول ارفع رأسك علشان تيجى تقطعها لى ؟.. انت مين انت ؟ .. حكومة مين دى اللى انت نايبها ؟ .. ورينى كده تحقيق الشخصية بتاعك ؟ .. انت بتشتغل ايه ؟ .. فهمنى طب وأيمان المسلمين لاقطع جدرك قبل ماتقطع راسى ..

وانتفض الرجل الغريب وتحرك نحو الباب بسرعة :

ــ يانايب العمدة خدالواد سالم على أودة التليفون .. احبسه فيها ووقف عليــه خفير ببندقيــة .. وخللى اتنين خفر يسدوه ويضربوه .. أنا رايح المحافظة أشوف ازاى ناس فى البلد يروحوا يتصلوا بلجنة الاتحاد الاشتراكى هنــاك بدون اذنى .. أنا هنا مسئول عن البلد وحا اعرف أربى المشاغبين اللى فيها .. خدوا للولد ده على أودة التليفون واوعى يطلع الا لما أرجع .. لاياكل ولا يشرب ولا يروح دورة المية .. وما يخرجش من الأودة لأى سبب .. ولازم ينضرب .. ويبقى يخللى أمه تروح تشتكى للوزير .. أمه دى ماتطلعش من البلد ! .. انصاف دى ماتسيبش البلد أبدا ..

وزعق سالم وهو يحاول أن يتخلص من ذراعى توفيق المحكمتين حول كتفيه :

ــ هو أنا ملطشة .. أنا إبن الثورة دى ! انت مين انت ؟..

أنا فلاح والثورة دى بتاعتى .. تحبسنى انت ازاى من غير جريمة ؟ ..

واعتصم بالحائط تحت صورة الرئيس .. ولكنهم دفعوه الى بعيد .. ومالت الصورة ، فأصلح سالم وضعها وتوفيق يدفعه بعنف ..

وقال سالم وهو ملتفت الى الصورة :

— دا يرضيك ؟

***

وقف توفيق حسنين ممسكا بسالم أمام غرفة التليفون ، وعلى المصطبة أمام الغرفة ، قعد هلالى الخفير ، لايبالى بشىء ، وهو يدير مغزله الصغير بحركة سريعة من اصبعيه ، وابهامه ، ويلف الخيوط الدقيقة حول عود خشب المغزل ، وينسق الصوف الأبيض بعناية بيده الأخرى .. ويخطف نظرات الى وجه سالم مبتسما:

— دى الطاقية بتاعتك ياسالم .. انشاءالله كده على ماتخلص غزل ونسج يكون سيدنا الشيخ طلبة وافق على جوازك بتفيدة بته .. ندرن على ياشيخ والندر أمانة لانسجها لك بنفسى، وانسج لك فيها خيط حرير وألبسها لك ليلة الفرح .. ماتشد حيلك ياواد كده مع سيدنا ! .. هو حيلاقى أحسن منك ! مش بدل مايرميها لواحد يخلفها !

وشعر توفيق حسنين بضيق وحرج .. هذا الخفير هلالى يتجاهله .. انه يتركه واقفا ممسكا بقفا سالم ، ويوجه حديثه الى

سالم .. من سالم هذا المعدم ، بالقياس اليه هو المالك القديم صاحب أحد البيوت الكبيرة فى البلد ووارث الكثير من القطع الذهبية .. وهلالى لايكتفى بهذا .. انه يرفض أن يستلم منه سالم ليضعه فى حجرة التليفون أو يحبسه فى حجرة حفظ سلاح الخفراء ان كانت حجرة التليفون لاتصلح .. ويذهب الخفير هلالى الى آخر المدى حين يوجه كلامه الى سالم ، ويحدثه عن زواجه .. وعن تفيدة بالذات .. تفيدة التى لايخفى على أحد اعجاب توفيق حسنين بها ، وتفكيره أحيانا فى أن يتزوجها على زوجته ! .. ان هلالى يعنيه هو حين يعرض بأن أباها ربما رماها الى واحد يخلفها .. فالشيخ طلبة لايكتم عن أحد أمنيته أن يرى ابنته تفيدة ، مخبأة فى بيت رجل مستور ، ولو كانت زوجة ثانية ! .. وتوفيق يكتم اعجابه بالبنت ويشتمها أمام الناس .

كانت الشمس الغاربة تلقى أشعتها الذهبية على الفضاء امام حجرة التليفون وعلى جدران البيوت الداكنة .. وبعض الاوز يتخايل فى مشيته عائدا الى دوره وهو ينفض بريشه قطرات ماء علقت به بعد أن سبح فى قناة صغيرة أمام البيوت .. وطرقات القرية قد بدأت تستقبل العائدين من الحقول ، بالبهائم وأحمال البرسيم .. وقام الخفير هلالى من على المصطبة بعد أن لف المغزل بخيوطه الدقيقة وقطعة الصوف ، ووضعه فى درج مكتب خشبى قديم ، بحجرة التليفون الضيقة .. وعاد يتأمل وجه توفيق حسنين :

ـ قلت لك لايمكن ياتوفيق يابو حسنين ! .. هى كلمة واحدة مالهاش تانى .. أحبس سالم بتاع ايه ؟! لابد عن أمر حبس ..

ـ ياواد اسمع الكلام .. خده لقحه ولو حتى لحد الصبح .. اسمع الكلام ياوله ..

ـ وله ؟! .. انت بتقول لى ياواد .. هو انت العمدة ؟ .. والا المأمور . ومع كل اللغوة دى مابطلت .. أنا هنا مواطن زيى زيك وزى العمدة والمأمور والمحافظ سوا .. دا انت مش عايش فى الزمان ده ..

ـ أنا باقول لك احبسه أحسن لك ! .. أحبسه أحسن لك ياهلالى ..

ـ انت حاتهتنى ؟ .. أحسن لى يعنى ايه ؟ .. هو أنا كنت عبد المرحوم أبوك .. دا أنا هنا يا أخى خفير .. وفى عمل رسمى .. تقوم تيجى تقول لى ياوله وتهتنى وتعتدى على بالقول والاشارة .. أهو انت بقى اللى تستحق الحبس . طيب خيين عليه ان ماغرت من قدامى لأبلغ ضدك وأحبسك لحد ماييجى حد من المركز يستلمك ..

ـ انحبست الميه فى زورك .. باقول لك خد سالم احبسه لحد الصبح .. أمر حبس ايه يا اخوى اللى بتقول عليه ؟ .. أنا أديك الأمر .. هه .. أنا هنا نايب العمدة .

ـ نايب العمدة ؟ . انت نايب العمدة ياتوفيق يابو حسنين ؟ ..

ومين اللى نزلك نايب عمدة ؟ لاجالنا أمر ولا اشارة من المركز .. قال نايب العمدة .. ياأخى جاتك نايبة ! ..

ـ دهدى .. على كل حال دى أوامر البيه اللى جه من مصر .. البيه ممثل الحكومة !

وضحك هلالى .. واهتز بدن سالم بضحك مكتوم ، وهو يرى الخفير هلالى ، يرفع يديه الى رأسه محييا فى سخرية ، ثم ينحنى ويقوم ، ويده تتردد بين رأسه وجنبه فى حركة عسكرية مبالغ فيها :

ـ سلامات يانايب العمدة .. سلامات ياسعادة البيه ياممثل الحكومة .. طب انجر من قدامى بقى .. ايه ياخويا البلاوى اللى بتطب عالبلد دى من غير ماحد يدرى .. أهى بتنخفى رخره من غير مانحس .. تيجى فى ضلام الليل وتغور فى ضلام الليل .. الهى تنخفى ياتوفيق يا أبو حسنين من البلد زى البلاوى اللى جت قبلك وانخفت !

وشعر توفيق حسنين أن الخفير هلالى ، يعرض بأمه .. هى الأخرى جاءت البلد فجأة ، واختفت فجأة .. ولكم عانى من هذا وهو طفل ، وما برح يعانى ، كلما تذكرها أو شعر بأحد رجال القرية أو نسائها يعرض بها من بعيد .. هلالى هذا بالذات كان يعيره بأمه وهما طفلان معا ..

وفى الحق أن الخفير (هلالى) لم يكن يفكر فى شىء من هذا .. كان يفكر فى رجال جاءوا من المدينة عبر السنوات

الماضية ، ففرضوا على القرية سلطانهم وارهابهم لبعض الوقت ثم نزحوا .. كان القادم الجديد من المدينة الذى يسميه توفيق مثل الحكومة ، يحمل الى القرية ذكرى كريهة من هؤلاء الرجال المتسلطين الذين تخلصت القرية منذ زمن من زياراتهم المباغتة..

وانفجرت ضحكات سالم التى كتمها طويلا ، اذ يد توفيق تنحط بقبضتها الثقيلة على قفاه .. واهتزت عروق رقبته الطويلة النحيلة .. وهو ينظر الى توفيق أمامه يكاد يتزايل ، ثم ينحنى فجأة ، فيضع رأسه فى الأرض والألوان تختلط فى وجهه السمين المتكرش ! ..

ولم يعرف توفيق ماذا يقول .. وفكر أن يهجم على هلالى فيضربه .. ولكنه وجده أمامه فارعا مفتولا .. وكأنه يراه لأول مرة .. لوجهه الأسمر هيبة خاصة .. وجه فلاح هادىء يحمل سخرية صامتة ، بعينين ضيقتين مشعتين ، وفم مطبق على شىء كالاصرار ، وشارب كثيف مهوش مبروم الطرفين .. ولا شىء بعد فى وجهه يوحى بأنه قتل ذئبا بيديه .. بلا سلاح ! .. هاجمه الذئب وهو يروى أرضه ذات ليلة . ذئب شرس كانت الكلاب تخشاه ولا تجسر عليه .. فاستدار هلالى ، وأمسك بفكى الذئب .. كل فك بيد ، وظل يباعد مابين الفكين ، فى لحظات خاطفة ، تجمع لديه فيها كل ماتمنحه غريزة البقاء من قوة .. وبعد دقائق كالدهر انصبت فى ذراعيه خلالها كل قوة الحياة أمام الخطر الأصم .. استطاع أن يفسخ فكى الذئب .. فهوى جثة تعوى..

وتركه يموت ، وراح هو يزعق فى القرية أنه قتل الذئب . فقامت القرية كلها تشاهد بطولته .. ومنذ ذلك اليوم أسموه (أبو زيد الهلالى سلامة) .. بل ان بعض الصغار قالوا عنه أنه أقوى فالبطل القديم كان يقتل الاسود بالسهام .. أما أبو زيد الهلالى الجديد فهو يقتل الوحش بيديه ! ..

أمن أجل هذا تهزأ بتوفيق حسنين !؟ .. ولكن لك يوم !

ومضى توفيق حسنين الى داره منكس الرأس وفى أعماقه الحمى .. لك يوم يا أبو زيد الهلالى سلامة .. انت قتلت الذئب بيديك ، وأصبحت تفخر على أهل البلد بهذا .. ولكنى سأعرف كيف أؤدبك .. سيضربك بنعله من لاتجرؤ على رفع رأسك أمامه .. وسأقتنصك يوما فى لعب العصا ، فى أى فرح قريب فى البلد .. لست خير لاعب عصا فى البلد ولكن الناس تهابك .. مع ذلك فكم من مرة شهدتك تلعب ورأسك مكشوف لخصمك .. فيبادلك هو أيضا الاشارة ولا يضربك وأحيانا يجاملك فلا يشير الى ماكشفته من جسدك يا أخيب لاعب عصا .. ولكنى لن أنبهك .. سألاعبك بأصول اللعبة وأعرف كيف أؤدبك .. فى أقرب فرح .. ربما كان فرح تفيدة .. مالك أنت بتفيدة وسالم .. أتزوج تفيدة لسالم ، هذا المعدم ، وتترك البيت الملىء بالخير .. ستكون تفيدة لى .. مع ذلك فلترح فى داهية انت وهى وسالم وسيدنا .. كلكم .. أعطوها لسالم ان شئتم .. وسأضربك فى فرحها .. هو أيضا يسمى نفسه الزير سالم .. بطل كبير من

التاريخ .. هذا السقيم الأصفر الذى كانت رقبته فى يدى كرقبة كتكوت لو شددت عليها لانكسرت !.. أيصبح هذا الولد ابن السبعة عشر عاما فى يوم من الأيام مثل هلالى يقتل ذئبا بيديه ، ويخافه الناس ويحسبون حسابه فى لعب العصا .. كنا أطفالا معا ياهلالى وما كنت تجرؤ على أن تكلمنى .. وعندما كنت أخرج من بيتى عصر كل يوم بجلباب نظيف ، والكولونيا على رأسى . وفى يدى الفطير الساخن والحلاوة الطحينية أو السكر كنت تنظر الى مثل كلب جائع .. ما أعطيتك أبدا من فطيرى .. ولكنك مرة بكيت وتوسلت الى أن أذيقك هذا الفطير المعجون باللبن ، أو الحلاوة الطحينية ، أو السكر .. وحين عطفت عليك وأعطيتك لقمة ، طمعت وطلبت أخرى .. ماكان هذا ممكنا فما خبزوه لك ! .. وتركتك تلحس قطعة السكر والحلاوة .. وبدلا من أن تشكرنى شتمتنى وقلت لى اننى بخيل كأبى ! .. طول عمرك جاحد ! وضربتك يومها ، فلم ترفع يدك .. كان حجمى ضعف حجمك وكنت هزيلا ممزق الثوب كالح الخلقة .. وظللت أضربك فى كل مرة خالفتنى فيها ونحن فى المدرسة .. وكنت تعرض بأمى أحيانا ولكنى كنت أعجنك من الضرب .

وفجأة عندما خشنت أصواتنا أمرتك أن تصنع لى كرة من خرق قديمة لنلعب الحكشة .. كنت تتقن دك الخرق فى الكرة .. ولكنك رفضت وطلبت منى ألا آمرك بهذه اللهجة .. فصفعتك .. ولكنك هجمت على بغتة وأوقعتنى فى الأرض ولم أستطع

مقاومتك .. لا أعرف كيف حدث هذا .. وشعرت بذراعيك أقوى من ذراعى وبضرباتك قاسية شرسة لا رحمة فيها .. وخنقتنى حتى تركت أصابعك علاماتها فى رقبتى .. مازلت أشعر بمس أصابعك المعروقة كأنها قضبان رفيعة من حديد لايقاوم ، تلتف حول رقبتى ، وتخنقنى .. الآن أيضا أشعر بهذا الاختناق .. لم أحاول أن أضربك بعدها أبدا ولكنى سأضربك يوما ما .. وأعرف كيف أؤدبك .. موعدنا أقرب فرح أيها الفلاح ! .. كل فلاح فى البلد يكرهنى لأنى ورثت عن أبى أجود أرض ، وبيتا من أكبر البيوت ، وبعض قطع من الذهب .. لو لم يخافوك ياتوفيق حسنين لأكلوك .. لونهم الأسمر ، وهزالهم ، وجلاليبهم الرخيصة ، كل هذا جعلهم يضيقون بك ..! ببياضك الذى يكشف أصلك العالى العريق ، وسمنتك التى تدل على غناك وبرك لنفسك ، وثيابك الفاخرة وهى من فضل الله .. وأنت فوق هذا جليس البيه رزق!

كل فلاح هنا يتمنى لو اقتلعك من جذرك ، ولكنك ستعرف كيف تؤدبهم !.. من أكبر فلاح فيهم ؟ .. عبد العظيم .. لالا .. مالنا ولعبد العظيم !.. هلالى .. سأعرف كيف أؤدبه ، وسيكون تأديبه أوقع .. وأردع للبلد الجاحد الحاسد .. حتى تفيدة يحسدونك عليها .. لا أحد يريد أن يراها زوجة لك .. مع ذلك فأبوها يتمنى اشارة .. البنت حلوة كبطة سمينة ، كأوزة محمرة بالسمن البلدى ، ولكن

الملعونة زائغة العينين ! •• هى تحترمك ولا شك••ولكن نظراتها أحيانا تحمل معنى التوسل أن أتركها فى حالها •• توسل يخالطه شىء كريه كالاشمئزاز •• تماما كنظرات سالم وهو فى قبضتى•• لكننى أمسكته من قفاه لأدير نظراته عنى وليكون عبرة لمن لا يطيع كلام البك ممثل الحكومة •

اتصالك بهذا البيه اسماعيل يمنحك هيبة خاصة •• لا تقل عنه اسماعيل حتى فى سرك كيلا تخطىء أمام الناس••اسمه ممثل الحكومة •• لعنة الله عليه ! •• عينه من البنت تفيدة ! •• ماذا يحسبنى •• كبش ؟! •• ربما !

سأذهب اليه الآن فربما كان قد عاد من المحافظة •• لا •• انه قال لى انه سيبيت هناك ، وانه ربما سافر الى القاهرة •• عندما يعود سأقول له ان الخفير هلالى رفض أوامره •• ولكن هـذا يظهرنى أمامه بلا كلمة فى البلد •• أأعترف أمام ممثل الحكومة أن خفيرا مثل هلالى لايسمع كلامى أو لايمتثل لاشـارة من طرف أصبعى ؟ ••

لا •• لا •• هلالى له يوم ، سأؤدبه بطريقة أخرى ، ولنقل لممثل الحكومة ان سالم حبس تنفيذا لأوامره وأوامرى بوصفى نائب عمدة ، حتى أخرجه حضرة الناظر عبدالمقصود وعبدالعظيم•• ممثل الحكومة يعلم أنهما يتحديان أوامره ، وانها بلد بلا عمدة ، ولا نائب عمدة ••• وحتى نقطة الشرطة تركتها من مدة الى القرية

التى يوجد بها مكتب المشرف وقصر الأمير السـابق . ومكتب البريد والتليفون ، وكل ما يصل الفلاحين بالمدينة ••

وانطلق سالم الى أمه •• وفى الطريق لقى الشيخ طلبة وابنته تفيدة ، فاستوقفه الشيخ طلبة فى غضب :

ــ انت داير تبرطع فى السكة كده ليه ياوله•• أمال بيقولوا ان البيه ممثل الحكومة أمر بحبسك •• وأنا شـايفك داير زى الرهوان السايب اللى من غير لجام •

ــ حبس ايه ياسيدنا •• هو أنا عملت جناية •• وهو له أمر عليه ؟ حد له انه يحبس حد من غير جريمة ؟ •• ازيك ياسيدنا ، سلامات ياتفيدة ! ••

ــ اخرس •• مالك ومال تفيدة ؟ انجر على غيطك والا على دارك ••

ولكنه توقف وعيناه على تفيدة •• كان وجهها يتضرج من الحياء ، وفى عينيها يتراقص بريق فرح •• وكانت نظراتها تشى بسعادتها الغامرة لأنها وجـدت سالم أمامهـا حرا •• وليس فى الحبس ! •• وأوشكت أن تزغرد ، ولكنها كتمت صوتها قبل أن ينطلق •• وأضـاء وجهها كله •• وجه أسمر صاف . يبتسم للحياة ويحلم ••

وظلت عينا سالم تنظران اليها بأمل وشغف •• الى جسدها البديع الممتلىء المستريح ، والى عينيها •• وتكسرت نظراتها حين

التقت بنظراته ، وحولت عينيها الى الأفق البعيد الذى صبغه المساء بألوانه الذهبية والزرقاء .. والنخيل وأشجار التوت تبدو فى الأفق أمام عينيها كأنها أشجار سحرية فى عالم عجيب غامض ..

وتنهدت دون أن تشعر ، وقد كسا الأصيل وجهها وشعرها بألوانه وبغموض مثير .. وزعق سالم بغتة :

— ازيك ياتفيدة .. سلامات كده !

وكان الشيخ طلبة قد تقدم خطوات وهو يحسب أن سالم قد انصرف وان ابنته الى جواره ، واذ رآها مازالت تقف وأمامها سالم رجع غاضبا :

— انت لسه واقفه ؟ .. انت حاتفتح لى محدت مع البت .. ايه اللى سلامات كده .. الله لايسلمك .

وانقض عليه بعصاه فلسعه على كتفيه .. وجرى سالم ضاحكا :

— ياسلام ياسيدنا .. دهدى .. هو أنا خلاص بقيت الملطشة ، بقيت الهفية .. مقبولة منك انت بس ! طب اضرب كمان .. بس نولنى المرام ، نولنى اللى عليه القصد والنية .. اللى عليه العين بتدور .. دا أنا الزير سالم ياسيدنا الشيخ طلبة .. وراكب فدانين فى أحسنها أرض ، نولنى المرام بقى .

وجرى يتراقص على تكسر ضحكاته وتفيدة تخفى فمها بكفها وهى تتابعه نصف مغمضة بنظرات متلصصة وتهمس لنفسها :

— اخص عليك ياسالم .. كده تكسفنى قدام أبويا ؟! ..

واندفع الشيخ طلبة متأففا وهو يهمهم :

— أنوله المرام قال .. جاتك رمية ماتقوم منها ..

فقالت تفيدة بذعر :

— حرام يابا .

ورفع عليها الشيخ طلبة عصاه مهددا :

— اخرسى يا بت .. حرمت عليك عيشتك .

— حاضر يابا .

وتابع سيره ثم توقف فجأة وطلب منها أن تذهب الى عبد العظيم .. ولكنه تذكر أن الطريق الى دار عبد العظيم يمر بدار سالم ، فعدل .. وقال لها :

— نادى لى حضرة الناظر عبد المقصود أفندى أحسن نشوف ايه اللى عملوه فى المحافظة .. والا أقول لك بلاش يابت .. ان كانوا رجعوا آهم حاييجوا على صلاة العشا فى الجامع .. ولو انهم ساعات ما يهوبوش ناحية الجامع الا فى صلاة الجمعة .. وياريت كل جمعة .. الواد عبد العظيم دا كان زمان يخاصم

الجامع بالشهر والاتنين وما يجيش الا فى الاعياد .. دلوقت بيصلى الجمعة بس علشان يسمع خطبة عبد المقصود أفندى .. استنى يابت .. لاتروحى لا هنا ولا هنا انجرى قدامى .. وأهو الصباح رباح .. هم يعنى حايعملوا ايه فى المحافظة .. حايجيبوا راس كليب ؟! ياخواتى غابوا ليه كده ؟! .. خير يارب خير .. يكونوش حطوا فى أيديهم الحديد .. لكن ليه بقى .. القصد .. الدنيا الواحد لا عارف لها أول من آخر .. والبلد حا تنخبص فى بعضها .. وآخر المواخر المنجوس سالم جاى يقول عينى عينك قدام البت نولنى اللى عليه القصد والنية .. وقال راكب فدانين فى أحسنها أرض .. ركبك فرخين من فروخ الجان ويكونوا عصاة من الذين كفروا بسيدنا سليمان .. فدانين فى أحسنها أرض قال .. ماخدهم منك البيه رزق ياخايب والمشرف مضاك على غيرهم وعامل لى بتقرا ، وعامل لى الزير سالم ؟! فالح بس تقول له ياسى رزق .. طب قول يابيه وحافظ على أرضك .. عقل عيال ! ..

— هى حكاية المشرف حاتنتهى على كده يابا ؟.. خلاص خدوا الفدانين بتوع .. يعنى .. بتوع خالتى أم سالم وحايدوهم فى الأرض السبخ ؟!

— انتى مالك يابت .. أوعى تانى مرة تجيبى لى سيرة سالم

والا تحشرى نفسك فى سيرته .

— أنا باقول يعنى على اللى بيعمله المشرف مع أهل بلدنا الغلابة ..

— وانت مالك ؟ الله .. واحنا مالنا .. احنا لا لنا أرض ولا لنا مصلحة بالحاجات دى ، ولا بنزرع ولا بنقلع .. احنا ما لنا ؟ .. غيرشى بس الواحد ماشى فى الصلح بين أهل البلد .. وأصلحوا بين أخويكم ..

— ماهو مسيرنا نزرع يابا .. ماهو برضه ..

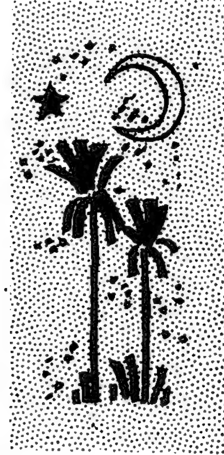
وشعر أبوها أنها تشير الى أن مصيرها أن تتزوج بفلاح .. ربما كانت تعنى سالم بالذات ، فأمرها غاضبا أن تخرس .. وأحست هى أنها أخطأت .. جرت مع أحلامها دون أن تشعر فتوقفت عن الكلام .. وهز يديه غاضبا وهو يتمتم :

— الدنيا خسرت .. حتى البنات بيناقروا أبهاتهم وناقص يكلسوهم فى الجواز .. أمال لو رحتى محو الامية بقى دا أنا مش حاقدر عليكى .. تيجى تقولى لى بقى انك عاوزه تتجوزى هباب الطين

— صلى عالنبى يا با

وانطلقا ، وهى تدارى خجلها ، وتحلم .. وأبوها الشيـخ طلبة يلعن الزمن !..

وسرت من ناحية الحقول نسمـات باردة ، فتلفع الشيـخ بشاله جيدا ، وأحكمه حول رقبته . وأحسن لف العبـاءة حول جسمه المهزول ، وابنته الى جواره ، تشمخ برأسها وتستنشق الهواء بعمق وتفتح صدرها المليء ، لليل والانسام ..



8

ارتعد الشيخ طلبة وهو يسرع نحو داره :

ـ ياللا يا بت يا تفيدة ياللا .. احمى لنا القاعة احمى

ـ مافيش حطب كفاية للحمية

ـ طب شوفى لنا شوية قوالح عند عبد المقصود أفندى كده وتعالى ولعى المنقد .. أنا عارف برد ايه ده ؟ .. ولسه طوبة فى الأول .. أمال بقى لما نغوط شوية ..

ـ حاروح لوحدى لحضرة الناظر والليل دخل ؟ ..

ـ ما الناس لسـه راجعة بالبهـايم أهه .. انجرى اخطفى عودين قطن والا شوية قوالح من هنا والا من هنا .. أهى دار حضرة الناظر قريبة .. ياللا بالعجل ، أوعى تبصى كده والا كده والا تكلمى حد والا حد يكلمك فى ساعة مغربية زى دى .. حاكم الشياطين تبتدى تطلع من دلوقت وتجرجر بنى آدم لمعصية الله.. استنى يا بت .. داهية تقطع دى عيشة .. غورى بقى بسرعة .. سلام قولا من رب رحيم .

وعندما ابتعدت فى الطريق الى بيت عبد المقصود ، كان سالم يقف مع بعض شباب القرية أمام حلاق القرية يضحك ويحكى لهم ماجرى له مع الزائر الغريب ، ثم ماحدث بين توفيـق حسـنين والخفير هلالى ، وحين رآى تفيدة تمر .. سكت لحظة ، ورمقها

بنظرة سريعة .. ثم رفع صوته متحديا انه يراهن من يشاء على كف حلاوة سمسمية انه يستطيع أن يقطع عودين من القصب بضربة واحدة بحد كفه .. ولاحظ ابتسامة تفيدة ، وهى تستدير برأسها الى الاتجاه المقابل ونظراتها تتدحرج اليه .. وشاهدها الحلاق فقال ضاحكا :

ــ قد القول ياسالم .. بس ياريتك بقى تقطع عرق وتسيح دم مع سيدنا ..

وأسرعت تفيدة تدارى خجلها .. ولكن سالم استوقفها وسألها عن وجهتها .. واذ قالت له الى أين هى ذاهبة صاح بأريحية :

ــ وليه تروحى لحضرة الناظر ؟ .. الله .. ارجعى انت .. الدنيا ليلت ! وأنا أجيب لك القوالح اللى فى دارنا كلها .. ادخلى هنا دار الاسطى على مارجع لك بالقوالح والا بالحطب .. ادخلى يابت دا جماعته زى أمك ، وبنته الكبيرة مضاهياك فى السن ولو انها متجوزة بقى لها شهرين تلاتة .

وقال الحلاق ضاحكا :

ــ عقبال الحبايب يا سيدى .. وحنة العريس عليه .

وعاد سالم يحمل تحت يده مقطفا مليئا بالقوالح وفى اليد الأخرى حزمة كبيرة من أعواد القطن الجافة ونظرت اليه تفيدة بشكر عميق . كانت تعرف أية تضحية قدمها سالم . ربما كان هذا هو كل مافى دارهم حقا . وحملت المقطف الصغير على رأسها والحزمة فى يدها ومشت تحت ظلال الليل وهو يرقبها تخطر خطوة

بعد خطوة ، لدنة ريانة .. حتى اختفت فى دارها .. فقال لنفسه :

ــ مافيهاش عضم .. حتى العضم اللى فيها قراقيش !

ثم زعق وهو يرى الليل يجثم :

ــ ماتولعوا الفوانيس بقى ..

وضحك الحلاق قائلا :

ــ أيوه ياسيدى ماهو البدر غاب ودخل دارهم .. امتى بقى يدخل داركم ..

ومضى سالم يوقد الفانوس أمام دكان الحلاق متطوعا فى نشاط وخفة .. وصاح الحلاق :

ــ كل واحد يولع الفانوس اللى قدام دارهم ..

ــ والله ياشيخ لا ولع أنا فوانيس البلد كلها ..

وسرت فيه خفة ، وشعر برغبة جارفة فى أن يعانق كل الناس .. وان يصنع خيرا كثيرا ، وأن يسعد كل أهل البلد ، وان يمشى على الهواء .. مازالت أمام عينيه نظرة غريبة شاكرة حانية من عينى تفيدة ، تضىء وجهها الذى سطع بالسعادة فجأة عندما قدم اليها أول هدية ! .. هذه الأشياء التى ستصنع الدفء فى البيت ! ..

وشيعه الحلاق وهو يبتعد :

ــ والله زمانكم منور يا سالم يا ابنى .. على أيامنا كانت البلد تضلم من المغرب .. عمرها ما نور فى شوارعها فانوس الا فى ليالى رمضان .. الله ينور عليكم وعلى اللى نور زمانكم ..

ودخل الحلاق داره ، الذى يستعمل أول حجرة منها دكانا للحلاقة طالبا لمن حوله أن يرجعوا الى دورهم الساعة ، فالليلة

شديدة البرد .. وهو غـير معتـدل المزاج لأن حضرة النـاظر وعبد العظيم لم يعودا بعد ! ..

ماذا جرى لهما ؟ .. آخر عربة تقوم من المحافظة الى القاهرة وتمر على البلد ، مرت من قبل المغرب .. ولم يأت بها عبد العظيم ولا عبد المقصود .

أيبيتان هناك ؟ .. ولكن هذا لم يحـدث أبدا .. ربما لم يستطيعا أن يقابلا أحدا فى لجنة الاتحاد بالمحافظة فبقيا حتى الليل ليتم هذا اللقاء .. كيف يعودان فى هذا الليل الذى يرتعـد من البرد ؟ ..

الرجال الذين يغيبون هكذا فى عاصمة الاقليم ولايعودون فى اليوم نفسه يبيتون غالبا فى السجن ! .. هكذا تعلمت القرية! .. ولكن هذا زمن انتهى .. زمن انتهى ؟ ومع ذلك فرزق استطاع أن يصلب سالم المسكين الى النخلة ويضربه بسياط الخيل ! .. ثم ما هذا الرجل الغريب الذى يتهجم على كـل شىء ، ويفض الاجتماع بغطرسة ويطلب (تفيدة) أجمل وأطهر فتيـات القرية لتخدمه ! .. يا ترى من هو هذا الغريب الذى جاء يقول انه ممثل الحكومة ، ولم يبق عليه الا أن يقول أنا ربكم الأعلى ؟! ..

كان مثل هذا الرجل يجىء فى زمن فات وانقضى .. ولكنه جاء منذ أيام ، يحمل نفس الصلف ، وقدرا أكبر من الجرأة على الناس ..

ما الحكاية ؟! ..

فى غياب عبد المقصود وعبـد العظيم سر كبير .. وامتلأت القرية بالهمسات .. والشبان الذين كانوا يقفون أمام بيت الحلاق لايتحركون وكل واحد منهم يقـول رأيا فى غيـاب الرجلين .. لا أمان لاثنين من الفلاحين فى البندر ! .. ولكنهما فى لجنة الاتحاد الاشتراكى ! .. ولو ! .. من يدرى ؟ .. ربما أخـذهما بعض الرجال الذين ألفوا أن يأخذوا الفلاحين فى زمن فات وانقضى! .. هذا مستحيل .. الحكومة حكومتنـا والـكلمة كلمتنـا فمن يجرؤ ؟!

مع ذلك فرزق صلب سالم .. وممثل الحكومة أمر بحبس سالم !.. وفى المحافظة ضابط كبير صديق لرزق ! .. والرجل الغريب الذى يقول انه ممثـل الحـكومة لحق بحضرة النـاظر وعبد العظيم فى المحافظة ! .. وحضرة النـاظر عاقل وحكيم .. ولكن ماقيمة الحكمة والعقل وقد أمكن أن يصـلب سالم لأنه اعترض على تزوير المشرف .. ولأنه لم يقل لرزق ياسعادة البيه؟! اللقب الذى ألغته الثورة ؟!

ثم ان عبد العظيم ليس حكيما وربما اصطدم بهذا الضابط صديق رزق ! .. ولكن الناظر وعبد العظيم فى حماية الاتحـاد الاشتراكى بالمحافظة .. ولكن ماذا لو قابلا عضوا من الاتحـاد الاشتراكى مثل رزق ؟!.. فى لجنة المحافظة عدد مثله ، وعدد من أصدقائه .. بعضهم يملك عشرين فدانا أو ربما عشرة .. ولكنه يصلب فى أرضه رجالا مثل سالم ، ويضربهم بسياط الخيل ! الى

من ينحاز هؤلاء الناس : أإلى الناظر وعبد العظيم ؟ أم الى رزق؟ ثم هذا الرجل الغريب القادم من القاهرة باسم ممثل الحكومة ؟! وبعد ، ما العمل ؟

برقية سريعة الى الرئيس جمال عبد الناصر .. ولكن ليس بالقرية مكتب بريد ! .. مكتب البريد فى القرية التى بها نقطة الشرطة وقصر الأمير السابق ، والمشرف الزراعى .. ربما رفض الموظف البرقية ؟ .. لا .. ربما استلمها ولعب فيها ! قد يكون صديقا للمشرف أو للرجل الغريب القادم من المدينة ! .. نروح كلنا ونراقبه .. لكن من يكتب لنا البرقية ؟.. أبعد فصول محو الأمية لانكتب حتى برقية ! .. بل نكتب أحسن برقية .. هاتوا لنا أحد تلاميذ المدرسة الثانوية ممن لايبيتون فى عاصمة الاقليم .. ابعدوا عن الطالب الذى كان يسمع مباراة الكرة أثناء الاجتماع .. لا والله انه ابن حلال ، وهو يكتب كلاما طيبا .. وحكاية الكرة هذه مالها وللبرقية .. اجمعوا بعضكم .. هاتوا الركائب ، يكفى ثلاثة أو أربعة .. لاداعى للتلاميذ .. دعوهم فى مذاكرتهم ، هاتوا حمار الحلاق .. وجحشة الشيخ طلبة .. ابعدوا عن الشيخ طلبة .. وحمارين آخرين .. شدوا البرادع اسرعوا ، فلنكتب البرقية هناك .. اسرعوا قبل أن يغلق مكتب البريد أبوابه .. السرعة .. نحن فى سباق مع الزمن .. صحيح ، فى كل شىء ، نحن فى سباق مع الزمن ..

ـ يا أسطى .. افتح .

ـ روح بقى انت وهوه أنا قفلت خلاص .. بكره الصبح آخد الكام قفا ! .. هأ .. هاى !

قفا ؟ .. لعنة الله عليك .. تقول على الرجل منا قفا .. حقيقة انت تعليم بندر .. ان كنت ترى الرجل منا قفا فلماذا عدت من مصر تأكل العيش هنا فى دكان أبيك .. الله يرحمه !

كان خيرا أن تأكل العيش فى مصر من أى قفا هناك .. انت كبرت هنا وتزوجت وبنتك تزوجت من فلاح وما زلت تقول كلاما كهذا ..

ـ اصح .. افتح .. هات حمارك .

ـ أنا قفلت خلاص .

ـ يعنى دكتور وقفل عيادته ياخى .. هات حمارك وشد عليه العدة . وتعالى بنا على مكتب البريد نشد تلغراف للريس .. الجماعة فى المحافظة اتأخروا .. عاوزين نشوف آخرتها ايه مع ممثل الحكومة ده .. تلاقيه وز عليهم الضابط صاحب رزق حطهم فى السجن ..

ـ لك حق ياجدع .. أنا جاى بنفسى .. وبالحمار كمان .. هأهاى ..

ومر هلالى بهم ، والبندقية على كتفه ، فقد بدأت نوبة الحراسة واذ علم منهم الى أين يمضون انضم اليهم قائلا :

ـ أنا جاى معاكم .. حاتمشوا لوحدكم فى الليل الاضلم ده .. أحسن ديب يطلع عليكم والا حد من رجالة البيه والاحاجة

.. ياللا .. حانحرس ايه فى البلد .. البلد ما هى حارسة بعضها منها فيها ، الهم المصايب المحدوفة عليها من بره .. الحاجات الغريبة اللى بنشوفها دى ! ..

وتحرك فى لحظات موكب كبير انضم اليه سالم والخفير هلالى والحلاق ، وشيعتهم زغرودة من انصاف.. جاوبتها زغاريد نساء أخريات وأصوات ضارعة من النساء تتعالى :

— روحوا منصورين باذن واحد أحد ..

ومضت الركائب تخوض بهم الليل على الطريق الزراعى الى القرية المجاورة حيث مكتب البريد .. وندى الليل يهبط على حقول القمح والبرسيم والفول والشعير ، والنجوم فى السماء الداكنة ترسل أشعة فضية باهتة وتلف الليل والحقول والهواء بغلاله مرتعشة من الزرقة الرائقة يومض تحتها الندى فوق أوراق النبات الخضراء .. وكلاب القرية تنبح وتجرى وراء الرجال ، وتصطدم بأرجل أطفال عديدين ساروا وراء الركائب .. وعبثا حاول الرجال أن يرجعوا الصغار .. كانوا مشدودين ، يدعكون عيونهم التى يغزوها النعاس ، وقد ملأتهم الحركة ونسمات الليل والرغبة فى استطلاع هذه المسيرة ، بنشاط عجيب .

وأخذ الفلاحون يناقشون ماذا يكتبون .. سيشكون من القبض على الناظر وعبد العظيم .. ولكن من يدرى أن هذا حدث لهما ؟ .. سيشكون غيابهما ؟ .. لا .. هذا لايوجه الى الرئيس .. يكفى فيه ابلاغ ضابط النقطة ! .. ومن يدرينا الى أين يميل

ضابط النقطة ومع من هو ؟! مع رزق الوجيه الأنيق الذى يحسن الكلام ؟ أم مع أى فلاح ؟ ..

انهم ماتحركوا ليشكوا لضابط النقطة ، بل لكتابة برقية للرئيس .. سيشكون هذا الرجل الغريب القادم من القاهرة يفض الاجتماع وينهى ويأمر باسم الحكومة.. لاتنسوا انه أمر بالقبض على سالم بلا جريمة .. وهذه جريمة ! لاتنسوا انه ضغط على الشيخ طلبة ليأخذ ابنته ..

ورزق .. رزق بيه يا أهل البلد لابد من أن نكتب اسمه فى البرقية ، انه أمين لجنة الاتحاد ، ورئيس الجمعية التعاونية.. فلمن يشكونه ؟ الى من ؟ ..

ونكتب فى المشرف ! .. لا لا .. أم سالم شكته للوزير المختص ، فلننتظر النتيجة .. كلها أيام قليلة وتظهر نتيجة الشكوى ..

وارتفع صوت مفاجىء .

— ايه رأيكم نشتكى الرجل الغريب ده لوزير الداخلية قبل مانشتكيه للرئيس ..

فرد آخر :

— لا .. دا احنا نشتكيه لوزير الاصلاح .

وقال ثالث :

— نشتكى لده وده .

وصاح هلالى بحسم :

— بس بلاش كلام فاضى .. ايه الكلام الخايب ده ،دهدى!.. احنا حانوقع الوزر فى بعض !

وزعق سالم ضاحكا :

— انت لسه بتقول عليهم وزر ياعم هلالى .. اسمهم وزرا .. أو وزراء ..

— طيب ياسالم ولا تزعل .. ماحاكم أمك بقت تقابلهم ! .. ياسيدى على رأى حضرة الناظر حاقول عليهم وزراؤو ..

ومد همزة الكلمة ضاحكا .. وارتفعت الضحكات ..

وتعالت أصوات أخرى :

— احنا حانشد تلغراف لجمال عبد الناصروبس .. مالناش غيره وبس .. نشتكى له من الجدع اللى جاى من مصر ده بيدعى انه ممثل الحكومة ومن المشرف كمان ومن موظف الجمعية التعاونية ، ونطلب التحقيق مستعجل .. ونقول كمان على غياب الناظر وعبد العظيم .. الله .. مايمكن اتخطفوا .. حد عارف.. يمكن حبسوهم .. نقول له على كل حاجة ، احنا لنا غيره بعد الله سبحانه وتعالى ..؟

وردت أصوات مختلطة :

— دا حايبقى كلام كتير قوى ده .. هو التلغرافات دى بلاش ؟ .. حانجيب فلوس منين للكلام ده كله .. احنا حانقول كلمة واحدة مظلومين الحقونا ..

— لا .. نقول أغيثونا .. ادركونا .. أمال اتعلمتم ايه فى فصول محو الأمية ..

— هو غنا فى مولد يا جدع ؟ اغيثونا ادركونا .. ايه ؟ حانقول مظلومين الحقونا وبس ، والريس حايعرف شغله بقى .. وبكره البلد تشوف النتيجة .

— طيب وايه رأيكم لو حد منا راح الاتحاد الاشتراكى فى مصر وشكا لهم بالتفصيل ..

— ما نبعت جوابات نقول فيها التفاصيل كلها .. للرئيس جمال وللاتحاد الاشتراكى فى مصر .

— بس داوقت نشد التلغراف الأول .. لازم نقول برضة على كل حاجة ..

وعندما وصلوا مكتب البريد ، أصلح لهم الموظف صيغة البرقية فى كلمات مختصرة تحمل عنهم كل مايشكون منه .. وطالبهم بتحقيق شخصية ، ولم يكن مع أحد منهم تحقيق شخصية فتقدم الخفير هلالى يضمنهم .. ووافق موظف البريد..وحسب عدد الكلمات فطالبهم بالمال،وظلوا يجمعون ، كل يدفع ماعنده.. فلم يجدوا مايكفى .. وصاح سالم :

— خليهم كلمتين بس : مظلومين الحقونا .. وامضا واحدة بس عن البلد .. الفلوس تقضى كده ..

— بفلوسكم دى ممكن تكتبوا ١٥ كلمة بس غير العنوان ، دا .. انتم كاتبين عريضة مش تلغراف ..

ـ وماله .. نكتب خمستاشر كلمة بس .. والا حتى عشرة بلاش تتعب الريس فى القراية .. لكن التفاصيل بالبريد .. آه يعنى بكرة نبعت جوابات بالتفاصيل كلها للرئيس جمال وللاتحاد الاشتراكى فى مصر جوابين بقرش صاغ الواحد .. ونبعت للجرايد كمان ..

ورد رجل :

ـ هيه الجرايد فاضية لنا .. دول مشغولين بالكرة والفساتين والصور العريانة والممثلين وأخبار بعض ومدح بعض وشتيمة بعض وشيلنى وأنا أشيلك .. وحتى لما بيكتبوا فى الاشتراكية، يكتبوا حاجات مانفهمهاش .. هى الجرايد دى طالعة لنا ؟ .. لا .. دى لأهل البندر .. عن الحاجات اللى تسلى أهل البندر وتهمهم !

وتدخل آخر :

ـ يمكن يا أخى نلاقى حد فيهم ينشغل بينا .. لازم نلاقى حد يهتم بنا ..

وقال سالم :

ـ دى جرايد برضه اسمها ملك الاتحاد الاشتراكى .. أهو برضه ساعات تلاقى فيها كلام كويس .. ساعات !

ـ أهى ملك الاتحاد الاشتراكى يا اخويا .. دا اللى فيها بيسكعوا ميات وميات علشان يكتبوا اللى بيكتبوه ده .. واحنا هنا مش لاقيين تمن تلغراف نكتبه للريس ونشرح فيه اللى بيجرى

زى ما احنا عاوزين .. احنا لقينا فى جيوبنا كلنا غير تمن خمستاشر كلمة مافيش غيرهم .

وصاح هلالى :

ـ هى بلدنا حاتحكم الجرايد اللى فى مصر كمان ؟ ماتسيبوها واهى فيها اللى يحكمها ويصلح حالها .. هى جرايد مصر ناقصانا .. طب مايطلعوا لنا جرايد مخصوص بقى ! واهى جرائد مصر لأهل مصر .

فرد عليه سالم :

ـ وانت بتقول فيها يعنى .. ماهو لازم برضه يبقى لنا رجل فى الجرايد دى .. دا الفلاحين أغلبية ياجدع .. وفيها حاجات كتير عايزين نفهمها ونقولها .. نروح فين احنا فى وسط هوجة الكلام اللى بتنشره الجرايد .. أنا حابعت جواب لكل الجرايد أقول لهم نظرة للفلاح .. جواب لكل جريدة أقول لها نظرة ياست .. اكتبى عن الاشتراكية والفلاح قد ماتكتبى عن الجرائم والمودة والكورة والممثلات والفنانات .. أكتبوا لنا حاجات تفيد الفلاح اللى عايز يتعلم قد مابتنشروا حاجات تسلى البهوات اللى اتعلموا ! .. عاوزين نحس بالزحف الثورى بصحيح من الجرايد .. مش بس ينشروا يفط وكلام يكره الناس فى الزحف الثورى .. مافيه بعض ناس بتكتب كويس برضه وفيه حاجات حلوة خالص بتنشرها الجرايد .. لكن فين ؟ ضايعة فى وسط هيصة الكلام الفاضى .. مش عاوزين نقول كلام جرايد يعنى كلام

وبس .. لأ .. عاوزين لما نقول كلام جرأيد يبقى قصدنا كلام حلو .. مفيد وله خلاصة وفيه معنات للكلام ! .. منين أجيب ناس لمعنات الكلام ..

فقاطعه هلالى ضاحكا :

ـ انت حاتقلب على المواويل ليه بقى .. ما تخلينا فى الجرانين ! .. ياترى ياحضرة الناظر انت وعبد العظيم رجعتم البلد ولا لسه ؟ ..

وعندما وصلوا الى القرية كان يداعبهم أمل كبير أن يكون حضرة الناظر عبد المقصود وعبدالعظيم ، قد عادا .. ولكن القرية باتت تنتظرهما حتى الصباح فى قلق تخالجه الرهبة والتوجس !.. حتى الصباح !

***

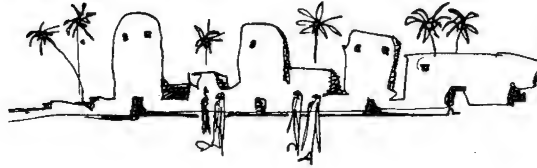
ومر صباح وصباح ..

والحيرة على وجوه النساء والاطفال .. وحتى الرجال فى قريتى غشيتهم كلهم حيرة يخالجها الرفض والاشمئزاز ، ومزيج من الخوف والاصرار .

لن أنسى أبدا نظراتهم المتسائلة فى دهشة..انهم لايصدقون! من بيت عبد العظيم الى بيت عبد المقصود وأنا لا التقى الا بدموع تنسكب أو عيون تمسك الدمع فيها عظمة الكبرياء .. انهم فى قريتى لايصدقون ماجرى .. كيف يقبض رجال فى

المدينة على عبد المقصود ، وعبدالعظيم ؟! .. وسالم أيضا أخذوه والخفير هلالى ! .. الخفير هلالى سجنوه لأنه رفض أن يسجن سالم ..

أيشعر الذين قبضوا عليهم بالمأساة التى صنعوها لقريتى.. أيجسرون هم أن ينظروا فى عيون الأطفال فى قريتى ، أو أن يواجهوا النظرات المتسائلة ؟! أيستطيعون هم أن يضحكوا مع أطفالهم بعد أن صنعوا كل هذه الدموع لأطفال الآخرين ؟



9

أين راح الرجال ؟!.. فى أى سجون المدينة ألقى بهم رجال المدينة ؟ .. ولماذا ، وهم لم يؤذوا أحدا ، ولم يرتكبوا جريمة ، ما صنعوا شيئا الا أنهم يريدون أن يعيشوا فى سلام وعدل هم وكل أهل القرية ؟ .. انهم ما أفسدوا زرع أحد ، ولا سموا ماشية ، وما انتهكوا عرضا ومانهبوا أرضا ، وما كذبوا على الناس .. ولكن الذين يكذبون ألقوا بهؤلاء الرجال فى أعماق السجون !.. أين راح زهرة رجال القرية ياناس ؟ .. ذهب رجلان منهم الى المدينة يبحثان عن العدل .. فما عادا .. وأرسلت القرية تتظلم فقبضوا على سالم.. ثم الخفير هلالى ! .. حتى الخفير هلالى.. رجل الحكومة ! .. انه الرجل الذى جاء من القاهرة يأمر فى القرية وينهى باسم القاهرة .. هو الذى فعل بالقرية الافاعيل!..

ذهب الرجال الى المدينة وما عادوا بعد .. ولن يعودوا الا بعد شهور وشهور محطمين من العذاب مجانين من الغيظ !.. ثلاثة أيام ، فى كل يوم منها آلاف اللحظات من القلق والألم والتمزق ! على أى فراش نام الرجال فى هذا البرد الشديد وهم فى سجن المدينة لا يوقدون نارا تدفىء النزلاء ! .. والعزة والاحلام والأشواق الى المستقبل التى تمتلىء بها نفس كل واحد منهم ، ماذا صنع بها رجال المدينة؟ والطعام؟ من أى خبز أكل الواحد منهم،

ومن أى حوض شرب ؟! .. أتراهم ضربوا الواحد منهم بكل شموخه وكبريائه كما كان يحدث فى الزمن القديم الذى فات وانقضى ؟! .. حتى فى ذلك الزمن القديم لم يستطع أحد أن يقبض على عبد المقصود أو عبد العظيم أو هلالى .. وما كان سالم غير طفل يلعب فى التراب ، ويأكل الطين ! ..

وسألتنى انصاف عن هذا الذى حدث كيف يحدث ؟ .. لحساب من يعمل بعض الرجال هناك فى عاصمة الاقليم ؟! ومابال أهل القرية ؟ .. أنسيتهم الحكومة التى أعطتهم أرض الأمير ؟ أنسيهم الله ؟ .. وهذا الرجل الغريب الذى جاء من القاهرة فى يوم اسود وأعلن أنه مندوب الحكومة ؟! .. من أين أتته كل هذه السلطة ؟ .. أما من أحد يحاسبه ؟ .. ولئن كان مندوب الحكومة حقا فلماذا يظلم الناس ؟ ..

وشعرت انى لا أستطيع أن أواجه نظرات الرجال والنساء .. ولا كل هذه الأسئلة التى تكاد فى همساتها أن ترج الفضاء.. أين العدل ياناس ؟ .. كيف يحبس الابرياء هكذا بلاحساب!.. كل هذا لأننا رفضنا أن يسلبنا المشرف أرضا جيدة أخذناها قبل أن نرى وجهه ؟ .. أكل هذا لأننا رفضنا أن يأكلنا رزق ، وأن يصلب أولادنا على جذوع النخيل ، ولأننا رفضنا أن يستغل أدوات الجمعية التعاونية بالمجان ، ونحن ندفع ؟ لماذا لايجتمع أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى ويذهبون الى المدينة يطلبون .. لا .. لا .. ربما أخذوهم هم أيضا .. فرزق بك لايريد اجتماعات ،

ومن يعارض رزق تلق به المدينة فى أحد سجونها ! •• فليجتمع مجلس ادارة الجمعية التعاونية •• و لا هذا أيضا ، مادام رزق بك لايريد ! •• وهذا الرجل الغريب الذى جاء من المدينة يمنع الاجتماعات •• لا كلام بعد •• فربما أمر هو بأن يسجن كل رجال القرية •• يعملها ! •• ماذا يمنعه ؟ •• ولكن الأمر ليس فوضى ! •• من أين جاء بكل هذه القدرة على أن يسحق العدل ويكبل فى الصدور كل الخطرات والأحلام ؟ ••

وأرهقنى الاحساس بالذنب •• فها أنذا رجل جاءمن القاهرة وفى المدينة رجال من أعز أهل القرية على القرية ، وضعوا فى سجون المدينة ، وأنا مع ذلك ما زلت أروح وأجىء حر الخطوات على أرض القرية ، لا يثقل قدمى حديد ولا نحاس !

ما انتظارى بعد هذه الأيام الثلاثة ؟••لكم حاولت أن أعقد اجتماعا لأهل القرية ، ولكن بلا جدوى •• قال لهم توفيق حسنين ان الاجتماع ممنوع بأمر سرى من مصر ••• أى مصر هذه التى يعنيها توفيق حسنين ؟ •• كان يمشى فى القرية مختالا وسط المقت والازدراء ، معتزلا على قمة زهوه يقول للناس :

— البيه مندوب الحكومة قال لى اللى يخالف أوامر مصر مصيره للسجن •• مافيش اجتماعات •• ماحدش له دعوة لا بمشرف ولا بغيره •• كل واحد يخليه فى شغله وبس •• اصحى حد ينطق ! •• أوامر مصر كده •• البيه مندوب الحكومة متصل بمصر •• وأنا كمان •• أنا كمان واصل على مصر ••

والبلد شافت اللى بيقف فى سكتنا بيجرى له ايه •• ولسه ياما حايجرى !

وما كان يجيب بغير نظرة مستعلية على من يسأله :

— أنت واصل على مين فى مصر ياتوفيق يابو حسنين •• هه •• والبيه مندوب الحكومة بتاعك ده واصل على مين •• قولوا لنا اسم اللى سانده ؟ مين ؟ •• أخوالك ؟•• اللى ماحد يعرف لك خال ! ••

ما كان يرد بكلمة على من يوجه اليه هذا الكلام••وان كان ليتوعد هؤلاء الذين يعرضون بأمه !

مابقائى فى هذه القرية المعذب أهلها •• لاجدوى من محاولة عقد اجتماع •• فقد بدأوا يخافون أن يكون مصير كل من يجتمع ، هو مصير الرجال الأربعة الذين حبسوا فى المدينة •• ولقد حاول بعض الرجال أن يدخلوا المضيفة ليتشاوروا فيها عما يصنعون ، فاذا بتوفيق حسنين يدخل فجأة :

— ضبطتكم ! •• بتعملوا ايه هنا ؟ •• اجتماع ؟•• طيب والله ان عملتوها تانى لتكون آخرتكم غبرا •• المرة دى سماح •• لكن المرة الجاية حالبسكم تهمة سرقة بالاكراه ليلا •• انتم مش عارفين ان الجمعية بقت سكن خصوصى للبيه مندوب الحكومة •• المبنى ده كله سكنه •• والمضيفة كمان •• داخلين هنا ليه بقى ؟ •• يا اما بتدبروا لاجتماع والاجتماعات ممنوعة يا اما بتدبروا لسرقة بالاكراه وليلا كمان •• علشان تبقى جناية••

أنا ما أنا مرسيكم على أوامر مصر •• انتم مش عارفين ان احنا متصلين بمصر ؟!

وخرج الرجال ، بلاكلمة ، من المضيفة ، ومضى توفيق حسنين فخورا بالهيبة التى خيل اليه انه اكتسبها ، محاطا بنظرات الازدراء ••

كنت أتأمل تصرفات توفيق حسنين ، وأسمع عنها الكثير!•• كان قد ركبه احساس همجى بالقوة منذ استدعى هلالى الخفير الى عاصمة الاقليم ، ولم يعد ! •• وهمس الناس ان توفيق الآن يقلد فى مشيته ذلك الرجل الذى يقول عن نفسه انه مندوب الحكومة •• توفيق حسنين يقلده حتى فى طريقة كلامه ••

وحاولت أن أسأله عن حكاية أوامر القاهرة هذه •• قابلته وأنا واقف على الطريق الزراعى فى انتظار احدى عربات الركاب الكبيرة المارة بين القاهرة وعاصمة الاقليم •• كنت قد قررت فيما بينى وبين نفسى أن أخوض المعركة هناك فى عاصمة الاقليم بعد أن يئست من عقد اجتماع للقرية •• وحيانى فى ابتسامة لم أرتح لها •• وسألته عن الرجل الذى يقول عن نفسه انه مندوب الحكومة •• أين ذهب •• وأجابنى باقتضاب انه فى القاهرة لأعمال هامة •• وسألته باسم من يتحدث هذا الرجل، فلم يجب•• وهاجمته بسؤالى : أيقول هذا الرجل ويقول توفيق للناس انهما ينطقان باسم القاهرة ؟؟ واضطرب •• ولم يتحدث •• وبعد لحظات من الصمت رأيت فيها لون وجهه الأحمر يغيض قال لى : -

— حاكم بلدنا دى كلامها كتير •• انبيه بس هو اللى متصل بمصر •• وأنا متصل بالبيه ده ••

— متصل بمين فى مصر •• لازم تقول ••

واصفر وجهه •• وزاغت نظراته ، وارتعدت شفتاه •• ولم يتكلم •• وعندما أعدت عليه السؤال انفجر فى دفاع عن النفس:

— دهدى •• هو تحقيق •• هو متصل بمصر وخلاص •• واصل عالدنيا كلها فى مصر •• هو تحقيق يعنى •• ماحدش فى بلدنا له يسأل سؤال زى ده •• وده سؤال ده تقوله لمندوب الحكومة •• دى أسرار عليا •• هو له صلة أكيدة بمصر ••

واستدار راجعا الى القرية •• ورأيت جسده الملىء يترجرج تحت جلبابه الصوفى الفاخر ، وقفاه الأبيض ينثنى فيه اللحم المكتنز تحت رأسه الشقراء الكبيرة التى أرجعها الى الوراء فى شموخ •• وظل يمشى فى خيلاء غاز فتح مدينة عصية • وأنا أنظر الى أقصى مدى يبلغ اليه البصر من الطريق الزراعى الملتوى بصبر نافذ بحثا عن عربة الركاب الكبيرة ••

كان الصباح نديا على الرغم من كل شىء •• ونسمات شتاء خافتة مفعمة بدفء الشمس تمر على الحقول ، وتدفع أعواد القمح فى موجات عذبة خضراء • •

وارتفع من بعيد صوت زغرودة !! •• ما هذا ؟! •• أجنت امرأة فى القرية •• ولكن الصوت كان يأتى من على الطريق

الزراعى .. كان للزغرودة صدى غريب فى هذا الصمت العريض الدافىء .. وكانت تثير فى النفس شيئا مثل الشجى .. واقترب صياح أنثوى مبحوح :

ـ مبروك يا اولاد .. مبروك ياخالة أم سالم ..

ماهذا البشير ؟ .. كان الصوت يأتى من ناحية عاصمة الاقليم ، وكان الطريق الزراعى الملتوى يخفى صاحبة الصوت.. واقتربت الزغاريد .. وبانت الفتاة تهتف خلال الزغاريد ..

ـ مبروك يا أولاد . ياخالة أم سالم .. مبروك .. الف مبروك .. قولوا يحيا العدل يا أولاد .

واقتربت الفتاة فاذا هى تفيدة تجرى ومن ورائها بعض فلاحين وفلاحات يهتفون « يحيا العدل » .. أكانوا فى عاصمة الاقليم وجاءوا مشيا على الأقدام ؟ ..

وتقدمت اليها أسألها ما الخبر .. ولكنها جاوزتنى وهى تزغرد متجهة الى القرية بعد أن قالت باختصار وكل ما فيها يضحك فى انتصار :

ـ المشرف راح .. رفدوا المشرف ..

وجرت ووراءها بعض الفلاحين الذين يعملون فى أرض الاصلاح ، متجهين الى القرية وهى تصفق فى نغمة راقصة والكل يهتفون : « ورفدنا المشرف .. ورفدنا المشرف » .

كانت تفيدة قادمة من هناك .. من حيث ألفت أن تذهب لتخدم المشرف ، الذى يقيم فى قصر الأمير .. وعندما انحدروا

من الطريق الزراعى الى القرية قابلهم توفيق أبو حسنين الذى توقف فى مكانه جامدا منذ سمع الزغاريد .. وعيناه تجحظان ، وخوف ملحوظ يرعش نظراته .. وتفيدة تقف متراقصة أمامه.. نظراتها موزعة بينه وبين منزل رزق .. وهى تقول :

ـ خلصنا من المشرف .. عقبى للباقى .. عقبى للرجالة لما يرجعوا من السجن ..

واستوقفها توفيق حسنين بغلظة تغطى خوفه :

ـ اخرسى يابت .. من قال لك الكلام ده .. اخرسى ؟!

ورفع يده محاولا أن يصفعها .. ولكنها أمسكت بيده ، ودفعتها بقوة :

ـ اوعى ايدك كده .. مالكش ضرب على .. أوعى تمد ايدك على تانى أحسن أقطعها لك .. جاتك داهية فى ايدك التقيلة !

وأحاط الرجال به يهتفون للعدل ويتراقصون وهم يهزون العصى ، فانكمش وسألهم :

ـ ايه الحكاية يا اولاد .. فهمونا بس .. ايه العبارة ؟ ..

وحاولت تفيدة أن تحكى .. ولكن الآخرين قاطعوها .. فزعقت ، وقفزت لكى يكون صوتها أعلى الأصوات .. كانت نظراتهم تتراقص وهم يحكون بأصوات مختلطة كل منهم يشعر انه أعرف بالأمر ، وان البشرى هى بشراه ! .. تكونت حلقة

واسعة من الرجال والنساء الذين جاءوا على الزغاريد .. وقفوا كلهم فى مدخل القرية قرب الطريق الزراعى، ومنزل رزق ، والنخيل يطل عليهم من وراء أسوار قصر رزق .. ونظرات تفيدة تنتقل فى مرح بين هامة النخلة التى صلب عليها سالم ، وبين آفاق مجهولة! وتعود لتثب على كلمات أحد المتحدثين .. بالراحة يا أولاد .. احكوا لنا الحكاية .. آه .. اسمعوا .. اسمعوا .. أيام الفرح بدأت والله .. اسمعوا .. اسمع ياتوفيق يابو حسنين.. اسمعوا يا أهل البلد .. من يومين جاء ثلاثة رجال من القاهرة .. جاءوا فى الصباح فى طلعة الشمس .. الا .. فى الفجر لا .. أنا رأيتهم من الليل .. على كل حال .. هم جاءوا الى قصر الأمير « وسألوا عن المشرف ، ولكنهم وجدوه نائما فى القصر ! . وأخذوه ودخلوا به المكتب .. وأخذوا يقلبون أوراقه .. كنا نحسبهم زوارا له من مصر مثل الزوار الذين ألفوا أن يزوروه من القاهرة ، وأن يخرجوا معه فى رحلات صيد على خيل الاصلاح ! نسينا .. من يومين جاءنا تاجر قلل قعد طول النهار .. وجرنا فى الكلام عن المشرف .. حكينا له .. أنا أول من حكى .. لا .. أنا الأول.. والله هو ماسأل أحد قبلى لا انت ولا هو .. أنا من حكى له أو لكم كلكم .. المهم ..

واختلطت الأصوات مرة أخرى .. احكوا يا أولاد .. احكوا .. ودعوا أمور الصغار .. هه .. وبعد .. المهم .. حكينا كل شيء لتاجر القلل .. وراح لحاله . وجاء بعده بيوم

الرجال الثلاثة .. قلنا .. انهم انتظروا المشرف حتى نزل من القصر .. والجميل نازل سلالم القصر رنت ـ على رأى الاغنية.. ها هاى ! .. نزل بسلامته ها هاى ! .. فأخذوه ودخلوا به الى المكتب .. وفتحوا كل الدفاتر وقرأوا كل الأوراق وعدوا كل الخيل والبهائم .. ولكن لماذا يا أولاد لم يسألوا واحدا منا .. اسمعوا الحكاية ولا تسألوا .. اسمعوا .. طول يومين .. كل يوم من الصباح للمساء والباب مغلق على المشرف والرجال الثلاثة ومن يدخل بقهوة أو شاى يجدهم يفتشون فى الدفاتر والأوراق، ولا يسمع كلمة .. ان دخل أحد حتى بكوب ماء سكتوا .. وأخيرا سافروا ليلة البارحة .. واليوم سافر المشرف ومعه كل حاجياته ، وجاء رجل جديد ، مشرف جديد وعرفنا ان المشرف المسافر أحيل للتحقيق وستسأل البلد كلها عن تصرفاته .. ومن عنده كلام فليستعد للسؤال.. بركات شكواك للوزير يا أم سالم..

وصاح توفيق وهو ينصرف مغيظا :

ـ كلام فاضى .. هو المشرف كان عاوز يتنقل من زمان .. بقى هى انصاف حاتنقل المشرف .. هى أم قويق صقرت ! .. هم الفلاحين اللى بيحكموا المشرف والا المشرف اللى بيحكم الفلاحين ، ماهى صقرت ..

وارتفع صوت حاد :

ـ انت أللى أم قويق ياتوفيق يابو حسنين .. احنا طول عمرنا صقور .. آه .. أهى خالتى أم سالم نقلت المشرف الظالم

•• يحيا العدل ياتوفيق يابو حسنين •• والشكاوى اللى بعتناها فيه •• أهى نفعت •• أهى شالته ••

ومضى توفيق حسنين الى القرية •• وقد تدلى رأسه الى امام هذه المرة •• تشيعه الضحكات ، وهو يهرش قفاه الغليظ • والزغاريد تغمر الضحكات • وسأل طفل :

ـ أمال الرجالة ما طلعوش من الحبس ليه ؟

وارتفع فوق الزغاريد والضحكات وسؤال الطفل ، صوت ساخط :

ـ بتزغردوا على ايه ياملاغين •• يعنى الرجالة طلعوا من الحبس •• فين تفيدة •• بت ياتفيدة •• عاجبكم قوى المشرف الجديد •• لما نشوفه حايعمل ايه •• دا أول القصيدة كفر •

كان الشيخ طلبة قد جاء من نفس الطريق الذى جاءت منه تفيدة والآخرون •• وكان يلهث ، وهو يرفع عصاه على الجميع •• وأمسكت تفيدة بعصا أبيها ضاحكة :

ـ ما تضربنيش يابا •• دا انا الفرحة لهتنى ماقدرتش أستناك ••

ـ بقى يابت أقرأ عشر القرآن واطلع مالقكيش •• وواخدة السكة جرى تزغردى وتهيصى •• طب أهو المشرف الجديد قال لى بلاش تتعب نفسك وتيجى تقرأ قرآن تانى هنا •• يعنى رفدنى •• زغرتى بقى وهيصى ! •• أهو رفدوا أبوكى ! •• فرحانين قوى بالمشرف الجديد ؟ •• طب ياسعادة البيه المشرف دا البيت

اللى مابنقراش فيه القرآن الكريم تسكنه الشياطين وتهجره البركات •• يقوم يرد عليه يقول أولا ماتقولشى سعادة البيه •• الحكاية دى بطلت من زمان •• وثانيا ــ حضرته بيكلمنى بأولا وثانيا ــ أنا باسمع القرآن فى الراديو •• وانت كان مربوط لك هنا خمسه جنيه شهرى قراءة قرآن قلت أبدا يا سيدنا الأفندى •• أنا عمرى ماشفت الخمسة جنيه دول •• دى العبارة كلها خمسين قرش •• عجيبة يا أخواتى •• لحق يبص فى الدفاتر •• خمسة جنيه ايه ؟ هو جاى يخون المشرف اللى مشى •• وآخر المواخر سلم عليه ووصلنى لحد باب المكتب وقال آسف •• ده مكتب حكومة مش سكن خصوصى •• أنا طبعا مش حاسكن قصر الأمير •• لو كان ده بيتى كنت قريتك قرآن على حسابى •• لكن •• أنا حاكلم ناظر مدرسة بلدكم يخليك تعلم قرآن فى فصول محو الأمية •• ناظر مدرسة بلدنا ؟ •• ده المشرف ده مش دارى بالدنيا •• أمال جاى من مصر ازاى •• مايعرفش أن عبدالمقصود أفندى محبوس •• وقال باعتينه من مصر قال •• دا المشرف الأولانى كان عارف كل حاجة زى عفريت من الجن والا زى الذى عنده علم من الكتاب ••

وصاحت تفيدة بفرح :

ـ يا ريت تقرى قرآن فى فصول محو الأمية يابا •• وتأخذنى معاك ؟!••

وترددت الأصوات :

ـ ان كان عالخمسين قرش ياسيدنا تدبر .. لما يرجع حضرة الناظر بالسلامة يعينك .. ده يمكن يربط لك جنيه فى الشهر يدبره لك من أموال البر بتاع البلد ..

وقال الشيخ طلبة فى يأس :

ـ لما يرجع حضرة الناظر ؟ .. يرجع فين بقى . . هو اللى بيروح السجن بيرجع على طول كده .. ياشيخ .. ولبث فى السجن بضع سنين ..

وشهقت تفيدة :

ـ فال الله ولا فالك يابا .. ما دام المشرف الضلالى اتنقل لازم اللى فى السجن حايرجعوا .. حضرة الناظر وعبد العظيم وهلالى .. وسالم !

واهتز الشيخ طلبة وبان على وجهه التأثر ، ولكنه قال فجأة:

ـ وسالم ؟ بتقولى سالم ..

ثم صرخ :

ـ أوعى تجيبى اسم سالم ده على لسانك تانى .. أنا مش محرج عليكى ماتجيبيش سيرته ؟

واقتحمته أصوات مختلطة :

ـ دهدى ياسيدنا ؟ .. ماتخلينا فى فرحتنا .. وعشمنا كبير فى وجه الله .. ان الفرحة تتم .. يا أخى يحيا العدل ! يا أخى ربنا يجعلها من نصيبه ..

وسمعت صوت عربة ركاب مقبلة من بعيد من اتجاه القاهرة الى عاصمة الاقليم .. وأخيرا هاهى ذى العربة التى انتظرها .. وأسرعت الى الطريق الزراعى لاستوقفها .. كانت مختفية فى انحناءة الطريق وراء الاشجار المغروسة على الجانبين ، وأزيزها البعيد يملأ الأفق .. وتهيأت لاستوقفها .. ولكنها ظهرت من الاتجاه المضاد .. كانت قادمة من عاصمة الاقليم فى طريقها الى القاهرة .. خدعنى الصوت والصدى .. وأبطأت العربة وهى تمر من أمام القرية .. وتعلقت بها العيون .. وشعرت كأن كل مافى القلوب من أمل ولهفة ورجاء يتجه الى العربة القادمة من عاصمة الاقليم .. آه لو عاد فيها الرجال الغائبون ! .. وتزايد بطء العربة حتى اجتازت منحنى الطريق الذى تقع عليه القرية ، ثم واصلت السير مسرعة .. تثير الضجة والغبار الكثيف .. والعيون مع ذلك تتعلق بها وهى تختفى فى الطريق الطويل وانطفأ فى كل الوجوه ذلك الشعاع من الأمل الذى ومض فجأة .. ووجدت انصاف بين الواقفات .. متى جاءت أم سالم ؟ .. كانت تقف صامتة شامخة وشىء جديد كالابتسامة يضىء وجهها ونظراتها تقتحم .. وجفونها ذابلة من الدمع .. اننى مع ذلك أستطيع أن أنظر فى كل هذه العيون ، فقد عاد يلمع فيهما ذلك البريق الذى يؤججه الانتصار .. وسألتنى انصاف لماذا لم يعد ابنها والرجال ؟ .. تماما كما سأل طفل منذ لحظات .. واذ عرفت انصاف انى ذاهب الى عاصمة الاقليم قالت بصوت عميق هادىء :

ـ قل لهم الحكومة حكومتنا واهى وقفت المشرف الظالم

وجابت مشرف جديد .. ماسكين الرجالة ليه .. ما اللى وقف المشرف يقدر يوقفكم .. الله يوقف حالكم .. قل لهم ..

ولكن الشيخ طلبة لم يدعها تكمل :

ـ قل لهم المشرف الجديد رفد الشيخ طلبة خادم القرآن الكريم .. ماتعملوا اجتماع يا أهل البلد .. اجتماع علشانى يا أهل البلد .. دا أنا مقرى أبهاتكم القرآن .

ورد عليه صوت ضاحك :

ـ يعنى يا سيدنا حانبايعك تحت الشجرة .. واذ يبايعونك تحت الشجرة يعنى ؟

وانتفض الشيخ طلبة غاضبا :

ـ واذ يبايعونك تحت الشجرة ياجاهل ! .. انت يعنى ياواد بتقول فيها ؟ .. وفيها ايه يعنى لما تتمسكوا انى اقرأ فى الاصلاح راتب القرآن زى المعتاد .. اجتمعوا وقولوا كده .. الاجتماعات اللى من النوع ده حلال ومش ممنوعة ولا حد يقدر يتعرض لها .

ورد آخر :

ـ ياسيدنا احنا فى ايه والا ايه .. ماتعلمنا القرآن فى فصول محو الأمية وخلاص .. لما حضرة الناظر يرجع يحلهاربنا .. ادع لهم يرجعوا بالسلامة وربنا ينصر الحق ياشيخ ..

واتجهت انصاف الي مرة أخرى وحاولت أن تتكلم .. فصاح الشيخ طلبة فى ابنته تفيدة ودفعها أمامه لتسير وهو يلعن البلد ..

توقفت وهى تطلب منى ألا أعود من عاصمة الاقليم الا بالرجال الغائبين .. وبأوامر لفصل المسئولين عن حبس الرجال !

ونهرها أبوها مرة أخرى .. ولكن الأصوات ابتلعت زعيقه .. كلهم يقول لى شيئا ما .. لا تذهب الى عاصمة الاقليم فلا فائدة منهم هناك .. هناك رجال مثل رزق يعتقدون أنهم اشتراكيون وهم فى أرضهم يجلدون شبابا ورجالا مثلنا .. لا .. اذهب ولا يهمك .. فهناك رجال شجعان أيضا وهم أصدقاء لنا .. لا .. قد يحبسك أصدقاء رزق .. مستحيل .. فهم لا يجسرون .. انهم لا يستضعفون الا الفلاح .. رح .. رح .. ستجد لنا أصدقاء أقوياء .. لا .. الحل كله فى القاهرة .. رح الى القاهرة واشك الذين سجنوا رجالنا واسأل عن شكوانا التى أرسلناها من قبل .. لا روح أولا لعاصمة الاقليم .. لاتقل لهم شيئا أول الأمر .. اسمع منهم قبل أن تقول لهم .. بل قل لهم ان القرية فضحت المشرف وأنه موقوف ومحال الى التحقيق .. يا أخى لا .. دار على شمعتك . استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .. بل ان هذا الخبر سيزلزل أعداءنا فى عاصمة الاقليم قل لهم كل شىء .. وكلمهم بشدة .. املأوا الدنيا بهذا الخبر .. فالأرض ليست للمشرف ولا لرزق .. ولكن لنا .

وجاءت العربة والصياح يتعالى .. لم أشعر بصوتها .. ولكن رجالا كانوا قد جروا فاستوقفوها .. ووجدت مكانا أقف فيه وسط زحام العربة .. وحول العربة وأمامها أهل القرية ما زالوا

يتصايحون •• كل واحد منهم يقول لى شيئا •• وصاح السائق طالبا منهم ان يخلوا الطريق لتسير العربة •• وتحركت العربة متجهة الى عاصمة الاقليم •• وصياح الرجال والنساء يختلط بدعوات النصر والتوفيق والزغاريد •• وتعالت هتافات راقصة ملء الفضاء :

« الأرض لمين •• للفلاح •• الأرض لمين •• للفلاح »

وضحك السائق ثم تنهد :

ـ يا سلام •• سبحان المغير الذى لا يتغير •• والله عشنا وشفنا •• تعرف قبل الثورة كانت كلمة فلاح دى تعتبر شتيمة•• وكانت الأرض لمين ؟ •• لو حد قال للفلاح كانوا شنقوه •• والله عشنا وسمعناها وشفناها ••

وتحركت العربة مسرعة والسائق يضحك مكملا :

ـ وفين •• فى أراضى الامرا •• والاكادة النغمة حلوة يا جدعان ••

وسارت العربة تشق الطريق الى عاصمة الاقليم وأنا أفكر فى هؤلاء الذين حبسوا الرجال لأنهم يقاومون الذين يريدون أن ينتزعوا الارض من الفلاحين ، والهتافات تتصاعد من بعيد تتخللها زغاريد يخفق لها القلب وتصب فى العروق حرارة خارقة، وتثير فى الأعماق رغبة لا تقاوم فى النضال من أجل الحق والخير ••

والعربة تسير •• وما زال صوت الصدى المثير يملأ النهار والفضاء المضىء بايقاع رائع :

الأرض لمين •• للفلاح •• ورئيسنا قال •• الارض لمين •• للفلاح •• حبيبنا جمال •• وزعيمنا قال •• الارض لمين •• للفلاح •• للفلاح ••



10

ما كنت أعلم من قبل أن الحقيقة فى حاجة الى كل هذا العناء وهذا النضال ، لكى تقف أمام الباطل مرفوعة الرأس ، جهيرة الصوت ، راسخة القدمين .

وما كنت أعلم من قبل أن الأكذوبة تطير بجناحين ، وأنها خلابة ، باهرة وصريحة الى هذا الحد .. وأنها شائقة ومثيرة كليالى المتاع !

وتبقى الحقيقة مع ذلك كالنهار .. لا مهرب منه ، مهما تغلق دونه النوافذ وتسدل الاستار .. !

وفى صراع الحق والباطل ، يجب أن يكون للحق أنياب وأظفار ، ودروع والا نهشته ذئاب الباطل بلا رحمة .. ومرغت أشلاءه فى الوحل !

كنت وأنا صغير أعتقد أن الكذب مفضوح،وأن العار زرى، وان الخديعة مبتذلة .. وان كل هذه البشاعات ليست فى حاجة الى أن نلعنها أو ندينها أو نهدمها أو نحذر منها ، فهى من تلقاء نفسها منهزمة وساقطة .. ساقطة ، ولو لبست التيجان ، وتسلحت بالسيوف الاسطورية ، وارتدت ثياب غانيات خرافيات الجمال !

وكنت أعتقد ، ان الحق جليل ، وان الصدق باتر ، وأن الشرف سلطان ، وان الفضيلة قلعة لا تقتحم ، وأن الخير نافذ الكلمة ولو مشى فى ثياب رثة ! ..

ولكننى تعلمت أنه حتى الشرف فى حاجة الى نضال كبير لكى يثبت أنه خير من العار .. وان الحقيقة فى حاجة الى كثير من الاسلحة لكى تنتصر على الخديعة ، وان الصدق فى حاجة الى كل ما يملكه القلب من الشجاعة والجهد والى كل ما يملكه الدم من البذل ، لكى يغمر بصوته النبيل ، ما يثيره الزيف من ضجيج !.

ومهما يكن الجو صالحا لانتصار الحق ، فعلى الحق أن يناضل بلا هوادة لكى ينتصر .. ذلك أن للباطل أسلحة غريبة ، ولا أحد يعرف على التحقيق متى يمكن أن يستعملها وأين يمكن أن يطعن .. فى مرارة وخسة ، وبلا توقع ، وبلا خلق .. !

حق أعزل ! .. ماجدواه ؟ خير اخرس ! مامعناه ؟!

ولكم من دماء سالت عبر التاريخ لأن الفاضلين تصوروا لبعض الوقت ، أن فضيلتهم وحدها يمكن أن تحميهم .. أو لأنهم اعتقدوا — بما أن الحق معهم — انهم أقوى من الخديعة ! ..

هكذا سقط المسيح فى الزمن القديم .. وهكذا استشهد الحسين فى كربلاء .. وهكذا اغتيل لومومبا فى عصرنا هذا الحديث ، وسط الذين تعلقت آمالهم به ! وهكذا يموت الشهداء والصديقون جيلا بعد جيل !

وما زال فى كل ركن من أركان الأرض يصلب مسيح ما أو يستشهد حسين جديد أو يغتال لومومبا آخر ! .. ويتعذب مؤمنون كثير ، ورجال ونساء وربما أطفال ، ويرتفع تتار جدد همجيون متوحشون يحولون الحياة الى غابة ، ويسقط أبرياء

يمزقهم التناقض الرهيب بين البداهة والواقع بين المثل والحياة !

والسعداء هم الذين يحشدون فى صراعهم مع الباطل أسلحة أقوى مما يملكه الباطل .. ولا يستنيمون الى أن الحق يجب أن ينتصر بما أنه هو الحق .. وكفى !

لا .. فالطبيعة أحيانا تسخر من نفسها ..

السعداء هم الذين يعرفون أن الكلمة الصادقة يجب أن يكون لها بريق أقوى من كل بريق الزيف .. ويجب أن تلقى فى وجه الحياة بأعلى وأوضح ألف مرة مما يملكه الكذب من صوت جهير !

وما زال عصرنا مسئولا أمام الأطفال والشرفاء وكل المؤمنين بالقيم الفاضلة .. ما زال عصرنا مسئولا أمام كل هؤلاء عن اخضاع الواقع للبداهة واخضاع الحياة للمثل وانقاذ الذين يدخلون بفتوتهم الجديدة الى زحام الحياة من التمزق الذى يخلقه التعارض الحاد بين القيم الفاضلة التى آمنوا بها وبين فساد الاخلاقيات اليومية ..

ما زال عصرنا مسئولا أمام التاريخ عن انقاذ الانسانية من الهمجية والفوضى والظلمات والتخبط ، وعن هيبة المثل والقيم الرائعة ! ..

ولن ينقذ هذا العصر من كل ما يصمه الا رجال شجعان يؤمنون بأن العظمة تنبع من القدرة على قهر الكذب والشر والباطل فى كل نبضة قلب ، وكل لمحة عين .. فى كل لحظة .. فى

المعارك الصغيرة اليومية التى تتحول فيها خطوات الانسان الى صدق كامل .. فى كل حركة مخلصة ضد ما هو شائن ، وضد الخديعة .. والتوحش ! ..

أن تكون الكلمة معبرة حقا عما تعنيه ، فتسترد جلالها ، وتتحول الى طاقة بانية وخلاقة .. أن تكون الخطرة فى الاعماق ، وكل المظاهر الخارجية للنشاط الانسانى ، تعبيرا عن الرغبة فى نصرة الحق ، وعملا من أجل سيادة الشرف ، وتأكيد سلطان الصدق .

من هنا تنبع عظمة الانسان ومجده فى مواجهة الحياة ..

من هنا تصبح الحياة جنة على الأرض يملكها الانسان ، بدلا من أن تكون مصيدة ! ..

ومن هنا أيضا .. الخلاص .. خلاص رفيع !

أن نملك القدرة ، والشجاعة ، على أن نواجه الشر بأسلحته .. هذه هى المسألة .. وهى مسألة ما عذبت هملت ، بقدر ما دفعت الى اليأس بعديد من الشرفاء فى هذا المكان أو ذاك من أرض البشر ! ..

***

وعلى أرض قريتى التى امتلكها أهلها بعد آماد طويلة من المعاناة والأحلام لم يكن فى مقدور أولئك الرجال أو النساء أن يواجهوا الشر بأسلحته نفسها .. كانوا يملكون القدرة على كثير من الأشياء .. ويملكون الشجاعة أمام الخطر .. وكانوا يملكون

أيضا تلك العظمة التى تكمن فى الايمان بالصدق ، وفى العمل من أجل الحقيقة ، وفى ازدراء الزيف ، وفى الاحتشاد بكل طاقاتهم لكى ينصروا ما يعتقدون أنه هو الخير !..

غير أنهم كانوا عاجزين دائما عن مواجهة الشر بأسلحة الشر .. كان يسيطر عليهم ايمان غريب ، ان الخير سينتصر فى النهاية.. وأنه كضوء النهار يقتحم حتى القاعات المظلمة عند الأوان !..

عيب كبير أن تطعن عدوك فى مكان ضعيف من جسده !

فاذا كان هو يتلمس منك هذا المكان المريض ليقتلك منه؟!

واذا كان هو لا يتردد فى أن يطعنك فى الظهر ؟؟ ..

مهما يكن فهذا عيب !! ولا بد من مواجهة العدو وضربه فى المكان المنيع !

وهكذا لم يشأ عبد العظيم أن يتحدث عما صنعه الرجل الغريب القادم من القاهرة مع (تفيدة) .. رفض أن يقول ان هذا الرجل يحتال عليها لتخدمه فى مسكنه ، وأنه يغازلها ، وأن توفيق حسنين يحاول أن يوقع بها ويجرها الى ذلك الرجل .. وأنهما يمارسان على أبيها الشيخ طلبة نوعا من التهديد الخفى ليفرط فى ابنته ، وأنهما (اسماعيل وتوفيق) يمارسان فيما بينهما علاقات شاذة .

رفض عبد العظيم أن يقول شيئا من هذا على الرغم من أن الرجل الغريب اتهمه بأنه يستغل وجوده فى لجنة الاتحاد الاشتراكى وفى مجلس ادارة الجمعية التعاونية، ويضغط على النساء، ويفسق!!

وأنه اتخذ له خليلة من فتيات القرية ، بنتا أصغر من أولاده ، وهى (تفيدة) بنت (الشيخ طلبة) ! .. كل ما صنعه عبد العظيم ردا على هذا الاتهام أنه رفضه ! واستنكره واستعاذ بالله منه ، ورجاهم ألا يذكروا اسم البنت والا يشوهوها .. وختم كلامه بأن الكذب بلا رجلين وأن الحقيقة مصيرها الظهور ..!

ورفض عبد المقصود أن يذكر شيئا عما يصنعه رزق بأدوات الجمعية التعاونية وعن استغلاله للآلات ، عندما ووجه بأنه هو أيضا يستغل مكانه فى لجنة الاتحاد الاشتراكى والجمعية ، ويبيع بعض البذور والأسمدة خلسة ، ويستخدم الخفير هلالى ، وسالم، وأم سالم ، فى هذه الاعمال .. ويستغل ثقة سالم فيه ويقيم مع أمه أنصاف علاقة غرام !!..

عندما ووجه بهذا كله بصق على الأرض ولم يجب !

كان هذا كله مثيرا لاشمئزاز عبد المقصود ولقد أوشك أن يصرخ فى وجه الذين وجهوا اليه هذه الاتهامات بحقيقة أعدائه ولكنه كظم غيظه وأعلن احتقاره لمثل هذه الاتهامات .. وأقسم ألا يرد على شيء منها ، والحق سينتصر على أية حال ، وسيخرج هو ورجال القرية الآخرون من المحنة ، وعندها سيواصلون العمل ضد الذين يستغلون الجمعية ويستغلون مكانهم فى لجنة الاتحاد الاشتراكى .. ستطردهم القاعدة الشعبية مثقلين بفضائحهم ، لكيلا يعودوا بعد أبدا لاستغلال الفلاح !

وعندما ووجه عبد المقصود وعبد العظيم أنهما ضد الاشتراكية ابتسما ولم يزيدا ..

أما سالم فقد لطم وجهه طويلا وبكى عندما سألوه عما عسى أن يكون بين أمه وبين عبد المقصود من علاقات !!

وظل يبكى جاحظ العينين مذهولا من أن تصل الأمور بأى رجل فيه رجولة الى تشويه الناس الى هذا الحد، والطعن فى الأعراض..

وظل ينعت من قال كلاما كهذا بأنه جبان ونذل وبلا مروءة..

ولكن سالم مع هذا ، لم يحاول أن يتحدث عن أشياء يعرفها تشين الذين اتهموه من أهل القرية .. وأقسم أن يحاسبهم عندما يخرج .. لهم يوم ! ويومهم آت عن قريب !

وضحك هلالى وأخذ يبرم أطراف شواربه وهو يواجه اتهاما بأنه يبيع مسروقات الجمعية لحساب عبد المقصود وعبد العظيم وأقسم أنه يعرف فى القرية من يصنع هذا ويعرف لحساب من تنهب الجمعية .. ولكنه لن يقول شيئا من وراء الظهر، وسيواجه الذين يسرقون بأنهم يسرقون ! فمهما يكن مقامهم فى القرية عاليا ، فسيكشف هو المستور أمام أهل القرية ويسقط اللصوص الكبار .. من علاليهم !..

وما استطاع أحد من الرجال الأربعة أن يدافع عن نفسه بشىء بعد .. كلهم أنكروا واستنكروا ما وجه اليهم .. وما من شىء غير صدقهم كانوا يملكونه فى مواجهة باطل الاتهامات ..

رفضوا الكلام وما فكروا فى أن يوجهوا الى الذين اتهموهم بغير الحق اتهاما واحدا بالحق .. !

كانوا يرون أن هذا عيب .. وان حسابهم مع أعدائهم لن يكون الا فى مواجهة هؤلاء الأعداء ، أمام أهل القرية ! ..

فهم يؤمنون أنهم لن يقيموا فى الحبس أكثر من ساعات ، فالحق معهم .. وما من قوة فى المحافظة تستطيع أن تنتصر للباطل أكثر من ساعات .. ومع ذلك فقد ظلوا فى حبسهم ثلاثة أيام ثم رحلوا دون أن يعرف أحد الى .. القاهرة !!

وما كنت قد يئست فى اليوم الأول ..

كنت مثلهم مؤمنا أن الحق معهم ، وأنه من المستحيل أن يبقوا محبوسين أكثر من ساعات ، ثم يدرك الذين حبسوهم بعدها خطأهم .. ويطلقون سراح الرجال ، ويعتذرون! وان كان اعتذار الدهر كله ، لايمحو ظلم ساعة واحدة ، تهدر فيها حرية انسان أو كبرياؤه ، وان كانت كل مباهج الدنيا لاتصلح عزاء عن لحظة تعذيب ! وفيضان من دموع الندم لا يطفىء لهب الغيظ !!

ذهبت فى أول يوم الى لجنة الاتحاد الاشتراكى بالمحافظة.. وقابلت أحد أعضاء اللجنة ، وما برح فى أذنى رنين موج من هتافات القرية وأنا أركب العربة فى طريقى الى المحافظة .. تلك الكلمات التى ألفتها سليقتهم وغنوها على ايقاع من نبضاتهم .. ايقاع رائع مثير يذكى فى النفس الشعور بالأمل والرغبة فى

النضال •• كنت أهمهم دون أن أشعر بتلك الكلمات التى تملأ أعماقى برنينها الشجى (الأرض لمين)

وكان الرجل الذى جلست فى حجرته يتحدث فى التليفون وعندما فرغ رحب بى بابتسامة كبيرة •• كنت أعرفه •• فهو محام فى عاصمة الاقليم حقق نجاحا ملحوظا •

هو فى مثل سنى أو أكبر قليلا ، يحب أن يتحدث بعناية ، ويتلذذ بكلامه المنسق ، وباشارات يديه الأنيقة •• وهو دائما فى حالة مرافعة •• بيضاوى الوجه ، طويل ، متورد الخدين رغم سمرته •• مستريح القسمات مطمئن النظرات •

وكنت قلقا أتفزز وهو يرحب بى فى هدوء غريب ويتحدث بتأنق مستريح ويبدى لى فى أدب ، واستغراب مرسوم ، دهشته لشحوب وجهى وللشيب المبكر الذى غزا رأسى ••

ودون أن يترك لى فرصة للكلام نصحنى أن أمارس الرياضة •• أية رياضة •• فهو فى نادى المحافظة يلعب التنس كل يوم بلا انقطاع قبل أن يذهب الى عمله وفى البيت يلعب اليوجا •

وحاولت أن أقاطعه ولكن بلا فائدة ••

ودخل علينا رجل فى خريف العمر يلبس جلبابا أزرق وعلى رأسه طاقية من اللباد الابيض فتجهم المحامى وهو يستقبله •

ثم عاد فابتسم على الفور ، وطلب من الرجل أن ينتظر قليلا فى الخارج لأنه مشغول الآن بحديث هام ••

وعاد يصف لى (اليوجا) ومزاياها •• كيف يجب أن أتدرب على الوقوف على رأسى •• والأمر سهل •• أول الأمر لدقائق ،

ثم لأكثر ، ثم لساعات •• وهذا تدريب للارادة فضلا عن أنه يصنع معجزة للجسد ويعيد اليه الشباب ويحفظه الى الأبد ••

وقاطعته :

— يا أستاذ برعى أنا جاى فى موضوع خطير لا يحتمل التأخير •• فيه ••

ولكنه قاطعنى بابتسامة وأقسم لى أن نهرو مارس اليوجا وأنها هى التى حفظت له شبابه •• وأخرج من درج المكتب كتابا عن اليوجا وقدمه الى هدية ، ولكنى نحيت الكتاب فى قلق وجفاء لم تكن لى فيه حيلة •

وقبل أن يقفز الاستاذ برعى الى حديث آخر دق جرس التليفون فانشغل بالكلام •• ورتبت فيما بينى وبين نفسى ألا أدع له فرصة أخرى للكلام عن التنس أو عن اليوجا •• وأن أهاجمه بشكواى ••

ولم يكد يفرغ من حديثه التليفونى حتى بدأت أحدثه ، ولكنه لم ينصت ومضى يحدثنى عن الجولف ومزاياه •• وينصحنى أن ألعب الجولف ان لم أستطع أن ألعب التنس ، وهو سهل ولطيف •• ولكن من واجبى مهما يكن اختيارى لنوع اللعبة أن أومن باليوجا وأن أمارس شعائرها !! ••

وظل يتكلم وأنا أتكلم •• ولاحظ هو انى لا أسمعه •• وانى أتحدث بانفعال شديد حتى لقد ارتجف صوتى ، وسخن وجهى وبدأ العرق يتساقط رغم الشتاء •• وأخيرا أصغى لى

والقى الى بكل وجهه الحليق بعناية ملحوظة •• وغرس نظراته فى وجهى •

وشعرت أنه لاشىء يمكن أن يشغله فى هـذه اللحظات غير كلامى •• كان يصغى باتنباه شديد •• ودون أن تتغير ملامحه المنتبهة ، ضغط على جرس صغير بجانبه ودخل شاب فالتفت اليه وطلب منه أن يدخل الفلاح الذى جاءه منذ لحظة •• وخرج الشاب الذى بدا لى أنه سكرتيره ••

وتضايقت قليلا •• ليس منتبها لى الى الدرجة التى سرتنى ••

على أية حال •• دخل الفلاح وأنا أتكلم •• وابتسم هو له وأجلسه على مقعد آخر أمام المكتب •• ثم دق جرسا آخر فجاءه أحد السعاة وطلب لنا قهوة •• واعتذر الفلاح ولكنه ابتسم له مشجعا وأقسم أن يطلب الفلاح شيئا •• فطلب كوبا من الشاى •• وعدت أشكو له ما حدث ، وعلى وجهه كل امارات الاصغاء •• وعيناه المستريحتان تنظران الى باهتمام وشفتاه مضمومتان على ابتسامة هادئة خفية ••

وبعد أن انتهيت قال لى ان هذا الذى حدث لا شأن للاتحاد الاشتراكى به •• وأن الاتحاد الاشتراكى لايجب أن يقحم نفسه فى مسائل قانونية •• هو يعرف ان هناك خلافا فى لجنة القرية بين الأمين وبعض الاعضاء •• وقد كان من الممكن أن يسعى هو لحل الخلاف •• ولكن الامر تطور على نحو مذهل •• فالرجال المقبوض عليهم فى القرية نسبت اليهم اتهامات من اختصاص

القانون وحده • ولهذا قبضت عليهم الشرطة وليس من حق أحد أن يتدخل •• فالقانون هو القانون حتى وان كان قانونا رجعيا فمن الواجب احترامه حتى يغير ! ••

ثم رفع صوته فجأة وبدأ يتحدث بشكل منسق وخطابى وهو يشحن نفسه بانفعالات حاول أن يجعلها صادقة :

— فى الواقع أن لجان الاتحاد الاشتراكى يجب أن تكون لا قيادة فقط ولكن قدوة

وأعجبته كلماته •• فعاد يكرر :

— قيادة وقدوة •• كل لجنة هى قيادة وفى نفس الوقت قدوة •• فكون أن بعض المخربين من أعضاء لجان الاتحاد الاشتراكى يستغلوا مواقعهم لامتيازات خاصة يحصلوا عليها وحدهم •• لأ •• لأ •• أنا جالى هنا الأستاذ عبد المقصود وعبد العظيم •• أنا عارف يا بيه جميع أعضاء لجان الاتحاد الاشتراكى فى كل قرى المحافظة بالاسم •• والله اسم اسم تأكد يا بيه •• وشكل شكل •• وقالوا كلام كثير فيه اساءة للاتحاد الاشتراكى تصور يابيه •• ولنظامه •• وللاشتراكية ومثلها • واحتملتهم •• احتملتهم والله •• لكن • يعنى ايه لا يعترفوا برزق بيه أمين اللجنة ؟! يا سعادة البيه دى فوضى ! •• رزق بيه الثورى رئيس الجمعية التعاونية وأمين لجنة الاتحاد الاشتراكى فى القرية ؟ •• ازاى يعملوا اجتماع رغما عنه •• فين النظام الواجب احترامه واتباعه ؟ •• دى فوضى •• ثم ان رزق بك

رجـل بحق يعتبر يعنى .. اشتراكى منتج .. رجـل يساهم فى زيادة الدخل القومى بينما غيره يعنى أعداؤه أمثال عبد المقصود وعبد العظيم ناس بيعطلوا الانتاج .. أى فلاح أو أى عامل أو أى واحد يثير مناقشات تعطل العمل يعتبر مخرب .. مخرب قطعا .. ثم ان يعنى اسمح لى .. أى فلاح يثير الجو ضد المالك لمجرد انه مالك فهو يعتبر ضد الميثاق .. ده رزق بيه رجل له مكانته يا سعادة البيه .. ده كان فى هيئة التحرير وفى الاتحـاد القومى معايا والله .. هو رزق بيه ايه ؟ .. ده عنـده أقل من خمسـة وعشرين فدان .. يعنى فلاح طبعـ . فلاح برضـه بالمقيـاس الاشتراكى الصحيح .. احنا ضد الصراع الطبقى لكن دول يظهر انهم شيوعيين ! دول ناس بيثيروا الصراع الطبقى .. دول ناس ضد الاشتراكية .. دول شيوعيين .. ضد الميثـاق .. ويجب أخذهم بكل شدة .. ومع ذلك فهم طبعا محبوسين فى موضوع تانى .. أظن مسائل أخلاقية .. أو سرقة . مسائل يحسن طبعـا البعد عنها .. على أى حال دى مسائل قانونية .. لكن أنا حبيت أنورك . الفلاح اللى يعطل الانتـاج ويثير الشغب واللى يلقى شبهات على أى مسئول فى لجنة الاتحاد الاشتراكى وفى الجمعية التعاونية بتاعة القرية أو أى مسـئول فى الجمعية التعاونيـة .. هـذا الفلاح رجعى وشيوعى وعميل اقطاعى وضد الاشتراكية ومخرب ! أنا أنصـحك بالبعـد عن الموضوع ده فهو شائك و .. وعلى كل حال كلهم ارتحلوا لمصر والتحقيق هناك فى أيدى

أمينة لكن جايز يطول شهر والا اتنين والا ثلاثة ..

وهنا .. قام الفلاح الذى كان يقعد أمامى وهو يحملق فى يأس واشمئزاز وذعر . وكان صوت الأسـتاذ برعى قد ارتفع ، ويداه تلوحان بحرية ، وسبابته تشير الى الفضاء باتهام .. وتهتز بتهديد .

وجرى الفلاح مسرعا ، حتى اصطدم بالساعى الذى جـاء يحمل صينية عليها كوب الشاى وفنجان القهوة ..

والفلاح يجرى ويزعق :

ـ يا وقعة غبرا .. الله الغنى عن الشكوى ياعم .. سلامو عليكم قبل ماتطلعونى من هنـا رجعى ولا عميـل اقطاعى ولا شيوعى !

واندفع يقتحم الباب وقد انتزع من قدميه مداسـه بسرعة غريبة وأخذ يضرب به صدغيه .. وهو يصيح فى جزع ، وغيظ هائل .

ـ ونروح لمين بس ؟! .. نشتكى لمين ؟ يعنى نتضرب بالبلغ ونسكت ؟ وان اشتكيناهم يودونا فى داهية ! سـكتنا .. أهه .. سكتنا يابهوات .. سكتنا .. وسكتنا .

وانتفض الرجل يتطوح كالنادبات وهو يلطم بمداسه فوق صدغيه :

ـ وسكتنا .. وسكتنا .. ورضينا وسكتنا .

ثم تهدلت يداه وسقط مداسه .. وأنا والمحامى ننظر اليه فى

دهشة وقد سمرتنا المفاجأة فى مكانينا واجتمع حـوله فى مدخـل الباب بعض رجال من الفلاحين ومن العاملين فى لجنة الاتحاد •• ثم نظر الى السماء طويلا وسط الصمت والذهول ووجهه يتقلص فى جزع ، ورجاء ، ووجد •• ورفـع يديه الى السمـاء وصوته يتهدج مشحونا بضراعة فاجعة :

ـ ارحمنـا بقى يا رب •• يا رب •• على كل ظالم يا رب ! يا رب !

ووقع الرجل على الأرض

وأطبق صمت كالاسى ، لم تقطعه سوى زفرات سيجـار الهافانا الفاخرة من فم المحامى ، وهمهمة خافتة من أحد الواقفين :

« يارب ! »

ثم •• صوت بكاء الفلاح •• بكاء رجل •• فى الستين !

11

عندما انتهت الضجة من على باب الأستاذ برعى ، ذهب كل الى حاله •• ولم ينطق برعى ، وما كانت هناك قوة تستطيع أن تخرجنى من صمتى •

وأخذت أتأمل برعى • هذا الطراز الجديد من القادة ••

ودخل شاب صغير واضح الاناقة والوسامة ، أنثوى الوجه والحركات •• على بدنه بدلة فاخرة ، ورباط للرقبة من لون منديل وضع باتقان فى الجيب العلوى للبدلة •

وهمس الشاب للأستاذ برعى •• فرد الأستاذ :

ـ خليها تتفضل •

وخرج الشاب الأنيق ، الذى كان أحد العاملين فى سكرتارية الاستاذ كما يبدو وعاد يسحب فتاة طويلة بيضاء الوجه مليئـة الجسم ، ينسدل ثوبها الاسود الـريفى على بدن شاب واضح العنفوان •• يتحـرك فى حرج وينتفض بالحنق •• وصدرهـا يترجرج •• ونظرات برعى على نهديها •• الفتيتين •

وتقدمت الفتاة،وعلى وجهها الجميل ذعر وعيناها السوداوان الكبيرتان تدوران فى المكان بدهشة ، وهى تهمهم :

ـ عاوزين منى ايه بتى •• فين أبويا •• خدتوه على فين ••

هو عمل ايه يا افندية ؟ ضرب نفسه بالبلغة ؟ .. طيب يعمل ايه ؟ ودى جريمة فى الزمن ده ؟ .. يا بيه يا بتاع الاتحاد الاشتراكى أبويا راح فين ..

وصاح فيها السكرتير بضيق :

ــ أبوكى راح فى داهية .. خدوه عالحبس . خليكى هنا مع سعادة البيه .. وهو يطلعوه لك .

وانفجر صراخ الفتاة حادا مروعا بكل يأسها ..

ــ يا فضيحتى .. يا فضيحتى .

ــ بقى جايةأنا وأبويانشتكوا لكم الظلم تعملوا فينا كده .. ياقلة رجالتك يابا .. ياقلة رجالتى يانا .. الهى ربنا يفضحكم . ان شاء الله تنفضحوا فضيحة اللحم .. وفجأة أطبقت بكل قوتها على عنق السكرتير :

ــ حبستوا أبويه ؟ .. حبستوا أبويه ؟ وعاوزين منى ايه ؟ عاوزين منى ايه بقى .

وتخلص منها السكرتير بصعوبة .. وهى ما تزال تصرخ ..

وضغط الاستاذ برعى على جرس مكتبه .. فأقبل ساع عملاق .. وأشار اليه بعينيه ، فتدخل بين الفتاة والسكرتير .. وجذبها الى الخارج .. وصراخها يرج المكان .

والسكرتير وراءها يدفعها فى ظهرها وهو يشتمها ..

ما هذا كله ؟ .. يا أستاذ برعى ما هذا كله ..

وقدم لى الاستاذ برعى علبة سيجار فاخرة .. فاعتذرت

وعاد وجهه الى ابتسامته المطمئنة .. وهو ينظر الى :

ــ لا مؤاخذة على الازعاج ده .. احنا كنا بنقول فى ايه .. أيوه

ودخل السكرتير فجأة فقال :

ــ طردناها بره الاتحاد الاشتراكى خالص .. هى فاهمه ايه .. ثم نظر الى يحدثنى بلا معرفة سابقة وكأنه يدافع عن اتهام !

ــ احنا كنا عاوزينها تسمع من سعادة البيه بنفسه انأبوها مش حايحصل له خاجة .. تحقيق بسيط ويطلع .. لأنه ضرب نفسه بالبلغة .. ودى معناها وحش خالص .. سعادتك طبعا عارف احنا كنا عاوزينها تطمن من سعادة البيه شخصيا أن أبوها بخير ، لكن الفلاحين دول نيتهم وحشة وتفكيرهم دايما وحش وقلبهم أسود .. الحمارة .. هى حرة . حاجة غريبة . ايه ده .. .. فلاحين كده زى البهايم ..

فزعق فيه الاستاذ برعى :

ــ عيب يا ولد .. عيب تقول كده على الفلاحين .. ده كلام رجعى .. خليك ثورى

وعدت أشرح للأستاذ برعى حقيقة الوضع فى القرية ومايصنعه رزق ، وأذكر له أنسلوك رزقهو السلوكالمجافىللروحالاشتراكية ولكنه قاطعنى مبتسما :

ــأنا عارف كل حاجة .. لكن أنا مش من رأيك .. رزق بك هــو نموذج الاشتراكى .. مش لأنه صــديقى .. أنا والله

علاقتى به سطحية جدا •• لكن لأنه رجل منتج وكفء كفلاح ، ثم لانه يا أخى متمسك بالنظام •• يبقى رجعى ؟ •• ما هو احنا لو تركنا أى فلاح يهين المالك الأكبر منه •• تبقى المسألةفوضى • اللى عملوه الجماعة دول اسمه شغب •• شغب وتخريب فى النظام الاشتراكى ••

ونظرت اليه فى حيرة ••

كنت أصدق ان ما يجعله يدافع عن رزق الى هذا الحد ليس هو الصداقة •

كنت أصدق أنه ليس صديقا لرزق ، فأنا أعرف أن لرزق صديقا آخر أو صديقين فى لجنة المحافظة •• ولكن كيف يمكن التفاهم مع رجل مثل الأستاذ برعى •• هاهو ذا رجل فى قيادة لجنة المحافظة وها هى ذى نظرته الى دفاع الفلاح عن حقه ••

لاشىء يمكن أن يغير آراءه ••

انها مصالحه هى التى تشكل نظراته للامور •• ولكنه يجب ألا يبقى فى مكانه •• فى قيادة التنظيم الاشتراكى للمحافظة ••

الفلاحون وحدهم هم القادرون على أن يكشفوه ويخلعوه من مكانه ليضعوا مكانه رجلا ينطق بمصالحهم ويعبر عنهم ••

وسألته وأنا أقف ان كان هذا هو تقديره النهائى للموقف • فأجابنى :

ـ على أى حال أنا فى موقع يسمح لى بوضوح الرؤية •• ووضوح الرؤية يا بيه أهم شىء فى كفاحنا الاشتراكى والموضوع

موضوع قانونى لا سياسى •• الاتهامات الموجهة اليهم اتهامات خطيرة جدا وتقع تحت طائلة القانون •• وأنا كان ممكن أروح أحضر التحقيق معهم كمحامى •• ده صحيح •• ولكن ده يعتبر شبه تدخل فى مسائل قانونية وأنا موقفى حساس بصفتى أحد المسئولين الثوريين فى الاتحاد الاشتراكى بالمحافظة •• وعلى كل حال أنا وقتى كله ملك للناس •• للفلاح •• للشعب •• بس الموضوع حرج •• أنا مضحى بمكتبى وبكل وقتى ومقيم فى موقعى هنا •• ليل نهار فى الاتحاد الاشتراكى •• أنا لا أتحدث عن تضحياتى •• لكن •• دى مسئولية •• أنا رجل ثورى •• على العموم ثق ان الموضوع فى أيدى عادلة وأمينة ووالله اذا ثبت للمحققين براءتهم من الاتهامات الموجهة اليهم فلا توجد قوة تبقيهم فى السجن أما ان ثبت العكس فلا بد من المطالبة بفصلهم من مواقعهم •• ويبقى سجنهم فى مصر يا عزيزى هو عين الجد الموضوع قانونى •• قانونى وفى ايدى أمينة فى مصر •• فى يد الجهات العليا •• ده موضوع قانونى مش سياسى •

ارتفع صوت غريب بلهجة عنيفة :

ـ الموضوع سياسى وأبوه سياسى كمان يا أستاذ

كان شاب فى نحو الثلاثين يقف فى الحجرة ، نحيلا متوسط الطول ، على وجهه ضنى خفيف ، وعيناه حادتان ، وفى جفونه أثر السهر ••

وكان عصبيا بعض الشيء .. بذلته متواضعة، شفتاه مطبقتان باحكام تحت شارب رفيع منسق .

وعلى الرغم من وجهه المتوتر المعذب فقد كانت تشيع فى سمرة وجهه المستدير طيبة يستريح لها المتأمل ، وفى نظراته الحادة نفاذ مشع ، وشيء ما .. حالم .

واضطرب الاستاذ برعى فجأة . وأخذت أتأمل وجه الشاب .. والشاب ينظر اليه من تحت حاجبين مرفوعين وجبين متغضن ، تلك الغضون التى ترسمها الدهشة .

قال برعى وهو يحاول أن يبتسم :

ـ الله باسم الله الرحمن الرحيم .. هم بيطلعوا امتى .. انت جيت امتى يا أسطى .

ـ أنا باقول لك الموضوع موضوع سياسى مش قانونى .

كفاية بقى يا أستاذ برعى . كفاية بقى . الحكاية زادت قوى ولايمكن السكوت عليها ثم جهات عليا ايه . ايه الجهات دى اللى بتقول عليها !؟

وضحك الأستاذ برعى بلا مناسبة ..

كان واضحا انه يحاول أن يغمر شيئا فى ضجيج ضحكاته المدوية ..

وتقدم خارج مكتبه وعانق الشاب الغريب فى مودة وربت على كتفه قائلا وهو يقدمه لى :

ـ المهندس عمار الشبينى .. عضو معانا فى لجنة الاتحاد

الاشتراكى بالمحافظة ورئيس قسم بمصنع النسيج .. انت رئيس قسم ايه .. ياباشمهندس .. ده جديد فى العمل السياسى .. لا كان فى هيئة التحرير ولا فى الاتحاد القومى .. مش كده ياباشمهندس .

وقاطعه الشاب وهو يقدم نفسه لى :

ـ أنا مش مهندس .. أنا عامل فنى فى مصنع النسيج وعضو لجنة الاتحاد الاشتراكى فى المصنع وفى المحافظة .. أنا دخلت على الخطبة بتاعة الاستاذ .. لا مؤاخذة .. الصراع بقى مر .. وهو مش ضد بقايا الاقطاع وجيوبه والجيوب الرأسمالية بس .. ده الصراع الخطير ضد الانتهازية وحملة الشعارات .. ضد انتهازية اليسار .. اليمين واضح قدامنا ومكشوف واحنا قادرين عليه .. واليمين مضروب .. لكن الخطورة الحقيقية من انتهازية اليسار لأنها فى رأيى محتلة أماكن قيادية حساسة .. وهى العدو الخفى المتسرب فى صفوفنا .. وهى فى نفس خطورة اليمين . أو ربما أخطر لأنها مستخبية ! وأنا باتهم .. وباطالب باجتماع سريع أنا أتهم كل من تسبب فى ضرب العناصر الثورية . يعنى فى القبض على الاستاذ عبد المقصود وعبد العظيم وسالم وهلالى وكل من شارك فى القبض عليهم ومن حاول تشويههم .. أنا أتهم ..

ونظر اليه الاستاذ برعى مبتسما فى تودد ..

ـ الله ؟ انت حافظ أسماءهم كويس أهه .. والله برافو عليك

ياعمار •• من وردية المصنع للاتحاد الاشتراكى للبحث فى مشاكل الجماهير •• اشـتراكى تمام •• بس لولا التطرف بتاعك اللى حايضيعك •• خسارة ! •• حاسب على نفسك أحسن لك •• احنا بلد اشتراكية معتدلة لا متطرفة ! •• بلاش تطرف !

ــ انتم بتجيبـوا الأفكار دى منين ؟ •• الأفكار دى تخفى عداء للاشتراكية !••

ــ لا •• لا •• أنا لا أسمح لك •• من فضلك •• اعتذر عن هذه الاهانة •• دى اهانة كبيرة قوى •• جـدا • جدا • اهانة فظيعة خالص •

واكفهر الجو ••

وشعرت بالراحة تغمر الضيق الذى صنعه لى حديث الاستاذ برعى •• وظل برعى يكرر لعمار :

ــ اعتذر •• هذه الاهانة أنا لا أقبلها •• اعتـذر •• انت عندك انحرافات يسارية شديدة وأنا لا أقبل هـذه الاهانة ! •• أفكارك هذه مستوردة ••

واحتد عمار :

ــ انت تعرف يعنى ايه واحد مناضل اشتراكى يقبض عليـه فى عهد الاشتراكية •• تعرف يعنى ايه يقبض على واحد برىء••• انت تفهم ايه علاقة الحرية بالاشـتراكية •• حرية الانسـان هى أكبر وأهم خصائص الاشتراكية لكن أمثالك بأسلوبهم الارهابى البوليسى ده بيحولوا الاشتراكية الى نقمة الى لعنة •• وبالطريقة

دى تخوفوا الناس وتكرهوهم فى الاشتراكية وتبلبلوا الأفكار وتخلقوا حالة ذعر تدمر القوى المنتجة وتضيع حالة الثقة والاستقرار والأمل النفسى اللى كل منتج لازم يشـعر بها علشـان يعرف ينتج ! •• فاهم •• يا أخى التجارب الاشتراكية فى كل بلاد العالم أثبتت أن عـدم احترام الحريات العـامة هو اللى أخر التطور الاشـتراكى •• انتم أعـداء التطور الاشتراكى •• انتم فرديين ارهابيين •• عاوزين مصالحكم وبس ، ولتحموا هيبتكم ومصالحكم بقوة البوليس •• ده تخريب وهمجية ! انت فاهم أظن انك انت الاشتراكى الأوحد ؟! علشان يعنى ما انت بتعرف تتكلم وتضحك فى وش الناس •• لا يا أستاذ •• لا •• لا • لازم يا حضرة القائد الاشتراكى تفهـم كويس ان الحرية هى جوهر الاشتراكية •• والحرية دى تخوف أمثالك من الطبقة الجديدة طبعا لأنها بتكشف الانتهازيين وحملة الشعارات وأعداء الاشتراكيـة والحرية •• والناس اللى هم بتوع مصالحهم أمثالك طبعا مايقدروش يواجهوا عامل أو فلاح أو مثقف فقير • فى مناقشة حقيقية وعادلة •• أسهل حاجة عندهم توجيه الاتهام وقمع الحريات •• انتم لعنة •

وانفجر برعى :

ــ أنا محامى كبير ولا أسمح لعامل زيك انه يوجه لى اهانات • ويتهمنى بالتخريب • أنا اشتراكى أحسن منك ميت مرة • وأفيد منك للمجتمع الاشتراكى • مجتمع الانتاج والتوجيه •• مجتمع الكفاية والعدل •

وضحك عمار ..

ثم عاد يقول بهدوء وهو يتأمل برعى يرتجف ويصفر :

ـ طب اتعلموها منا بقى .. اتعلم منى أنا حاجة بقى .. ماهى الاشتراكية دى بتاعة العمال والفلاحين والمثقفين الواقفين معهم واللى يمثلوهم . الاشتراكية دى طريق لسعادة الانسان، آخر طريق اهتدى له العقل البشرى .. وقبلة كانت فيه محاولات كتير .. من أول الأديان السماوية اللى نزلت كلها علشان اسعاد الناس لحد آخر الأفكار فى القرن العشرين .. والكفاية والعدل اللى انت بترددهم من غير ماتفهمهم دول ضمانهم حاجة واحدة : الحرية . حرية الانسان يا أستاذ برعى . فى المجتمعات الرأسمالية والاقطاعية مفيش حرية بالمعنى الصحيح لأن الضغط الاقتصادى والحاجة بتحدد حرية الانسان .. فى الاشتراكية بقى لافيه ضغط اقتصادى ولا فيه احتياج .. لأننا احنا الشعب بنملك كل أدوات الانتاج والتجارة والبنوك وكله .. ولأن الاشتراكية انتاج وسد احتياجات .. يجب بقى أن الانسان يمارس كل حرياته ويشعر بأمان .. لكن فى مرحلة التحول الاشتراكى الحرية مش فى مصلحة أمثالك .. ولا فى مصلحة ماركة المديرين اللى عاوزين يختفوا وراء الشعارات . الحرية بتكشف انحرافهم أو قصورهم أو تطلعاتهم الطبقية .. لكن احنا حنناضل باستمرار فى سبيل الاشتراكية الصحيحة .. الاشتراكية الحقيقية اللى جوهرها الحرية . والا انت فاهم إن

الانسان انكتب عليه العذاب فى كل النظم حتى فى عهد الاشتراكية كمان ؟ .. الاشتراكية حرية يا أستاذ .. انطلاق .. انسانية . عدالة حقيقية يا أستاذ .. فهمت .. خلوا الناس تنطلق وتفرح وتهيص وتتمتع بالحياة ، خايفين من ايه ؟ .. عاوزين تتمتع ببهجة العمل والانتاج والحب .. ادى الاشتراكية صحيح .. فهمت ..

وصاح الأستاذ برعى :

ـ انت حاتعلمنى .. انت جاى تلقى على محاضرات .. أنا أعلم ألف زيك ! .. أنا عارف عقدة الثقافة اللى عند لعمال .. الواحد منهم يقرأ كلمتين علشان يتفلسف بهم على المثقفين : أنا أمنعك من التدخل فيما لايعنيك ..

ونظر اليه عمار فى ثبات ، وهز رأسه فى اشفاق .. ثم قال بهدوء غريب :

ـ على العموم .. كل ده يعنينى .. يعنى شغلى ، ولازم لجنة المحافظة تجتمع فورا وتبحث الموضوع وتبعت برقية لأمين المحافظة يقطع رحلته للسد العالى ويعتذر للضيوف الأجانب اللى راح معاهم ويجى علشان نواجه الموضوع ده .. الموضوع مش صغير زى ما انت فاهم .. ده .. ده تخريب فى الاشتراكية باسم الاشتراكية . تقبضوا على الناس ازاى من غير جريمة .. لازم تتحاسب ونبعد المنحرفين عن مراكز القيادة الشعبية ! .. بتدوا أوامر لضابط المباحث بالقبض على الناس بصفة ايه .. وهو ينفذ ازاى ده ؟!

وبهرنى عمار الشبينى ..

ولكنى لم أستطع أن أبقى لأتابع المناقشة ! كنت مشغولا بالبحث عن طريقة عاجلة للافراج عن رجال قريتى ..

وشددت على يده معجبا ، وكلى ثقة بأن مثل هذا الرجل هو الذى يستطيع أن ينتشل العصر من الذين يهيلون فوقه التراب .

وأسرعت الى ضابط المباحث الذى تحدث عنه عمار .. ولكنه أكد لى أنه لايعرف شيئا عن الأمر .

فواجهته بأنى عرفت من مكتب الاتحاد الاشتراكى انه هو الذى قبض على رجال القرية ، بغير حق .

فاحتج على كلماتى وقال لى انه ضابط اشتراكى مخلص والأمر سرى لايستطيع أن يتحدث فيه .

ثم نصحنى أن أبتعد عن هذا الموضوع ، فهو شائك وله نواح أخلاقية .. والجهات العليا على أية حال هى التى أمرت بالتحفظ على هؤلاء الرجال ! ..

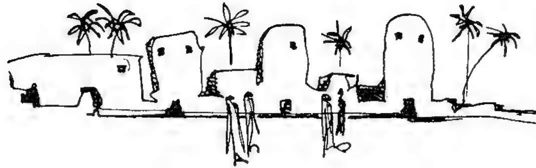
وسألته أية جهات عليا يعنى ؟

فلم يجب . وقال باذعان مصطنع أن الأمر ليس بيده .. وهذا غاية مايستطيع أن يقول .

وودعنى بابتسامة مهذبة وهو يقترح على أن أسأل الضابط الذى فى الحجرة المجاورة .

وفى الحجرة المجاورة قال لى الضابط الموجود انه لايعرف شيئا عن أمر كهذا .. وان الرجال لايمكن أن يكونوا محبوسين .

وذهبت الى حجرة مجاورة أخرى . فلعلها هى التى يعنيها ضابط المباحث ووجدت ضابطا صغير السن مقطب الوجه يجلس على مكتب وأمامه طابور طويل من رجال ونساء فى ملابس فقيرة كل يقدم شكوى .. وهم يتحدثون فى وقت واحد . وانتظرت دورى .. والضابط يشتم رجلا وهو يناقشه فى شكواه والرجل مرتبك يهرش جسمه ورأسه ويبلع ريقه ويلم جلبابه لكيلا يلمس المكتب ..



12

وما زال الضابط يلعن اليوم الذى ترك فيه القاهرة ليخدم فى الأرياف .

والرجل الواقف أمام الضابط يقرأ لافتة كبيرة أنيقة على الحائط كتب عليها (الشرطة فى خدمة الشعب) .

وزعق الرجل بغتة :

ماكفاية شتايم وامارة ومنظرة بقى وتقرا اليافطة اللى انت قاعد تحتها وتعمل بها والا هى يفط وخلاص .

وضج الطابور الطويل بالضحك ..

وارتفع من آخر الطابور صوت حاسم :

ـ مضبوط .. الرجل له حق ياحضرة الضابط ..

ووقف الضابط فجأة وأدى تحية عسكرية :

ـ (أيوه ياسيادة المدير) ..

وسرت همهمة (مدير الأمن .. مدير الأمن) .

واستدرت اليه لأكلمه فسلم فى أدب جم وأخذنى الى غرفته .. وقدمت شكواى .. وبان على وجهه اهتمام شديد ..

وبدأ يستنكر بحماس كل ماحدث لرجال قريتى وكلام ضابط المباحث .. من هو هذا الرجل ؟! .. هذا الوجه أعرفه ..

وارتفع صوته مجلجلا حادا .. وهذا الصوت أيضا .. وعلى

الرغم من الشعرات البيض والتعب الذى يلفح هذا الوجه فما زلت أذكر انى أعرفه !

هذه النظرات ! ما أروع أن نسترجع بغتة ذكريات أيام مرت منذ ثلاثين عاما على شعاع من عين صديق قديم .

الفرماوى ؟! .. الفرماوى ..

وتعانقنا .. انه زميل الخديوية القديم ..

وتبادلنا الذكريات السريعة .. آه .. وأيام تعودنا أن نسمع الشيخ رفعت كل جمعة وذات يوم بعد الصلاة وقف رجل يخطب الناس .. كان من فلسطين .. مفتى يافا .. يا للروعة التى يثيرها اسم البلد .. كان يحذر العرب مما يصنعه الانجليز الذى يمهدون لتسليم فلسطين لليهود .. تلك الجمعة من سنة ١٩٣٥ .. فليتحرك العرب ليمنعوا الكارثة قبل أن تقع . والانجليز هنا أيضا يهدرون كرامة الوطن والمظاهرات لاتهدأ والشهداء يسقطون ! ..

ووقف الفرماوى فى الجامع وانفجر يخطب بعد أن انتهى مفتى يافا . ثم اختنقت كلماته فى الدموع ..

انت دائما تغضب للحق يافرماوى ، ولكرامة الانسان .

وطلب مدير الأمن من ضابط المباحث أن يعرض عليه الأمر على الفور ليتصرف فيه .. وتعلل الضابط بأن التحقيق لم ينته بعد وان فى الأمر جرائم . فليست المسألة خلافات سياسية كما صورت له ..

وطلب منه مدير الأمن تقريرا كاملا وسريعا عن الموضوع

كله •• ولوح له ضابط المباحث بأن الأمر له أسرار عليا •

ولــكن مدير الأمن صمم على أن يفرغ الضابط من تقريره على الفور وأن يضع فيه وجهة نظره كاملة •• فلماذا رحل الرجال الى القاهرة والى أية جهة أرسلهم !

وعندما ودعنى مدير الأمن على باب غرفته كنت مازلت أرى فى عينيه تلك الالتماعة الدافقة المتفائلة التى عرفتهــا منــذ ثلاثين عاما •• وأكد لى أن الرجال سيبيتون فى دورهم بعد ليلة أو ليـلتين وانه قادر على استرجاعهم من القاهرة !

ولكنهم لم يخرجوا ••

ومر يوم آخر وأنا أنتظرهم مع أهل القرية ••

وعدت الى مدير الأمن ، فلم أجده ••

كان فى تفتيش ببعض المراكز •• وقابلت ضـابط المبـاحث فاعتذر عن الكلام ولوح لى بسخرية خفية أن مدير الأمن يضــع نفسه فى مأزق ، ويتعرض لمشاكل أعلى منه ! ••

وبحثت عن العامل عمار الشبينى ••

لم أجده فى الاتحاد الاشتراكى •• وقالوا لى انه غائب منذ يومين •• وسألت عنه فى المصنع فقال لى أحد زملائه انه اختفى فجأة بلا أجازة ••

اختفى ؟ •• أين ؟ ••

أيكون ضابط المباحث والأستاذ برعى قد أدركاه ! ••

وهمس لى أحد العمال وأنا أخرج :

ــ ربنا يستر ! •• عمره ماغاب من غــير أجازة •• حتى لما يغيب ساعة يبعث ياخدها أجازة ! •• ربنا يلطف •• حاكم أعداؤه هنا كتير قوى الاستاذ برعى مايطيقوش !

وعــدت أسأل الاســتاذ برعى عن عمــار فلم يجب وقال باستخفاف :

ــ ده زعيم كبير •• يمكن راح مصر يلقى محاضرات ! •• والا يعلمهم هناك معنى الاشتراكية •

وعدت الى قريتى ، وقد قررت أن أسافر الى القــاهرة •• فما من شىء أستطيع أن أفعله هنا من أجل الرجال •• ربما استطعت أن أثير الأمر كله فى القاهرة ••

وفى قريتى علمت أن رزق قد عاد ، وعاد معه الرجل الغريب الذى يقول عن نفسه انه مندوب الحكومة •• عاد يقول للناس انه هو الذى نقل المشرف •

وأطلق توفيق حسنين فى القرية ينــذر النـاس ألا يتعرضوا لرزق بيــه •• والا فلديه تفويض من القاهرة أن يؤدب القرية العاصية ان هى قالت أى كلام يمس المشرف المنقول أو رزق بيه أو مشرف الجمعية التعاونية •• لا كلام عن كل هذا لأى شخص ولا لأية جهة ! •• حتى الذين جاءوا يحققون •• لا اجابة لأسئلتهم •• الا الحمد والشكر •• وكفى !

وفى الطريق من قريتى الى حيث استقل العربة الكبيرة الى

القاهرة كانت الوجوه خاشعة يلفحها الصمت ، وفى العيون رفض لكل مايحدث .. وفى الأعماق توجسات حارقة تفضحها الزفرات .. وهمسات تتساءل : أرسلنا الشكاوى فما رد علينا أحد .. وعاد الينا رزق بالرجل الغريب ! ..

لماذا تكتم الحقيقة على من جاءوا يحققون ؟

وفوق الرؤوس المنكسة صمت حزين يخفق فيه سؤال كظيم :
أكتب علينا أن نشقى .. حتى عندما يأتى الزمن السعيد الذى عملنا من أجله وعشنا نحلم به ؟! ..

غير أن هذا كله كان ضد ايمانهم المطمئن بانتصار الحق والخير والعدل وضد ايمانهم بانتصار الحياة ، وثقتهم فى المستقبل .

امتلأ جامع القرية بالمصلين ، ونودى للصلاة من يوم الجمعة ، وما عاد الاستاذ عبد المقصود بعد ليخطب فى الناس ، ويؤمهم كما حدث فى الجمع الماضية وفى مائة جمعة من قبل ! ..

لم يحسب أحد لهذا الغياب حسابا ..

حتى الشيخ طلبة .. الذى كان عبد المقصود يؤم الناس ويخطب فيهم بدلا منه فيريحه من وجع القلب ، كل جمعة ، وان كان ليشق عليه أن يأخذ مكانه وأن يقول للناس من على المنبر نفسه كلاما جديدا عن الحياة والمستقبل والمصير ، لم يرد حرف واحد منه فى كتاب خطب الجمعة الذى توارثته المساجد من قديم الأزل ! ..

ماعسى أن يصنع الناس الآن ؟! من يخطب فيهم ؟ .. وصوت المؤذن يلعلع ويمتد عبر الدور الصغيرة الداكنة ، ويقتحم الشوارع التى تخلف فيها ماء المطر ، ليصنع بركا صغيرة ألقيت فيها الأحجار وعيدان من قش الذرة ليعبر عليها الناس وينقر فيها الاوز الأخضر الطفل .

ان هذا الصوت الداعى الى الصلاة ليجتاز شوارع القرية وبيوتها الصغيرة ، ليتناهى الى الحقول الخضراء ، ويكاد يعانق على حدودها المترامية ذؤابات التوت وهامات النخيل .. والناس فى جامع القرية ينظرون الى الباب فى أمل لعل الأستاذ عبد المقصود يدخل بغتة !

قادر على كل شىء ! .. ولكنه لم يشأ بعد ..

هذه النظرات التى انعقدت بها القلوب لكم تطلعت الى الطريق الزراعى تتأمل العربات الكبيرة القادمة من عاصمة الاقليم فى طريقها الى القاهرة اذ تهدىء من سيرها عند المنحنى الذى تقع عليه القرية ، لعلها أن تقف فينزل منها عبد المقصود وعبد العظيم وسالم والخفير هلالى .

كانت هذه العربات تقف دائما بعد العصر ، ولكن لتفرغ حمولتها من أبناء القرية وبناتها الذين يدرسون فى المدارس الثانوية أو الفنية بعاصمة الاقليم ..

ولا أحد بعد !

خمسة أيام مرت بلياليها الثقيلة السوداء المرتعدة وأيامها المرهقة ، وما عاد أحد من الرجال الأربعة ! .. ياه .. والحقول؟

زرعة القمح فى حقل عبد العظيم ؟! فى أى يوم يجب أن تروى !؟

هو وحده يعرف .. والأرض التى مهدها الخفير هلالى ليزرع فيها القطن .. متى يجب أن تلقى فيها البذور ؟ لا أحـد غيره يعرف ..

والدرس الذى وقف عنده الأستاذ عبد المقصود فى فصول محو الأمية ؟ والدروس التى وقف عندها الاولاد والبنـات فى الصفوف المختلفة بالمدرسة الابتدائية ؟!

من غير عبد المقصود يتم هذا العمل وكل مدرس فى المدرسة له حمله الصعب ؟ .. والأسمدة فى الجمعية التعاونية أيوزعهـا رزق أم توفيق حسنين الذى يأكل مال النبى ؟!

وسالم المسكين الذى ينتظره الفدانان فى أرض الاصلاح؟.. سيركب الفدانين من جديد ، وسيحصـد هو الثمرات ، فكل ما أجراه المشرف المنقول من تزوير ، سيصلحه المشرف الجديد .

انه يعرف كل شيء .. ولئن كان الرجل الغريب الذى جاء من القاهرة يقول عن نفسه انه ممثل الحكومة ، لئن كان هـذا الرجل الغريب قد استطاع أن يمنع أهل القرية من الاتصال بالمشرف الجديد ومن الرد على أسئلته ، ان رجالا آخرين من قرى أخرى قالوا له كل شيء .. وهو على أية حال مازال يلح على أهل القرية أن يقولوا هم أيضا ..

لو أن سالم هنا لقال وقال ، ولما استطاع أحد أن يمنعه .. أمه انصاف خافت ، ولم ترح للمشرف الجديد عندما استدعاها !

لم تخف الوزير وشكت له .. ولكنها تخاف تهديد هذا الرجل الغريب القادم من القاهرة الذى ينذر الناس باسم الحكومة ..

متى يعود الرجال المسجونون ، فتتغلب القرية على هـذا الخوف وتتخلص من القهر ؟! أيام وأيام ! .. كل لحظة من لحظاتها المتوترة المقبضة ، أبد بأسره .. يطحن القرية المقهورة !

على أن احساسا غامضا يشيع فى القرية منذ أول الصباح.. ان الرجال لابد أن يعودوا اليوم !

حلمت انصاف أن الرجال جاءوا الى القرية فى ثياب بيضاء على ظهور أفراس أربعة بيض ! .. وفى الغبار الذى اثارته الخيل ، اختفى رزق ، والرجـل الغريب القـادم من المدينـة ، وتوفيق حسنين !

وقالت القرية كلها : خير .. اللهم اجعله خيرا ..

أما الشيخ طلبة فهش لانصاف وهى تحكى له الحلم وتسأله التفسير وهمهم :

ــ الأربعة فى ملابس بيضاء على خيول بيضاء .. نصر والله .. نصرة يابنت يا انصاف ، الحلم مفسر نفسه .

ولكنها عندما أتمت له وصف مارأته فى الحلم : الغبار المثار والذين اختفوا فيه ، مال الشيخ عليها برقبته ، وقلبـه يدق من الخوف ، وبلع ريقه .. وسكت

ثم عاد يهز رأسه ويدفع ــ بضحكات متكسرة ــ غاشية الرهبة التى دهمته ..

ونصحها ألا تروى هـذا الجزء من الحلم لأحـد لـكيلا يفسد الحلم !

وأخيرا قال لها وهو ينحيها بعيـدا عنه وما زالت ضحكاته المتكسرة تدافع خوفه ..

ـ على كل حال يابت يا انصاف ، على كل حال .. دهدى.. أهى أضغاث أحلام ، أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحـلام بعالمين ! روحى زورى مقام سيدك مسعود واقرى له الفـاتحة ! الحلم أوله خير وآخره أضغاث أحلام .. أهه !

وخرجت انصاف مسرعة الى مقام سيدى مسعود ..

ولكن تفيدة بنت الشيخ طلبة جرت وراء انصاف الى الحقول تحت ذلك الصباح الذى كانت شمسه الفاترة لم تقو بعد على أن تنفض الندى عن أوراق البرسيم ! .. حبات هذا النـدى فوق الأوراق الطفلة الغضـة أشبه بدموعك ياتفيـدة على أحلامك الصغيرة !

آه .. حلمت ياخاله أم سالم ! سـالم ان شاء الله يحرسـه لشبابه ويحميه لك ولأهل البلد كلهم .. ولك يابنت ياتفيدة .. ان شاء الله ! آه ياخاله أم سالم .. حلمت والنبى ان سالم رجع يلبس أخضر فى أخضر والدم يقفز من خديه وكله صحة وعافيـة وعلى كتفه شـال من الحرير ، يتبختر كالديك الرومى ، بحـذاء أصفر طويل الرقبة لم تعرفه أبدا رجله الحافيـة .. وهو يمشى ياخاله أم سالم فى الخضرة الفسيحة .. وأنا أجرى اليه لابسـة

الحرير بلون الورد ، الورد ياخاله أم سالم وفى يدى زهور بيضاء، زهور برتقال ، وفل .. و .. وتقابلنا ياخاله أم سالم على أرض خضراء ريانة ، واذا الخضرة .. الخضرة نفسـها أصبحت فراش عرس !

واحمر وجه تفيدة وتعثرت كلماتها ، ولم تحك بقية الحـلم فقالت لها أم سالم انها الدنيا مقبلة على ابنها سـالم .. والخير والبركة يابنتى ياتفيدة والفرح لك وله .. ولنا جميعا ياتفيـدة يابنت طلبة .

وخرج الشيخ طلبة من بيته ذلك الصباح، يحس الشوق للرجال الغائبين .. ويقول للناس ان غياب الرجال هذه الأيام كلها دليل على غضب سيدى مسعود ، وهو غاضب منذ امتنعت القرية عن اقامة مولده وغضب أولياء الله شديد ، فأنذروا الله يا أهل القرية أن تقيمـوا مولد سيدى مسعود من عامكم هذا ان عـاد الرجـال اليـوم بسلامة الله !

ومضى هو الى الضريح يقرأ سورة يس وتبـارك وبعض مايحفظ من أدعية ويسأل سيدى مسعود الرضا .. نظرة ياسيدنا الولى ! .. مددك يا ولى الله !

وقال رجال فى القرية ، ما لسيدى مسعود يغضب علينا ؟!

بل هو الرجل الغريب القادم من المدينة لا سيـدى مسعود فنحن لم نقم له مولدا منذ سنوات وما غضب ، وما أصابت القرية لعنة ، بل زاد فيها الخير .. فسيدى مسعود يرضيه البر ونفـع

العباد أكثر مما يرضيه أن تنفق القرية فى مولده على الغوازي والرجال الغرباء ذوى الشعور الطويلة ٠

وتحت شمس الصباح الوانية الرحبة مضى النساء الى الضريح خارج القرية ، وعبرن مسارب حقول البرسيم ، وتفضن بأقدامهن العارية حبات الندى عن الأوراق الغضة ٠

كان للندى على أقدامهن مس لذيذ ، يثير النشاط والبهجة فى القلوب التى أثقلتها هموم الأيام الذاهبة ٠

وصعدن تلالا من القبور القديمة ، وفى أعلى التلال كانت الحقول المترامية الخضراء تمتد أمام عيونهن المنداة ٠

الحقول أيضا كأنما يلفها الدمع !

هذه هى الحقول ٠٠ فأين الرجال ؟!

غياب أربعة هم زينة رجال القرية ٠٠ لكأن القرية بكل دورها وأطفالها وحقولها وأشجارها ونخيلها ، أرض خراب !

ودخل النساء الى مقام سيدى مسعود ، واستلمن القضبان النحاسية وتعلقن بالأستار الخضراء ، وتعالى فى هذا الركن أو ذاك نشيج ، وارتفعت صيحة مبحوحة تطفر بها الدموع ٠٠ كفى ٠٠ كفى يا أم سالم ٠ وتعالت الأصوات تنذر لسيدى مسعود ان خرج الرجال اليوم كما قالت الاحلام ان تملأ كل واحدة منهن ماء السبيل فى يوم معلوم ٠

لن يجف الماء فى السبيل أبدا على مدار العام ٠٠

نذر علينا يا سيدى مسعود ، والنذر أمانة !

ونودى للصلاة والنساء يتفرقن الى البيوت ٠٠ والدعوات تتصاعد على أبخرة ثقيلة من العود والطيب يتصاعد شذاها من الطاقات الصغيرة وينعقد أمام البيوت فى شوارع القرية حيث تناثر بعض طلاب المدارس الثانوية ٠

ومن أمام دكان الحلاق انفلت الحلاق يدفع بعض الطلبة المتجمعين ٠

ــ يا للا بقى ٠٠ الجمعة ادنت ٠٠ وخذوا زينتكم عند كل مسجد ! ٠ وأنا زينتكم كلكم ، واقفين ليه بلا قافية ! ياللاعالجامع

ورد طالب :

ــ يعنى مستعجل قوى ليه كده يا أسطى ٠٠

ــ مستعجل ؟ ٠٠ يعنى لو كان ولا مؤاخذة فيه ماتش كورة مش صلاة جمعة ، مش كنت رمحت زى الرهوان يا سيدنا لفندى ؟!

كان الحلاق يندفع فى طريقه تاركا الطلبة واقفين ، دون أن يترك فرصة الرد عليه لأحد ٠ وناداه الطالب الذى كان يناقشه :

ــ ما تستنى لبعد الخطبة ٠٠ انت يعنى رايح تسمع مين فى الجامع حاتسمع الأستاذ عبد المقصود يعنى ؟

وتوقف الحلاق وهز رأسه ٠٠ ونظر الى الطلبة فى حسرة ثم عاود السير فى اتجاه الجامع مثقل الخطوات ، وهو يتحسس رأسه ويحكم الطاقية عليها ٠

وقال الطالب الذى كان يناقش الحلاق :

ـ واحنا حانسكت كده على حبس رجالة البلد ؟ ما كفاية اللى سكتناه .. لازم يبقى لنا موقف .. أمال طليعة متعلمة ازاى ؟

وهز طالب آخر كتفيه ، وأدار مؤشر (ترانزستور) صغير بيده وحركه من على المحطة التى تذيع القرآن الى محطة أخرى فاذا بها تذيع تمثيلية عن الفلاحين .. وزعق طالب آخر :

ـ لأ خللينا عالقرآن أحسن .. الواحد كفر من التمثيليات المفتعلة اللى عن الفلاحين ..

ومرت طالبة فى ثوب صوفى بلون البنفسج فابتسمت وهى تسمع الحديث ، واهتزجسدها المختال الذىيبدو خجلا وسعيدا بأنوثته الجديدة ورمقت الطالب الذى يتحدث بعينيها الواسعتين، فاستمر كأنه يخطب ، يعلن رفضه لكل مايسمعه أو يقرأه وتقدم هو بحركة رشيقة مزهوة فأعاد مؤشر الترانزستور الى المحطةالتى تذيع القرآن قائلا بخفة :

ـ القرآن أرحم !

ورد الطالب الأول الذى كان يناقش الحلاق :

ـ يعنى عاوزهم يذيعوا أغانى الخنافس ؟

ـ لا ياسى عدلى .. عاوز أسمع الكورة

واختفت الطالبة فى أحد منحنيات القرية ورد عدلى :

ـ بلاش استعراضات وحركات كل ما تشوف تلميذة فايتة .. وخللينا فى المهم ..

ـ يا أخى خليك انت فى الكورة .. ثم اسمع بقى ياعدلى .. ما تعملش زعيم على قدام البنات .

ـ فاكر يوم ماسبتنا فى المضيفة وقمت من أهم اجتماع بيقرر مصير البلد علشان تسمع مباراة الأهلى والزمالك !

ـ انتم حاتذلونى بالكورة ؟ .. ماكل الدنيا مهتمة بالكورة .. ما كلنا كنا عاوزين نسمع المباراة دى بالذات .. أنا على الأقل كنت صريح وواضح مع نفسى وشجاع قدام الناس وقمت أسمع المباراة .. ما انت أول ما قابلتنى سألتنى عن النتيجة يا أخى .. هو يعنى عشان الأهلى بتاعك ما انغلب .

ـ اخرس .. زمالك مين اللى يغلب الاهلى . دا الحكم .. الاهلى هو الكورة !

وتدخل الطلبة الآخرون لانهاء النقاش الذى أوشك أن يتطور الى مشاجرة

وقال عدلى :

ـ أنا عاوز أثير موضوع آخر .. أنا باقول أننا كطليعة واعية ومثقفة فى البلد لازم يكون لنا موقف من كل مايحدث ..

موقفنا ده سلبى .. احنا لازم نعرف مين الراجل اللى جه من مصر ده وبيتكلم باسم ايه ؟!

بينفذ سياسة ضد الاشتراكية وهو يرفع الشعارات الاشتراكية .. لا ارهاب مع الاشتراكية .. هكذا تعلمنا من دراستنا الواعية .

أنا قريت كتاب عن بعض التجارب الاشتراكية فى البلاد الأخرى ان أعداء الحرية بيطلعوا فى النهاية أعداء للاشتراكية مهما اعتصموا فى مراكز قيادية..هم اللى أخروا النموالاشتراكى فى العالم كله .. والنهاية انكشفوا بعد نضال مرير وتبين أنهم فى أعماقهم عناصر معادية للشعب ..

يجب ألا نسمح لأحد بأن يخيب أملنا فى الاشتراكية .. هذا القمع ليس من طبيعة الاشتراكية بل هو عدوها .. بل وأخطر أعدائها كمان .. الحرية هى السلاح الوحيد فى أيدى جماهير الشعب . الحرية هى قلعة الاشتراكية .. لا انتصار للاشتراكية الا بالحرية .. الاشتراكيةلاتنطلق ولاتحلق الا بجناحين من الحرية والعدل . روحوا اقروا كلام جمال عبد الناصر .

ولم يكد عدلى يسكت حتى تعالى التصفيق مختلطا بالزغاريد !

وفجأة غمر الزغاريد صوت أجش كريه :

— بتزغردى على ايه يامره انتى وهيه .. انتم سايبين ؟ ما لكومش رجالة ؟ ومحشورين كده ليه يا بنات البلد فى وسط الفحول دول ..

واحتدت طالبة :

— اخرس يا توفيق يا بو حسنين .. أنا لا أسمح تقول كلام بذىء بالشكل ده على تلميذات البلد .

واستمر عدلى يقول للطلبة والطالبات :

— أنا أطالب جميع طالبات وطلبة المدارس الثانوية والفنية من أهل البلد انهم ما يسكتوش على الموضوع ده .. لا بد من مناقشة الموضوع فى لجان الاتحاد الاشتراكى بالمدارس وفى لجان منظمة الشباب ولجان الأصدقاء السياسيين ولا بد من تصعيد الموضوع الى أعلى مستوى .. كفاية بقى .. احنا انشغلنا كتير بكتابة تقارير ضد بعض وضد المدرسين ودى كلها أعمال غير أخلاقية وده كمان مش شغلنا .. الطلبة فى مصر كانوا دايما قوة وطنية دافعة .

وردت طالبة بتردد وفى غيظ :

— بس اللجان مختصة بمشاكلنا الطلابية مش بمشاكل الفلاحين ..

وأجاب عدلى محتدا :

— اسمعى .. الطلبة أبناء الشعب المسئولين عن حماية الشعب

وتعالت الزغاريد من جديد :

ومن جديد غمرها الصوت الأجش المتصاعد من توفيق حسنين :

— كده كده يا عدلى .. يا ابن عبد الواحد .. دا انت لو قلت الكلام ده قدام أبوك حايقع مايقومشى ! حايفتكرك بتتكلم باللاوندى .. ياواد دا أبوك عمره ما ..

وانفجر عدلى من أعماق غيظه من الاهانة :

ــ اخرس •• أوعى تقول ياواد تانى •• انت اللى ولد •

ــ طب والله بكره لأخليك تحصل الاربعة المحبوسين ، انجر قدامى بقى ! أنا ولد ؟

ثم هوى توفيق بغتة على صدغ عدلى بكفه الغليظة •• وأمسك عدلى بخناقه •• وتوالت صفعات الطلبة على وجه توفيق وراسه وكتفه المليئة باللحم وتوفيق يضرب عن يمين وعن يسار ويلعن الطلبة وآباءهم •

وضرب بيده طالبة •• وفجأة صرخ توفيق كثور ذبيح • وارتفعت زغرودة والتفت وراءه فوجد تفيدة تزغرد وفى يدها حجر كبير وهى تستعد لتعاود ضربه •• وترنح وابتعد قبل أن يسقط ••فاستند على حائط وعيناه تنظران فى ذعر واستنكار!

ــ كده •• يا تفيدة يا بنت طلبة •• انتى اللى تضربينى • بقى أنا كنت عاوز ألمك واسترك ، طيب •• والله لاحبس لك التلامذة دول كلهم والله ما انى عاتقك عن ضرب البلغة يا بنت طلبة •

واستند الى حائط بعيد بينما كانت اللمة تتفرق •• الطالبات يضحكن واحداهن تقبل تفيدة والطلاب يسيرون الى الجامع •• مصممين على ألا يسكتوا بعد •

***

13

امتلأت القرية ببائعى العجوة ، وأصابع الحلوى الحمراء الذين يقايضون بضائعهم بكيزان الذرة والبيض والدجاج •• تعودوا أن يجيئوا من قرى مجهولة مع كل شتاء •

ومع كل شتاء كانت تجىء أحيانا قوافل الغجر ، معهم قارئات البخت ، نساء صغيرات حسناوات فى الغالب ، لهن عيون سوداء واسعة ونظرات نفاذة تفلق الحجر ، الواحدة تسير شامخة فارعة العود ممتلئة الصدر والعجز تتأود فى جلباب واسع على وسطه حزام ولمعان الخرز يخطف اليها الأبصار ، وعلى وجهها القمحى وشم فى الذقن ، وشفتاها الدسمتان قادرتان دائما على الابتسام عن أسنان كبيرة بيضاء •

فى أول الشباب عرفت واحدة من هؤلاء الغجريات ، ولم أكد آنس اليها وتأنس الي حتى واعدتنى على أن أفتح لها باب البيت ليلا •• ليلا ؟ ولماذا يا •• لست أذكر اسمها آه • كان اسمها جليلة ! ياجليلة يابنت مرة •• كما يقول الفتى سالم فى قريتى ياتفيدة يا بنت طلبة !

ولم أفتح لها باب البيت وسمعت اذ ذاك تحذيرا مرعبا وهائلا مما تصنعه الغجريات !

ما زال فى أعماقى شغف غامض بهذا العالم المجهول •• لكم

أشقت احدى الغجريات (فيون) الشاعر الفرنسى بطل المقاومة ضد لويس الحادى عشر ، هذا الذى أحببته كما لم أحب شاعرا أجنبيا آخر .

ولكن ها أنذا أعود فأتحدث عن باريس !

آه لو كان هنا عبد العظيم .. كم ذا كان سيسخر بى ويقول لى فى ثقة ، وطمأنينة الذى ترسخ قدماه على أرض يعرفها : خليك هنا !

وها هو ذا الشتاء يعود الى قريتى .. فى شتاء آخر بعيد كنت أسكن على مشارف باريس فى حى عمالى ينام فى العاشرة كلّ ليلة ولا يسهر أبدا الا فى ليلة الأحد .

هناك حيث الشارع الرئيسى يشرف على حقول شاسعة ، كانت تقوم مضارب للغجر تحت مستوى الشارع ، تعودت أن أقف دائما كل صباح على السلم الذى يهبط الى تلك المضارب .. كانت مضاربهم بيوتا من خشب أسود .

وهناك تعودت أن أنظر حتى تصعد ذلك السلم غجرية شابة..

وهاتان العينان ، والنظرات التى تفلق الحجر ، والبدن الفارع الراسخ المليء الصارخ بالدعاءات ! كل هذه النداءات الى اجتناء لذات غريبة عرفتها ذات يوم فى قريتى .

وطلبت الغجرية الفرنسية يوما أن تقرأ لى الكف .. وماذا عسى أن تقرئى أيتها الغجرية ؟! الى أى قبيلة تنتمين ؟ وهذه اللغة

التى تتحدثين بها مع صاحباتك ؟ هذه اللغة الغريبة عن كل لغات العالم ، أهى نفس اللغة التى كنت اسمعها فى قريتى وأنا صغير؟! أهى لغة واحدة ؟ ربما ! .. فهكذا قال لى صديق فى بوخارست عندما حدثنى عن مشكلة الغجر فى بلادهم ! لهم لغة واحدة هؤلاء الغجر وهم يتحدثون بها أيا ما تكون الدولة التى ينتمون اليها ! انها الجيبسى ؟ أهى اللغة المصرية القديمة ؟ أم هى لغة التتار ؟! أم نوع من الهندية ؟ أم ... ؟

ولكن ... لماذا أعنى بذلك كله ؟ .. آه لو ان عبد العظيم كان فى القرية لأشبعنى سخرية من كل هذه الاهتمامات ! .. ما اهتمامى بكل هذا وفى قريتى يفعل بالناس الأفاعيل ؟

عاد الغجر كما ألفوا منذ قرون طويلة لا يعرف أحد عددها . النساء الصغيرات يضربن الرمل ، ولهن نفس القامات الفارعة والنهود الصارخة والنظرات التى تفلق الصخر ، ومن الصخر مايتشقق فيخرج منه الماء .

والرجال يبيعون الاحرمة والابسطة الصوفية ، والنساء الكبيرات يبعن أو يصلحن أعواد الحديد التى تحمل عليها الارغفة والفطائر الصغيرة الى الأفران .

جاء الغجر .. فلتحذر كل امرأة تملك البط او تربى الأوز والفراخ ، فللغجريات أكمام واسعة تسع الطيور وللغجريات طريقة فى اخفاء أصوات الطيور ! فلتحذر الأمهات فقد يختفى الصغار ، وبصفة خاصة الاولاد ..

جاء الغجريات فلتحذر الفتيات أيضا .. فللغجر سحر يغشين به من يكتشف سرقاتهن ، فيحرمن الزوجات الجديدات من الانجاب ، والفتيات من الزواج ، والأزواج الجدد من الاتصال بالزوجات !

وهكذا اختفت تفيدة ..

لزمت دارها .. منذ هبط الغجر . كغيرها من الفتيات .

ولزم توفيق حسنين داره أيضا ..

ولم يكن هبوط الغجر هو الذى ألزمه داره ، ولكنه الجرح الذى أصابته به تفيدة .. عاده الحلاق مرة بعد مرة بصبغة اليود والضمادات وظل يغير على الجرح أياما ..

ولم يشأ توفيق حسنين أن يخرج وعلى رأسه ضمادات ..

وفى يوم الجمعة قبل الصلاة كان الغجر قد رحلوا عن القرية والقرية تتحسس خسائرها ، وتوفيق حسنين يتحسس رأسه .

قال له الحلاق انه يستطيع أن يخرج الآن ! .. ونزع عنه كل الضمادات .

ولكن توفيق حسنين داخ .

ونصحه الحلاق أن يتناول قطعة من الأفيون لتقويه ! ولكن أنى له الافيون ! ان كل ما استطاع أن يحصل عليه فى الاسابيع الماضية أخذه اسماعيل الرجل القادم من القاهرة ... الأفيون يأسر هذا الرجل الذى جاء من المدينة يأمر وينهى ويغتصب ، لانه يمثل الحكومة !

هذا الرجل يا « توفيق يا أبو حسنين » بالوعة حشيش وأفيون .. وهو لا يشبع من النساء . حملت له كل نساء القريه السهلات ولكنه لا يقتنع الا بتفيدة بنت طلبة !

ياعم .. أتركنا وحالنا .. أنا أطمع فى زواج تفيدةبنتطلبة! ولكن اسماعيل يقول تزوجها لى !

أتزوجها لك يا سعادة ممثل الحكومة ؟ نحن فى الخدمة ! ولكن هذا الأمر ؟!

لديك فى القاهرة أحلى النساء . أحلى الممثلات والراقصات وأحلى الفتيات والهوانم اللواتى فى الخدمة ! لا .. لا .

ونودى للصلاة من يوم الجمعة ..

وخرج توفيق من داره . لم يكن فى كامل عافيته ، وكان فى الحق يعانى من الخجل أن يلقاه أحد من الطلبة أو الطالبات الذين أهانوه والذين شاهدوا تفيدة بنت طلبة توقعه على الارض .

ومشى فى اتجاه الجامع .. انه سمع وهو مريض أنرزق بك واسماعيل بك عادا ..

اسماعيل بك ؟ لماذا .. لماذا !

انه يقصد ممثل الحكومة .. فما ينبغى لتوفيق أن يذكر اسمه !

وفى الطريق الى الجامع شاهد زحام الطلبة .. وبعضالطالبات .. كانوا هذه المرة يضحكون ويقول لهم عدلى بنعبدالواحدانه

ناقش مسئولين فيما يحدث للقرية وأقنعهم بالاهتمام به،فهذا أجدى وأشرف وخير للوطن من الاهتمام بكتابة تقارير ضد الآخرين والايقاع بهم .

وتقدم توفيق ليواجه تفيدة • فواجهته ساخرة :

ـ الحمد لله عالسلامة ••

وضحك الجميع فأجابها بهدوء :

ـ كده •• كده يا تفيدة يا بنت طلبة • بقى أنا حايش البيه مندوب الحكومة تقومى تعملى كده ؟! طب والله لو سبته عليكى لياخدك غصب عنك والا يحبس أبوكى ماحد يعرف له جرة •

ووجم الجميع !

ولكن تفيدة انقضت عليه بكل غضبها فدفعته الى الحائط واصطدم رأسه بالحائط فوقع مغشيا عليه ••

واندفعت مسرعة تنفخ أنفاسها ، وصدرها يعلو ويهبط وسط اعجاب الجميع ••

وقالت لها طالبة مستنكرة :

ـ ايه ده يا تفيدة ؟

فأجابت بحنق :

ـ الشديد ماله الا الأشد منه •

ـ يا خسارة !

ـ يا خسارة لو تعلمت ••! والله كنت بقيتى واحدة مهمة فى القيادة السياسية ••

ـ وهى الحكاية دى يعنى لازم لها علام ؟ على كل حال أنا استخرت الله ونويت أدخل فصول محو الأمية •• ولو ان أبوى مش راضى •• قال ايه خايف عليه •• ما بنات البلد كلهم بيتعلموا وسط الرجالة •• والله الحرة حرة والخايبة خايبة ! • ربنا يهدى لى أبويا •

وكان أبوها الشيخ طلبة يبحث عن رجل عجوز من الجالسين فى المسجد ليبعث به الى الدار فيحضر كتاب خطب الجمعة من القاعة •• ماعليه الا أن يطلبه من تفيدة وهى تعرف كل شىء ••
واختار الشيخ طلبة رجلا يبعث به ، وعندما وقف الرجل ، ثم تحرك مسرعا اكتشف الشيخ طلبة أنه شاب فزعق :

ـ استنى يا نجس انت •• بترمح كده على ايه •• خليك انت مرزى هنا

وبحث عن رجل آخر أكبر سنا • ولكن أحد الجالسين قال :

ـ يا عم الشيخ طلبة ريح نفسك انت •• أنا اللى حاخطب الجمعة •• البلد بقى لها مدة على شكل تانى من خطب الجمعة •• بلاش الخطب التقليدية البالية دى ! مادام الأستاذ عبد المقصود ما وصلش لحد دلوقت أنا بقى اللى حاخطب بدلا منه • كفاية انت خطبت بداله الجمعة اللى فاتت،وسمعتنا حاجات أكل عليها الدهر وشرب •

- أستغفر الله العظيم .. احنا يا أخى فى بيت الله .. كـلام ايه ده يا سى ريان .

وتقدم ريان الى المنبر ، ثابت الخطوات ، فأمسك بالسيف الخشبى الذى تعود أن يمسك به الخطباء فى صلاة الجمعة .

وصعد درجات المنبر فى وقار أكثر مما تحتمله سنه

وسرت همهمة : « الأستاذ ريان » .. « الأستاذ ريان » .

وعلى أعلى المنبر وقف ريان بقامته الربعة ، ووجهه المستدير حليق الشارب واللحية : النظرات المطمئنـة تنبعث من عينيـه الواسعتين تحت حاجبين كثيفين مقرونين ، وعلى رأسه طاقيـة من الصوف لف عليها منديلا أبيض كالشال ، تهيؤا للموقف على المنبر .. وعلى محياه راحة هادئة وثقة متفائلة . كأنه ماعانى من قبل أبدا ، وكأنه لايكابد فى مطلع كل شهر تدبير مال يكفى أخاه الذى يتعلم فى جامعة أسيوط ، وأخته فى بيت الطالبات بجامعة القاهرة ، وثلاثة طلاب فى المدرسة الثانوية والاعدادية بعاصمة الاقليم .. وحمد الله وأثنى عليه بنبرات هادئة .. وهمس رزق الى جاره الرجل الغريب القادم من المدينة :

- ده ولد خطر ! جدا ..

وفتش رزق الجامع بنظرات سريعة وهمس :

- فين توفيق ؟ ..

فرد صوت طالب من خلفه :

- بيبرطع فى الغيطان بعيد .. بيجرى ورا بنت ! ..

وسرت همهمة ضاحكة وسط الطلاب ..

ومال الرجل الغريب القادم من المدينة على اذن رزق وهمس :

- الجدع الخطيب ده صغير جدا على كده ! ده لايجوز انه يؤم الناس .. ده لايمكن تكون سنه أكثر من ثلاثين سـنة .. هو متجوز ؟ اذا ماكانش متجوز مايصحش يبقى امام ، فين توفيق؟ اذا الولد ده لخبط خللى توفيق يسكته بالقوة . توفيق واد جدع والحاجات دى لعبته .

واسترسل ريان يخطب بلا ورقة ..

تحدث عن الطمع الذى يفسد القلوب .. ويحول الناس عن طبائعهم السمحة ..

ثم قرأ الآية : (هذا أخى له تسع وتسـعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب) وهمس بعض الناس :

- زى رزق عنده اللى عنـده واستـولى على أرض سالم وخيرات الجمعية !

وحاول رزق أن يشير الى الشيخ طلبة ولكن الشيخ طلبـة لم يره .

ومضى ريان يتحدث عن الفئة الباغية التى لعنها الرسول فى المدينة .. والتى مازالت تعيش حتى فى ظل النظم الاشتراكية ، وهى فئة لاتستغل غيرها بل تستعلى عليهم بمالها أو بجاهها أو بما تملك من صلات .

وهنا وقف الرجل القادم من المدينة كالملسوع :

ـ أنا أمنعك من الكلام !.. انت بتعرض بالنظام الاشتراكى! ثم انت لايجوز انك تكون امام لأنك صغير السن بالنسبة للموجودين .. ثم انك غير متزوج .. وده حرام !

وارتفعت الأصوات من بعض الطلبة أولا ثم من الفلاحين :

ـ أقعد .. أقعد .. أيوه يا أستاذ ريان .

واستمر ريان كأنه لم يقاطع يحدث الناس عن عمر وسيرته وكيف كان يوزع الثروة بين الجميع على سواء .

وتزايل الشيخ طلبة ، وتكوم على نفسه ولم يعد أحد يراه، واسماعيل يصرخ فى طلبة . وريان مازال يتحدث عن عدالة عمر وأسلوبه فى السياسة والحكم . ووقف اسماعيل ووقف من حوله بعض رجال يديرون النظر بين (ريان) وبين هذا الرجل القادم من المدينة فى مزيج من الخوف والأمل والاشفاق .

واستمر ريان وكأنه لم ير شيئا . ولكن بان من طريقة القائه أنه سينهى الخطبة فزعق رجل :

ـ لأ .. لأ .. كتر لنا من الكلام الحلو ده ياسى ريان !

وانتفض الشيخ طلبة كأنه وجد يدا قوية تنتشله من موقفه :

ـ اخرس ياواد يابحيرى .. اخرس ياوله . احنا فى بيت من بيوت الله ! الكلام الحلو ؟ حلا فى شداقك . انت قاعد تسمع الشاعر ! حلا فى شداقك وشداق اللى خلفوك .

ووقف بحيرى : الطاقية الصوف السوداء على رأسه ووجهه

الأعجف الأسمر يتأمل الموجودين ونظرات عينيه الضيقتين تستلقى على وجه رزق والرجل القادم من المدينة ، وقميصه الازرق الداكن يتهدل على جسمه الطويل المفتول وينفتح من على صدره العريض الذى يبرز منه الشعر .

وتحسس شعر صدره وعاد يزعق :

ـ قول وقول على طول من كلامك الحلو ده ياسى ريان.. واهمد انت شوية ياعم الشيخ طلبة..ياسيدنا دا أنا بحيرى.. أنا شهم . أنا واد أ .. أ .. أنا الفتى بحيرى .. أنا

وعاد يبحث عن كلمة ، فصاح بملء صوته فرحا باكتشاف كلمة فصيحة :

ـ أنا واد ط .. طلي .. طليعة .. على رأى كلام التلاميذ والمدرسين ..

وضج المسجد بالضحكات وتعالت أصوات مختلطة :

ـ الله يخيبك يا واد يا بحيرى ! قال طليعة قال ! الله يخيبك فتى ..

وتوقف ريان عن الخطبة وهو يجاهد فى كتم ضحكاته .. وعلى الرغم من كل محاولاته فقد أضاءت وجهه ابتسامة زرعليها شفتيه ..

ووقف الرجل القادم من المدينة يصيح غاضبا :

ـ ده ما بقاش جامع..ده شغل كباريهات..ضحك وهزار؟ فين حرمة الجوامع .. ده اعتداء على الدين وحرمة المساجد .. يا شيخ طلبة يا .. يا شيخ زفت !

وقاطعه ريان بهدوء والشيخ طلبة يتكوم على نفسه ويستغفر ويستعيذ :

ـ الكباريهات دى تعرفوها فى مصر ياسيد انت ! احنا فى بيت من بيوت الله •• وبيوت الله ليست أماكن عبادة صماء •• ولكنها كانت دائما أماكن لتدبر الاحوال ولمناقشة شئون العباد وللعلم • ولتحرير الانسان كمان • والا حاتمنع الاجتماع فيها كمان زى الجمعية واللجنة •

وضجت الضحكات من جديد ونظرات ساخرة تستلقى على اسماعيل تدافع الخوف والتوجس •

ثم استمر ريان يختتم الخطبة وهو ينزل من فوق المنبر :

ـ عباد الله •• ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ••

والتفت الى الشيخ طلبة :

ـ أقم الصلاة ••

ووقف الشيخ طلبة يؤذن •

واستقام الناس فى صفوف وراء الأستاذ ريان •

وهمس رزق فى أذن الرجل القادم من المدينة :

ـ يعنى يا اسماعيل بك مسكنا عبد المقصود الناظر،طلع لنا المدرس ريان •• مسكنا ثلاث فلاحين طلع لنا الكلب ده بحيرى ، ان سكتنا لهم حايطلع عشرات • والله لاحبسك مع الخيل فى اسطبل

السراى يا بحيرى الكلب •• ابقى اعمل لى فتى ! البلد خايفة يا سعادة البيه ولازم ننتهز الفرصة لضرب أى واحد يطلع لنا والا يعرض بنا دلوقت والا مش حانعرف نسيطر على الموقف •• الفلاحين دول وحوش ••وحوش ياسعادة البيه • أنا اللى عارفهم •• ان ما كنتش تقيدهم وتكمسهم ما تعرفش تعيش معاهم !

ـ البلد فى جيبى ماتخافش •

وكان صوت ريان قد انطلق يقرأ الفاتحة•فرفع رزق والرجل القادم من المدينة أيديهما الى قرب اذانهما • ونويا الصلاة ، ونكسا رأسيهما فى الارض فى هيئة خشوع كامل ، وامتثال ، كأنهما لم يطغيا أبدا ، وريان يقرأ بعد الفاتحة آية يضغط على حروفها : (اذهب الى فرعون انه طغى)

وعندما انتهت الصلاة وسلم كل واحد على جاره ، وقف ريان ورفع صوته على نحو لم يعرفه المسجد طيلة القائه الخطبة :

ـ اسمع ياسيد ياللى جاى من مصر • احذر أن تتعرض لما تجهل •• أولا من قال لك أن غير المتزوج لا تصح امامته •• ثانيا يا أخى مين قال لك أن صغر السن يمنع من الامامة؟ أنا سنى حوالى ثلاثين سنة والرسول عليه الصلاة والسلام أمر على الجيش وعلى كبار الصحابة رجلا دون العشرين وعلى هذا سار أبو بكر • ثم يعنى ايش عرفك انت بالاسلام وبحضارة الاسلام ؟ ثم لما انت عارف الاسلام ، اعرف بقى الاسلام دين الحرية •• ضد الظلم

والبغي والفساد .. ثم احنا يعنى عاوزين نفهم حضرتك تبقى مين ومخبى أصلك وفصلك علينا ليه ؟ سيادتك يعنى بتشتغل ايه فى مصر وبتمثل مين وبتتكلم باسم مين ؟ قل لنا كده حتى على سبيل التعارف يا أخى !

واتنفض الرجل زاعقا فى غضب هائل :

ـ أسكت . أنا هنا بامثل مصر . باتكلم باسم مصر . واذا أى واحد فى البلد نطق تانى حايحصله زى ما حصل لعبد المقصود وعبد العظيم وسالم وهلالى .. احنا مش عاوزين شغب . مش عاوزين شغب . مش عاوزين تعطيل للانتاج . مش حانسمح بالفوضى أبدا . والا حاخليكم عبرة .

ولاحظ الطلبة الذين كانوا يقفون وراءه أنه يرتعد .. وتهامسوا وهم يرون قفاه يحمر وأذنيه تلتهبان والعرق يسيل من مؤخرة رأسه .. ثم زعق عدلى عبد الواحد :

ـ انت بتقول احنا .. مين احنا دى ؟ انتم مين ؟ مين انتم؟! انت بتتكلم باسم مين ؟ .. باسم مين ؟! باسم مصر ؟! باسم مين فى مصر ؟ مصر ما فيها قادة اشتراكيين وفيها كمان عملاء وانتهازيين ومتسللين ورجعيين .. بتتكلم باسم مين فيهم !

واستدار الرجل ، فوجد وجوها شابة متحفزة ، ونظرات لن تقع حتى تقتحم كل الاستار التى يختفى وراءها المجهول .

وحسب الأمر بسرعة ، فوجد ان من الخير الا يدخل فى اشتباك مع الطلبة فماذا يهمهم هؤلاء الطلبة .. ليسوا موظفين

يخافون على لقمة العيش ولا فلاحين يخافون على الارض .. ولكنه تشجع :

ـ اسمك ايه ؟ قل بسرعة انت اسمك ايه .. ابن مين فى البلد .. أبوك بيشتغل ايه ؟

ـ وانت مالك ؟ اسمك ايه انت ؟

وساد صمت مشحون بالتوجس .. واتجهت الانظار الى رزق فاذا به قد اصفر ، والى الرجل القادم من المدينة ولكنه خرج دون أن يرد .. تلاحقه النظرات .. وشىء كالراحة يزيح الخوف عن القلوب التى أثقلها الهم والرعب خلال الأيام الخمسة الماضية.

وحين كان يلبس حذاءه الفاخر على باب الجامع ورزق يسنده تعالى صوت بحيرى .

ـ أنا واد طليعة .. أنا واد طلائع .. أنا اللى حاطلع سالم صاحبى وكل رجالة البلد .

وتناثرت الضحكات والرجال يخرجون من المسجد .. والنظرات المعجبة تتابع ريان وبحيرى وعدلى عبد الواحد ..

وأمام المسجد جلس بعض نساء : عيونهن على المئذنة تدعو أن يعود الرجال الغائبون ، والشمس تملأ الطرقات والحقول وواجهة المسجد بالشعاع والدفء .

ومر توفيق خلال الزحام متجها الى رزق الذى كان يسير الى جوار الرجل الغريب القادم من المدينة .

وصاح رزق متجهما :

ـ كنت فين يا توفيق يا بو حسنين •• ما حضرتش صلاة الجمعة ليه يا ولد ؟

وهمهم توفيق شاردا وهو يتحسس مؤخرة رأسه ووجهه الى الأرض :

ـ طيب يا تفيدة يا بنت طلبة !

وضج بحيرى بخفة :

ـ طب ما تقول يا جليلة يا بنت مرة •• زى ما بيشعروا فى حكاية الزير سالم •

وتعالت الضحكات يقطعها صوت نحيل :

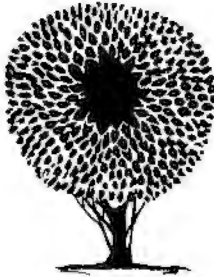
ـ أيوه ياواد يابحيرى قول •• ياجليلة يابنت مرة أحدثت فى القلب أمرا ••

ـ لا •• لا يا ابا عبد الواحد وانت السادق •• ياتفيدةيابنت طلبة أحدثت فى الرأس أمرا ••

وفى ضجيج الضحكات ، غاضت أصوات السخط والشتائم التى انطلقت من رزق وتوفيق والرجل الغريب القادم من المدينة •• وتوالت على الضحكات أمنيات الرجال والنساء : متى يختفى هؤلاء الثلاثة فى الغبار الذى يثيره انطلاق أربعة أفراس بيضاء

يعود على ظهورها الاربعة رجال الغائبون •• يعودون فى ثياب بيض بلون الفل •• كما حلمت أنصاف ليلة أمس ؟!

لا • ليست هذه أضغاث أحلام يا سيدنا الشيخ طلبة • لا • انه حلم يجب أن يتحقق •• خير •• يا رب خير •• اللهم اجعله خيرا !



14

سافرت الى القاهرة مثقل القلب ، ممتلىء النفس بما حملنى الناس فى قريتى من توصيات يفجرها اليأس ، وأنا مع ذلك اضطرم بالأمل !.

قالوا لى فى القرية لا تقرع باب أحد . لا تقصد ابن آدم ، لا تقف الا عند أهل البيت ، فلتتخذ منهم الوسيلة الى الله .. حملناك الدعاء وسألناك الفاتحة .. اسأل الله أن يزيل الكرب وان يمحق الكافرين .. قف طويلا عند مقام الحسين فالتمس من سيد شباب أهل الجنة أن يكون وسيلتك الى الله تعالى لينتقم لنا ممن بغوا علينا وليعيد الى القرية رجالها الغائبين .. قل له ياحسين انها قرية مؤمنة ما كفرت بأنعم الله فلماذا يذيقها الله لباس الجوع والخوف ؟! . فليمنحها الشبع والرى وليهبها شجاعة القلب وأمن الجوانح .. فليرفع مقته وغضبه عنها .. اسأل لنا الله فى مقام الحسين أن يولى علينا خيارنا ولا يولى علينا شرارنا ، واسأله أن ينتقم من الظالمين ، بحق الشهيد المظلوم .

ولكن لا تذهب الى الحسين قبل أن تقرأ الفاتحة فى مقام السيدة زينب الست الطاهرة ، فسرها باتع ..

أنذر لها أن تكنس القرية أرض الضريح وأن ترشه بماء الورد .. وأنذر لها مائة شمعة ان خرج الرجال ، ومائة أخرى ان انتقم الله للقرية من ظالميها ..

وعندما تفرغ من زيارة أهل البيت فلتذهب الى السلطان الحنفى .. واحذر أن تركب اليه ..

رح ماشيا فما يجب أن يقصده الراكبون .. انه ولى الفقراء .. صل العشاء أمام الضريح واشك له باسم القرية ..

قل له كل شىء .. ارفع صوتك واجأر بالشكوى كما تكلم الأحياء .. وعاتبه أشد عتاب .. فلماذا يتخلى عن الفقراء فى قريتنا؟!

مدد يا امام .. مدد يا ست . مدد يا سلطان يا حنفى مدد..
يا من ارتعد أمامك سلاطين الأرض وأمراء مصر وأدوا الحقوق الى أهلها خشية غضبك .. لاتنس الحنفى .. وتذكر . رح اليه ماشيا

فاذا فرغت من زيارة هؤلاء الثلاثة ، فلا تجعل يوما يمر بك الا طفت بمقام أحد أولياء الله ..

انهم هم الذين يحرسون مصر .. ولا تنس سانت تريز حامية الضعفاء وصديقة المسلمين .. وأنذر لها نذرا ..

احذر أن تضيع وقتك فى مقابلة رجل أو امرأة فلا جدوى..
لن ينصفنا أحد ، ولو كان من الممكن أن نجد الانصاف عند أحد فى القاهرة لما رمتنا القاهرة برجلها الذى يبطش بنا ، ولما حدث للقرية كل ما حدث .. انهم فى القاهرة يرسلون الينا الكلمات الحلوة ، فاذا صدقها رجال مثل عبد المقصود وعبد العظيم وسالم وهلالى ، ألقت بهم القاهرة فى السجن !..
من الذى يصنع هذا اليأس للفلاحين بعد ثلاثة عشر عاما من الثورة

التى قامت لترد الأرض الى الفلاح وتتيح له أن يمارس حريته وأن يسيطر على مصيره ؟! ••

ولكنى على الرغم من كل هذه التوصيات ، وعلى الرغم من الأصوات الضارعة التى مابرحت ترن فى أذنى كالأنين ، وعلى الرغم من كل الكلمات المفعمة بدمع يفجره اليأس •• على الرغم من كل شيء ، لم أقصد أولياء الله لأرفع اليهم شكوى القرية بل ذهبت الى دور الصحف والى كل رجل اعتقدت لبعض الوقت أنه يستطيع أن يرفع عن قريتى الظلم ، وان يعيد اليها الثقة بما تصدره القاهرة من كلمات •

شرحت الأمر لكل من استطعت أن أقابله فى دور الصحف • ثم اتجهت الى الاتحاد الاشتراكى ، فقدمت عدة شكاوى وطالبت بالتحقيق فيما يحدث بقريتى ، وناشدت كل من قدمت له شكوى أن يسعى بكل جهده للافراج عن الرجال ، وأن يطالب برد البسمة الى شفاه الأطفال ، وبادخال الطمأنينة على القلوب ، وبحماية الأمل العزيز الذى تتعلق به أحلام الفلاحين •

وعندما خرجت من الاتحاد الاشتراكى قابلت فى الطريق صديقى القديم (القرماوى) مدير الأمن فى المحافظة •

كان فى طريقه الى وزارة الداخلية نشيطا خفيف الحركة فتيا كالعهد به عندما كنا فى المدرسة الثانوية •• وشعرت بألفة غريبة معه كأننا لم نفترق أبدا منذ كنا فى صدر الصبا ••

وأخذ يذكرنى وهو يضحك ببعض ماكنا نصنعه ونحن طلبة وبمظاهراتنا ضد الانجليز •

وقال لى بزهو ان موضوع قريتنا محل بحث جدى ، وضحك:

ـ دا موضوع عامل وش فى كل مكان •• وان شاء الله ربنا حاينصركم •• لكن ايه •• نصرة قوية صحيح •• بكره رجالة البلد طالعين ، بكره بالتحديد •• مبروك ياعم ••

كنت قد سمعت أكثر من مرة أن الرجال عائدون •• عائدون بلا ريب ولكنهم لم يعودوا •• من أجل ذلك لم أشعر بالفرحة التى قد يثيرها مثل هذا الخبر ، بقدر ماشعرت بأسى •• وقلت له فى لهجة لم أستطع تخليصها مما يثقلها من فتور :

ـ امتى •• ماسمعنا الكلام ده كتير ••

ـ خليك مع الله ! •• ايه يعنى لو كانوا طلعوا من يومين واتمسكوا تانى •• المهم انهم يطلعوا وان الأسباب اللى أدت الى اعتقالهم تزول نهائيا يعنى بصراحه الرجل المسئول عن اعتقالهم جت رجله •• وهو •• بس اسمع •• دا كلام سر خالص •• بشرفك •• فيه تحقيق سرى معاه •• هو من امبارح هنا فى مصر •• تصور انه كان عاوز ينقلنى واتهمنى بتحريض الفلاحين •• النوع ده فى منتهى الخطورة •• نوع فى أعماقه معادى ويجب فضحه والتخلص منه •• ده ايه التصرفات دى يا أخى •• ده تشويه لكل حاجة •• لكن الحمد لله ••

كان مندفعا ، يتكلم فى حماسة وثقة كالعهد به دائما ونحن

صغار .. وسرح ببصره فى الفضاء عبر النيل على خضرة الجزيرة المستلقية فى دفء الشمس تحت سحاب خفيف .. وكنا مازلنا نمشى على « كورنيش النيل » .. ثم قال فجأة :

ـ يا أخى لازم أشوفك كتير .. لازم نجدد أيام زمان . تعرف جيلنا ده ؟ .. جيلنا ده اللى حارب الانجليز ووقف فى وش رصاصهم .. هو ده الخير والبركة .. ياسلام .. كنا بنقف فى وش الرصاص فى نفس السن اللى أولادنا فيها دلوقتى بيرقصوا التويست .

لا .. يافرماوى .. ليسوا كلهم .. لماذا تملأ رأسك بهذه الأفكار ؟؟ ألم تعرف سالم ؟ .. انه فى نفس السن التى كنا نواجه فيها رصاص الانجليز .. وهناك آلاف وآلاف فى القاهرة والمدن الكبرى يواجهون بكل حماس سنهم تحديا وخطرا وتهديدا مثل رصاص الانجليز .. هنا أيضا جيل يبنى يافرماوى، ويهتف لفلسطين كما كنا نهتف ، ويصنع المعجزة فى وجه القدر .. لا تحمل فى نفسك كل هذه الاستهانة التقليدية التى يحملها جيل كبر للجيل الذى يليه .. ليس كل أبناء هذا الجيل راقصين للتويست .. وفى جيلنا أيضا يافرماوى .. أنسيت ؟! كان هناك من يزوغ منا بعد الاضراب ، ونكتشف فى اليوم التالى انه كان يرقص على « الباتيناج » فى نفس اللحظات التى تواجهنا بالرصاص ! ..

وعندما ودعت الفرماوى على مقربة من وزارة الداخلية .. وقف قليلا ليعبر شارع القصر العينى .. ومنعته العربات المتدفقة من الاتجاهين ..

فقال ضاحكا :

ـ الواحد خد على الأرياف خلاص .. بقى يدوخ من دوشة مصر وزحمة مصر .. أنا عارف ايه غرام الضباط الجداد بمصر !؟ .. كلهم عاوزين مصر . ياما نفسى أعلمهم أن حقيقة الشعب ده موجودة فى الأرياف .. الأرياف وبس .. الفلاح هو المصرى .. وبعد كده اردم ..

انت دائما هكذا يافرماوى .. متحمس ، مندفع ، تطلق الأحكام .. وقلت له :

ـ ما انت بتضرب الفلاح ده ..

فصاح مستنكرا :

ـ أنا .. ؟! مستحيل ، أنا طول مدة خدمتى ماضربت فلاح والله .. أمال ايه اللى جابنى مصر من يومين ؟ طب دا أنا أول حاجة أعلمها للضابط الجديد من دول ان الفلاح هو الأصل .. وان اللى يحترم نفسه لازم يحترم الفلاح .. أنا باربى الضباط الجدد على احترام الفلاح .. احترام كرامته وحريته ، شوف .. الراجل اللى يهين كرامة غيره لأنه فى السلطة دا راجل ماعندوش كرامة .. والراجل اللى يهدر حرية غيره ده فى أعماقه عبد .. بقى أنا اللى قاومت ظلم الانجليز تفتكر يعنى انى أظلم أهل بلدى ولو حتى بكلمة غير لائقة .. لا والله .. أمال طلعنا الانجليز ليه بقى ؟ .. ما الظلم كله واحد .. ما فيش ظلم أحسن من ظلم . الظلم مالوش جنسية وظلم المصرى للمصرى ألعن .. على رأى الشاعر .. وظلم ذوى القربى أشد مرارة .

واخيرا استطعنا أن نعبر الشارع معا .. وسلمت عليه .. وانصرف على وعد منى بأن أزوره فى مكتبه بالمحافظة ، ووعدنى بأن يزورنى فى بيتى بالقاهرة .. وأعطيته رقم تليفونى وأكد لى أنه سيحدثنى صباح الغد بعد أن يتيقن من الافراج عن رجال قريتى .. وأقسم لى أنه سيصحبهم بنفسه الى المحافظة ويرسلهم معززين مكرمين الى القرية .. فالافراج عنهم على أية حال نصر للحقيقة، وله أيضا ..

وانتظرت طيلة صباح الغد .. ولكن الفرماوى لم يتصل بى .. وقضيت صباحا قلقا معذبا .. وقلت لنفسى انه وعد كالوعود الأخرى السابقة .. فماذا يستطيع الفرماوى أن يصنع ؟! له الشكر على أية حال ولكن متى يخرج الرجال ؟! ماذا يمنع الافراج عنهم بعد أن تبين أن اسماعيل هو المسئول ، وبعد أن استدعوه للتحقيق فيما فعل برجال قريتى ؟!

ولم أستطع أن أطعم على الغداء .. وحاولت أن أنام قليلا ولكن بلا جدوى ..

وخرجت الى الطريق ..

فلأزر أهل البيت كما طلبت منى القرية .. والسلطان الحنفى أيضا . سأمشى اليهم جميعا . لا لا . أهل القرية طلبوا منى أن أمشى الى السلطان الحنفى وحده .. قالوا لى ابدأ بالسيدة زينب ثم سيدنا الحسين . وامش من الحسين الى الحنفى لتصلى العشاء أمام ضريحه .. وحدث الضريح كما تتحدث الى الأحياء !..

واتجهت الى السيدة زينب ، ودخلت ضريحها ووقفت أمامه أخوض الزحام اقرأ الفاتحة ولافتات عليها أبيات من الشعر فى مدح أهل البيت .. ماكل هذا الزحام ؟!..

وسألنى رجل أشهب اللحية على وجهه وضاءة خاصة ان كنت أريد أن أقرأ عدية يس بأى شىء أجود به .. وأخرجت من جيبى عشرة قروش وسألته أن يفعل .. فقال لى : — على النية ؟ ..

ولم أفهم جيدا وهززت له رأسى .

وانصرفت الى الحسين .. وأنا أردد ماحملتنى القرية من دعاء منذ كنت فى مقام السيدة وعلى طول الطريق كلما شاهدت مقام ولى أو مئذنة مسجد .

وبعد صلاة العصر فى مسجد الحسين ، دخلت الى المقام .. كان البخور يعطر الجو وهمهمة خافتة تملأ المكان والوجوه الضارعة تنظر الى السقف والأيدى تمسح الأعمدة الفضية المتشابكة، ودموع كثيرة تتساقط على الزفرات .. ووسط الهمهمة انطلقت صرخة : (يارب امحق الظالمين) .. وأسرع شيخ المقام الى الرجل الذى يصرخ وربت على كتفه وطلب منه أن يتحرك ليطوف الآخرون بالمقام ، وهمس له ألا يصرخ فالله عليم بذات الصدور .. وماكانت أذناى تلتقطان الا الدعاء الى الله أن ينصر العدل ويمحق الظلم .. لكم هو مشحون بالمأساة هذا الهواء المعطر بالبخور ! .. من يدرى ؟! .. فربما كان آخرون مثلى جاءوا محملين بشكاوى قراهم ! .. وهناك امرأة صغيرة جميلة تبكى وتهمس من فجوة

السور الفضى : (ياحسين .. قوينى .. عاوزة أعيش بشرف .. يارب .. يارب) .

ما كل هذا الزحام ؟! أهو الاندفاع الى أولياء الله أم اليأس من بعض خلق الله ..!؟

وخرجت من المكان الذى اختلطت بعطر بخوره أنفاس الشاكين والضارعين والقاصدين .. وعلى باب الضريح وجدت يدا تمسك بكتفى وتهزنى بعنف ومودة :

ـ مش معقول ؟ ..

ـ فرحات بك ..

هذا هو فرحات شقيق رزق جاء قاصدا هو أيضا .. ماذا يريد ؟ .. مم يشكو ؟.. وعانقنى .. وسألته فيم جاء فقال مبتسما وهو يمسح بيده شعر رأسه الفضى الأنيق :

ـ يا أخى جيت استزيد .. ولئن شكرتم لأزيدنكم ..

ياه ! . حتى هنا تزحمون الفقراء ! .. ومن يدرى ؟ ربما نفحت من يقرأ لك عدية يس قدرا من المال لايستطيعه غيرك ! ..

وطلب منى أن أنتظره لنخرج معا .. وقرأ الفاتحة بسرعة وأقبل الى .. وعلى باب المسجد نفح حارس الأحذية ورقة بخمسة وعشرين قرشا .. ولبس حذاءه الفاخر وانطلق بى الى سيارته وأقسم أن يأخذنى الى مشرب وسط البلد نشرب فيه القهوة .. ولكنى اعتذرت فألح .. ولم يتركنى حتى وعدته أن أزوره فى بيته وحدد لى موعدا الليلة بعد الغروب .. وأعطانى بطاقة عليها العنوان ..

وبعد الغروب كنت أمام مسكنه فى «جاردن سيتى» على النيل وسمعت موسيقى جاز تتصاعد من الداخل وصراخ مراهقين وضجة رقص .. لا .. لا .. مستحيل .. لقد أخطأت العنوان .. ولكن على الباب لافتة باسم الرجل .. ودققت الجرس ففتح لى بنفسه .. ووجدت الصالة فسيحة مملوءة بشموع على مائدة كبيرة وفتيات وفتيانا يرقصون ويتطوحون كالمجاذيب فى الذكر ويقفزون والفتيات فى أذرع فتيان يرفعونهن فتنكشف الفساتين القصيرة عن الافخاذ .. كانوا يرقصون بلا بهجة ويحركون الأذرع والأجسام والسيقان فى عصبية غريبة .. حتى الضحكات كانت تنطلق فى جنون .. كنت ما أزال واقفا بالباب تدور عيناى الى هذا المنظر الذى لم أشهده الا فى الكهوف وعلب الليل فى بعض المدن الأوربية الكبرى .. وفرحات بك يبدو مبتسما ويهز رأسه وهو ينظر الى فى اعتذار :

ـ لامؤاخذة .. اتفضل .. النهارده عيد ميلاد ابنى وأنا ناسى .. الولد عامل بارتى وداعى بعض زملائه وزميلاته .. اتفضل .. معلهش بقى .. شباب .. شباب ! ..

وشعرت بالدوار والضيق .. آه لو شاهد الفرماوى هذا المنظر ؟!

وحاولت أن انصرف .. ولكن مضيفى جذبنى برفق الى حجرة أخرى بالداخل وخضت فى الردهة المزدحمة بالفتيات والفتيان .. واصابتنا ضربات السيقان والأرداف والنهود المتطوحة ونحن نعبر على عيون تتفجر منها نظرات غريبة بلهاء .. بلا حياء وبلا معنى !

وأحسست بطراوة السجاد الفاخر .. ولمحت لوحة على الحائط غالية جدا .. وبهرتنى الأضواء المنبعثة من مصابيح الكريستال والانية النادرة المعلقة هنا وهناك على الجدران ..

وفى حجرة من الداخل أجلسنى مضيفى على مقعد وثير امام عربة متحركة عليها كل أصناف الشراب .. خمور من اسكتلندا وفرنسا وانجلترا وبولنده .. وعرض على كأسا من أى نوع فاعتذرت وألح فى أن أتناول فى هذا البرد كأسا من فودكا بولندية وقال ضاحكا :

ــ حاجة اشتراكية

ــ أنا ذاهب بعد قليل الى السلطان الحنفى ..

وحدثت فرحات عما يصنعه أخوه رزق وعما حدث لرجال قريتى بسببه فأبدى استنكاره لما يصنعه أخوه وقال لى ان سلوكه ليس اشتراكيا وانه ليس بالقائد الذى يمثل القدوة .. ولطالما نصحه ، بلا فائدة .. ولكنه قال لى انه لايستطيع أن يصنع شيئا للرجال المعتقلين ..

وأحسست أننى أختنق وخرجت مسرعا وأنا أشكر له حسن ضيافته وهو يعتذر لى عن هذا الضجيج الذى يحدثه الشباب .. وشيعنى قائلا ــ زمان تانى .. مش زى زماننا !

وبينما كنت أقف على باب الشقة ومضيفى يودعنى ، اذ بشاب وسيم يترك زميلته التى كان يطوح بها فى الهواء ويختفى فى الزحام خلف الراقصين .

ولكنى عرفته .. وصرخت من شدة الصدمة :

ــ فتحى ..

وأقبل الى فتحى عبد العظيم يتعثر .. ولم أستطع أن أقول له شيئا .. ولكنى انصرفت ، وهو يسير ورائى . وفى الطريق حاول أن يعتذر لى ولكن لم أجد عندى الرغبة فى أن أكلمه .. وألح على فى الاعتذار .. فهذه أول مرة يحضر فيها حفلا من هذا النوع وماكان يستطيع أن يتخلف عن الرقص لكيلا يقولوا عنه « فلاح » .

ووجدت يدى تهوى على وجهه فى الطريق بصفعة حملتها كل غيظى منه ومما رأيت ، وكل صدمتى من المفارقة بين ماهو فيه ، وما فيه أبوه عبد العظيم ! ..

أبوك يفتخر بأنه فلاح وانت تصنع مالا يرضيك لكيلا يقال عنك انك فلاح .. وانت أخيرا ترقص هنا وأبوك مرمى فى السجن لايعرفه أحد !

وتلقى الصفعة كأنها أمر مسلم به .. وشعرت أنا بندم شديد ، وهو يتحسس خده ويقول :

ــ على العموم حضرتك عمي ولما أغلط برضه تربينى .. بس فيه أساليب تانية للتربية .

وضغط على صدرى الندم ..

أنا أيضا لا أحب هذه الطريقة فى التربية ..

وأحببت احتجاجه ، وان كنت ما ازال ساخطا عليه لأنه يهدر نفسه فى رقصات من هذا النوع .. لكم كانوا منفرين جميعا وهم

يرقصون .. لماذا تمتهن بعض الفتيات نضارتهن وريق الشباب فى الوجوه والأجساد الى هذا الحد ؟! والفتيان أيضا !؟ من الرقص مايثير البهجة .. ولكن هذه الهستريا .. لا .. لا .. آه يا ابن عبد العظيم لو كنت تعرف كم يعلق عليك أبوك من آمال .. وانت هنا ترقص الروك اند رول والتويست ! .. وسألته : أيعرف أين أبوه الآن ! فقال بفرح وبساطة :

— ماروح .. روحوا كلهم .. خرجوا النهارده الصبح .. وخدهم مدير الأمن على المحافظة .. زمانهم فى البلد دلوقت .. احنا كافحنا كتير هنا علشان الافراج عنهم والحمد لله أهو المسئول عن اعتقالهم بيحققوا معاه .

— بتقول ايه !!..

— بالامارة كان معتقل معاهم عضو قيادى من لجنة الاتحاد الاشتراكى بالمحافظة .. الشبينى .. كلهم روحوا . هو حضرتك ماتعرفش ؟

ووجدت نفسى أعانقه .. واعتذرت أنا له لأنى صفعته..لعله الفرح هو الذى دفعه الى الرقص الجنونى فى بيت فرحات ولم يحسن هو الدفاع عن نفسه !! شباب ! ولكن كله الا هذا النوع من الرقص ياولد ..

ولكن ما كل هذا الذى يجرى ؟! أنتم أيها الطلبة فى القاهرة كافحتم من أجل الافراج عن الفلاحين فى قريتى ؟ .. ومضى يشرح لى ماصنعوه هنا فى منظمة الشباب ، ودور منظمة

الشباب فى المحافظة .. انها قضية كل مدافع عن الاشتراكية .. الحرية .. الحرية ياعمى ! .. حرية الانسان وحقوق الفلاح .. ولكن كيف عرفت بكل التفاصيل يا فتحى ؟! .. خطاب من الأستاذ ريان .. وخطابات ومذكرات من منظمة الشباب فى المحافظة وبصفة خاصة من طلاب القرية ، يا عمى .

وطلبت منه وأنا أمام مسجد الحنفى أن يعود هو الى الحفل فى بيت فرحات ولكنه صمم على أن يدخل معى الى ضريح السلطان الحنفى .. فما حضر الحفل الا مجاملة لصديقه ابن فرحات بك !

قرأت الفاتحة شكرا لله ..

كان الضريح خاليا ..

ولكنى سمعت من خلفه صوتا يتهدج .. صوت شيخ يهمهم والدموع تغمر الصوت ، ويداه ترتجفان وهى تمسح خشب الضريح .. والى جوار الشيخ قعدت فتاة شابة منكسة الرأس تبكى فى صمت وضراعة .

وراعنا صوت الفتاة والرجل ..

وهمهم الشيخ وبان صوته شيئا فشيئا :

— ياسلطان .. ده يرضيك ؟ .. بقى يا اما ياخد منى بنتى يشغلها خدامة عنده وهو راجل عازب يا اما يحبسنى .. زى ماحبس رجالة البلد !؟ ده يرضيك !؟ . اطلع فى هيئة سبع ياسيدى الحنفى .. هيئة سبع كاسر وفرتكه يا شيخ .. ياسلطان.. دا انا جاى لك

ماشى من بلدنا أنا وبنتى تفيدة • بقى لنا يومين ماشيين انقذنا أغثنا أدركنا يامنى عينى •• أعمل ايه بس •• دى بنتك •• اغثهاادركها بقى ، ياريتنى جوزتها للواد اللى عينه منها كان عرف خلاصه مع المفترى •• يا ريتنى جوزتها له •• الواد سالم ابن انصاف

الشيخ طلبة ؟! وهذه هى ابنته تفيدة ••

وقبل أن أتقدم الى الرجل وابنته ••

ارتفع من ورائى صوت ابن عبد العظيم رهيبا بكل تلك الرغبة فى العبث التى تحرك ظرف الشباب عندما يجدون من هم أكبر منهم فى المأزق :

ـ طيب انذر انك تجوزها له ياشيخ طلبة ••

وانتفض الشيخ وارتعشت يده على الضريح ، وهى تتهاوى:

ـ حاضر يا سلطان •• حاضر يا سيدى •• ندرن على لاجوزهاله ان أزحتعنا الكرب باذن الله ندرن على لأجوزهاله ياشيخ •• بس أغثنا أدركنا ••

ولم أستطع أن أكتم ضحكى •• واندفعت الى الشيخ طلبة :

ـ أهلا يا شيخ طلبة •• ما الرجالة طلعوا •• واللى بالك فيه بيحققوا معاه •• أهو الكرب زال يا سيدى •• تعالوا باتوا عندى الليلة بقى واصبح جوزهاله •

وقال ابن عبد العظيم ضاحكا :

ـ روح البلد بقى •• وأوفى الندر •

وبان على الشيخ طلبة كأنه يفيق من حلم ؟

ـ الندر ؟! بقى أجوزها للواد سالم ابن أنصاف •• جه وجع بطنه •

وقالت تفيدة فى حياء يخالج فرحتها :

ـ دا ندر يابا ••

وقال فتحى مداعبا :

ـ ياسيدنا •• حرام تندر وتخلف •

وأطرق الشيخ قليلا ثم رفع وجهه وابتسم ••

وارتفعت زغرودة وسط الضريح •• وأقسم الشيخ طلبة أن يجلس ليلته يقرأ القرآن حمدا لله •• وانطلق صوته يرتل القرآن والزغاريد تغمر المكان •

***

15

عاد الربيع الى قريتى ••

وسرت أنسام الصباح مفعمة بعطور غريبةتثير فى النفس حب الحياة والمغامرة ، وامتلأت الحقول بنوار البرسيم ••

نضج القمح ، وفى الفضاء العريض ترامت مساحات ذهبية من الأرض تجاورها خضرة زاهية من نباتات أخرى •

وانطلقت تفيدة بنت طلبة تقطف «السريس» و«الجعضيض» من الحقول وتأكل قرون الفول الأخضر مع فتيات من مثل سنها •

ثم جرت الى شجرة توت مثقلة بالثمرات وتسلقت هى الشجرة بخفة وهزت غصنها المترع بحبات التوت والأخريات يتسابقن ليجمعنه من على الأرض خلال الضحكات ، وينفخن التراب من على الحبات ويأكلنها ، استطعاما وفرحا •

ونزلت تفيدة من على الشجرة وجمعت بعض الثمرات ونفخت ترابها ثم قطعت عدة أوراق جعلت منهن غطاء لكفها ووضعت أكبر الحبات وهى تنطلق ضاحكة :

ــ دا نصيب سالم جوزى •

وضحكت الفتيات ••

كانت تفيدة قد انطلقت •

تركها أبوها تذهب الى المدرسة الليلية وعقد لها على سالم

وأقامت القرية فرحا كبيرا مازالت تتحدث عنه •

ولكنى لسوء الحظ لم أشهد هذا الفرح ، وبقى لى منه ما خلفه من ذكريات عزيزة على القرية ••

فقد خرج الرجال منذ شهر ، جاء بهم مدير الامن نفسه الى القرية ، وعقد اجتماعا كبيرا فى دار الجمعية التعاونية ، وأحضر معه بعض رجال الشرطة •

وخلال الزغاريد ، وعناق أبناء القرية للرجال الأربعة العائدين وقف مدير الأمن يخطب فى الناس ، فقال لهم ان رجالهم عادوا مكرمين أعزاء ، وانهم لم يقترفوا جرما ، وأنهم مدافعون كرام عن حقوق القرية وآمالها ، وهم مثل طيبة للفلاح الجاد وللمواطن الصالح •• وان من واجب كل رجل وامرأة فى القرية أن يعتز بأنه يعرف مثل هؤلاء الأربعة وأن يجعل من تضحيتهم فى سبيل مايؤمنون به أسوة حسنة !

وانصرف مدير الأمن ورجال الشرطة والقرية مازالت مجتمعة •

انصرفوا وسط هتافات الناس بحياة العدل ، وبسقوط الظلم!

حدث هذا كله فى الضحى ••

ولم يكد النهار ينتصف حتى كان الشيخ طلبة يقتحم مكان الاجتماع وفى يده ابنته •• يعانق كل الرجال العائدين ••

وعندما عانق سالم قال له :

ــ حلال عليك تفيدة يامديوب •• أنا ندرت ان تلعتم

بالسلامة لاجوزها لك •• والله ما تستحق ضافرها •• لكن الندر أمانة بقى •• مبروك عليك ياللى تنديب !

وضحك كل من كان بدار الجمعيـة التعاونيـة وانطلقت الزغاريد ••

وأقسمت أنصاف وهى تقبل تفيدة ان يعقـد الشيخ طلبـة للبنت على ابنها من لحظته ••

وتعالت الأصوات تستحلف الشيخ طلبة أن يعقـد الزواج الآن !!

وتطوع كثيرون أن يذهبوا الى الدار ليحضروا دفاتر قسائم الزواج ، وأقسم عدد من الرجال أنيشاركوا فى تكاليفالفرح•• وقالت امرأة :

ــ أنا مزغطة دكر بط والنبى لادبحه •

وقالت أخرى :

ــ وأنا على فرخة الوفق •

وقال رجل :

ــ وأنا حاروح المركز أجيب أحسن واحد يقول مواويل •

وأقسم رجل آخر :

ــ على الطلاق لاجيب الطبل البلدى ، يزفهـم دلوقت •• وتداخلت الاصوات •

ــ وهدوم العروسة علينا حانجيبها جاهزة من المركز •

ــ وهدوم العريس على عيلتنا ، نجيبها دلوقت أهه برضـه جاهزة من المركز •

ــ والنبى يابا الشيخ طلبة نكتب الكتاب بقى •

ــ خللى البلد تفرح •

ــ نفسنا نفرح يا أولاد ••

ــ قوموا بنا نجيب الدفتر من دار سيدنا •

ــ حلفناك يابا الشيخ طلبة •• حلفنـاك ياسـيدنا بشرف الأوليا اللى زرتهم ، خلينا نفرح ياشيخ •

وعندما جاء العصر كانت القرية تتهيأ للزفاف ، وقد أحضرت كل شيء رأته لازما للعروسين ••

وخرج سالم من منزل الحلاق بعد أن حلق واستحم هناك ، والحلاق يرقص أمامه على دق كفوف الرجال ••

وطاف موكب العروس بالقرية ، على أنغام الطبول والمزامير يتقدمه العريس سالم ، والى جواره هلالى وعبد العظيم والاستاذ عبد المقصود والاستاذ ريان وأمامه بحيرى يرقص بعصاه وحوله رجال القرية وشبانها ومن ورائهم الفتيات يغنين ويرقصن ••

وأمام ساحة واسعة توقف الموكب ، وبدأ الرجال يلعبـون العصا ••

وألح توفيق حسنين على عبد العظيم أن يلاعبه العصا ••كان عبد العظيم كغيره من الرجال العائدين لم يلتقطوا أنفاسهم بعد ••

حدث كل شيء بسرعة ، ما كادوا يعانقون الرجال خلال الدموع حتى أخذتهم دوامة الفرح ..

ومع ذلك فقد كانوا لايتحدثون : الابتسامة على الشفاه ، وعلى الوجوه ذهول . وفى الاعماق انفعالات عديدةمختلطة . وكان عبد العظيم كمريض ناقه يستقبل الحياةبعد غياب طويل خطير فى فراشه ..

الأشياء تبدو أمامه كأنها جديدة . كأن لكل شيء لونا آخر .. وكأنه يعرف الحياة فى هذه القرية لأول مرة !!

وعرض عليه أحد رجال القريةأنيلاعبه بالعصاولكنهاعتذر .

ثم ألح عليه توفيق حسنين ، ففاض حنينه الىلعبالعصاوالى اجتناء المسرات التى حرم منها طويلا، والتى خيل اليه لبعض الوقت وهو فى سجنه أنه لن يعود اليها أبدا .. فلن يرى ضوء النهار بعد، ولن يستنشق أنسام الحقول آخر الدهر ! ..

ووسط الزغاريد تقدم عبد العظيم يلعب العصا متثاقلا ودار .. ودار توفيق حسنين .

وأشار عبد العظيم بطرف عصاه الى رأس توفيق حسنين : هنا مكان يستطيع أن يضربه منه ، ولكنه اكتفى بالاشارة اليه .. وانطلقت الزغاريد من النساء وصيحات الاعجاب من الرجال ..

واستدار عبد العظيم ، وحين كان ظهره الى توفيق حسنين وقبل أن يبدأ دور جديد انقض توفيق بسرعة خاطفة فضرب

عبد العظيم على مؤخرة كتفه . ورقبته . وسط صرخات التحذير ، واندفاع رجال فطنوا لما يريده توفيق حسنين .

وسقط عبد العظيم على الارض ، ووسط صياح مضطرب :

ـ خده غدر ..

ـ ضربه خوانة . غدر .

وأحاط رجال بعبد العظيم . واستطاعوا أن يوقفوه آخر الأمر ..

وحين وجد توفيق حسنين نفسه محاطا بلهب النظرات ، والعصى تهتز من حوله صرخ فى انهيار وذعر :

ـ أنا ماليش دعوة .. ماحدش يضربنى وحاقول لكم الحق .. رزق بيه هو اللى سلطنى ..

واحتد الشيخ طلبة :

ـ رزق بيه !؟ اخرس .. دا مدينا الجمل بتاعه علشان زفة العروسة .. رزق بيه ؟ اخرس يانجس .. ده منقط العروسة بعشرة جنيه .. اداهم لى بايده ساعة ما رحت ادعيه لحضور الفرح .. ده لولا عنده شغل فى مصر ومضطر يسافر كان بات مخصوص علشان فرح البنت .. رزق بيه ؟! قطع لسانك .. لو قلت لى اسماعيل كنت أصدقك لكن البيه رزق لا . والبيه اسماعيل أهو غار فى داهية .. يبقى مين اللى سلطك بقى !؟

وصاح رجل :

— ما كفاية بقى يا سيدنا الشيخ طلبة ..

وضاقت الحلقة حول توفيق حسنين فعاد يقسم ان رزق بك هو الذى طلب منه أن يلعب العصا مع عبد العظيم وينتهز اية فرصة ليضربه فى مقتل .. وأفهمه أن لا عقاب عليه ، فالأمر كله سيؤخذ على أنه خطأ فى اللعب ..

وارتفع صوت من أحد الذين يحيطون بعبد العظيم :

— على العموم جت سليمة .. عبد العظيم أهه قام كويس والحمد لله .. ألف حمد لله على كل حال .. والمسامح كريم .. عبد العظيم سامحك يا بغل !

واعترض رجل :

— الحمد لله يا سيدى .. لكن لازم الحكاية دى ما تعديش كده .. لازم نشتكى لمدير الامن .. يا نهار أغبر .. هى حصلت القتل .. تقدر يا توفيق يا بو حسنين تثبت الكلام اللى بتقوله لنا ده ؟ .. تقدر تثبت ان رزق بيه هو اللى سلطك ؟ .. ما النهارده ضرب الواحد فى لعب بكره يقتل بجد !

وانهار توفيق تماما :

— فى عرضكم بلاش فى دى .. كتموا عالخبر ده .. أنا محقوق وآدى راسكم أبوسها واحد واحد .. يا ناس .. فين عبد العظيم ..

واندفع الى حيث وقف عبد العظيم محاطا ببعض الرجال

— آدى راسك أبوسها .. فى عرضكم يا ناس .. أنا مستعد تعملوا حق عرب تحكموا عليه فيه بأيها مبلغ .. ان شا الله حتى أدبح عجل .. بس بلاش الشكوى ..

وارتفع صوت الحلاق :

— طب ادبح لنا عجل يا عجل .. آدى الحكم .. نفذ بقى !

وابتسم عبد العظيم .. وضجت أصوات بالموافقة. وانسحب توفيق ومعه بعض رجال وقد أقسموا أن يذبحوا العجل ويوزعوه على المحتاجين من أهل القرية .. وتنازعوا .. لا .. فليكن العجل هو عشاء الفرح الليلة ..

لا .. فليوزع .. وأخيرا اتفقوا على أن يطبخ اللحم ويصنع طعام فى بيت توفيق ويقدم على الصوانى ليأكل من يشاء من أهل القرية .. وضحكوا قائلين :

— أهى الغرامة دى عند توفيق أبو حسنين أكثر من الشنق !

ووافق توفيق على هذا لينجو بنفسه وقد استحلفهم فى مقابل هذا أن يكتموا عليه ما قال على رزق ..

وسهرت القرية حتى الصباح تسمع المواويل والاغانى ، وتأكل من الطعام الذى صنع فى بيت توفيق أبو حسنين .

ولكن الرجال العائدين من الحبس أصبحوا فحدثوا القرية عما جرى لهم فى السجن .. كل ماعانوه من فظائع .. وأقسم عبد المقصود وهو يحكى للمدرسين أنه لم يكن يتصور أنه يوجد فى الارض رجال يحملون كل هذه الكراهية للانسانية وكل هذه

القدرة على تحطيم ماهو نبيل ، ولا كل هذه الطاقة الهمجية،حتى عرف الذين حققوا معه فى السجن !

انه لآثم كل رجل لايرفع صوته بالاحتجاج ضد هذه الفوضى .. آثم كل من يسكت على العذاب !.. ان طريق الخلاص أمام هذا الوطن هو انقاذه من هذه المهانة .. من هؤلاء الذين يهدرون انسانية المواطنين . انهم لايجسرون على أن يعاملوا العجماوات كما عاملونا يا أهل البلد ! .. أكتبوا الشكاوى الى كل جهة فى القاهرة واحكوا فيها ما جرى لنا .. وأنتم يا تلاميذ البلد .. ناقشوا هذا كله فى منظمات الشباب .. فمن هو الذى يستفيد من هذا كله ؟! ليس هو الوطن .. لحساب من تدمر معنويات المواطنين وتمتهن كرامتهم ويسحق كبرياؤهم ؟.. أليفقدوا الثقة فى العصر الذى يعيشون فيه .. ولكننا لن نفقد الثقة .. ان الذين يصنعون هذه الجرائم انما يدمرون روح الشعب ، وينشرون الخوف .. وحين يسود الخوف ، فهى النهاية .. تحركوا يا أولاد القرية .. روحى يا انصاف قابلى الوزير الذى قابلته وقدمى له هذه الشكوى وأنت يا ابن عبد الواحد ناقشهم فى هذا الامر بمنظمة الشباب فى المحافظة .. وانتم يا أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى أكتبوا كلكم الى قياداتكم .. قولوا لهم ان الذين يصنعون هذا بالانسان انما يمهدون الأرض أمام العدو . قولوا لهم .. ان الذين .. ولكن لا ، لا ، لا تقولوا شيئا .. لقد انتهى عبد المقصود .. كنت يا عبد المقصود وانت طالب فى مدرسة

المعلمين تهتف بسقوط الانجليز وتتحدى الرصاص وتقاتل بثقة .. ولكم قبضوا عليك مع غيرك من الطلاب . الانجليز أعداء الوطن . ومع ذلك فما صنعوا بك شيئا مما صنعه بك أبناء وطنك .. انهم باسم حماية الاشتراكية ، يمزقون الاشتراكية وينتهكون قداسات الحياة جميعا . وماذا يصنع وطن منتهك ؟! ولكن لا يا أستاذ عبد المقصود دع القرية ترفع شكاواها .. الذين صنعوا هذا برجال القرية لايمكن أن يكونوا أبناء شرعيين لهذا الوطن..لا.. انهم ينفذون فيه خطة عسف يريدها أعداء الوطن .. انهم يدمرون الاشتراكية .. .. اسمع كلامنا يا أستاذ عبدالمقصود .. لاتعتزلنا .. قف معنا كما كنت . لاتقفل على نفسك الباب ، سنحطم الذين صنعوا لكم كل هذا العذاب . ابتسم ياشيخ وتفاءل واعتمد على الله .. أتحسب أن اسماعيل هذا من حماة الاشتراكية .. لماذا لاتفكر فى رجال مثل مدير الأمن ؟! مثل الفرماوى .

وظللت طويلا أحاول أن أقنع عبد المقصود بالخروج من داره الى الناس كما كان . ولكن بلا جدوى ، لقد خرج وناضل واستمسك بكلمات الميثاق فاذا به يمزق ويعذب وتهدر انسانيته ، وتبول عليه الكلاب ! . رجال كاسماعيل صنعوا به وبرجال القرية مالم يقرأ عنه فى أى عصر ! آه لو أن عبد العظيم خيمت عليه هو أيضا هذه الغاشية من اليأس القاتم !

ولكن عبد العظيم لم يغلق على نفسه بابا .. مضى يقول انهم لاقوا مالا يوصف من الهوان .. هذا حق .. ولكنهم يعرفون ان

للفلاح دائما مثل هؤلاء الاعداء حتى فى زمن الاشتراكية .. انهم أعداء الانسان ومن واجب الانسان أن يقاومهم مهما اعتصموا بقلاع السلطة أو تسلحوا بالزيف . انهم بلا ريب لايستطيعون أن يجهروا بعدائهم للشعب ، ولكنهم يتسللون الى الأماكن الحساسة ليوجهوا منها أكثر الضربات قذارة وضراوة واحكاما .. ولم نروح الى بعيد ؟! .. هاهى ذى القرية معطلة .. آلات الجمعية التعاونية مغلق عليها .. والفلاحون يلتمسون الرى أو الحرث فلا يجدون الآلات . والزروع تذوى ، ويضطر الفلاح الى الرجعة لما كان قد هجره من وسائل .. الى الطنبور والمحراث الذى تجره الحيوانات .. رجعة الى الوراء بعد أن كانت القرية قد تقدمت الى أمام . رجعة دائما .. آه .. هؤلاء الرجعيون !

أما سالم فقد أقبل على حياته مع تفيدة واندفع بها وكأنه نسى كل ماحدث له . مازال فى حلقه طعم من تلك المرارة ولكنه يقسم للناس أن الذين صنعوا به هذا هو والرجال ليسوا مصريين ولا من بنى آدم على الاطلاق .. وعلى كل حال . فلهم يوم ، ومصيرهم أن ينكشفوا فاذا هم أعداء الاشتراكية وللبلد كلها ، والله منتقم جبار ! فكما صنعوا بنا لابد أن يصنع بهم !

انشغل سالم بمساعدة تفيدة فى مذاكرة دروس محو الأمية اذا كان الليل .. أما فى النهار ، فكان يذهب الى أرضه .. سعيدا بالمشرف الجديد ، يُروى كل ماكان يصنعه المشرف القديم ، على الرغم من أن عبد المقصود كان قد حذره ألا يندفع فى الثقة بأحد .

فما جاءتهم الكارثة الا لأنهم كانوا يثقون بلا حساب ! ..

وما كان هلالى مشغولا بشىء من هذا كله .. كان يعرف أن عبد المقصود سيعود الى طبيعته الأولى ذات يوم عندما يزول أثر الصدمة وهكذا أقسم له ريان .. فالذين عذبوهم كانوا يريدون منهم على التحقيق أن يمتنعوا عن الاهتمام بأمور الجمعية التعاونية والاتحاد الاشتراكى .. كانوا يريدون منهم أن يسكتوا عن الحق ، ليدعوا الظلم يسود .. ولكننا لن نسكت !

كأن شيئا لم يحدث لهلالى ! ..

ولكنه كان قد فكر وهو فى سجنه فى أولاده الصغار .. كيف يعيشون ؟ ماتت أمهم منذ عام وتركتهم له .. أكبرهم فى العاشرة ، كان يبكى أحيانا وهو فى سجنه ، وهناك قرر ان أذن الله بالفرج أن يتخذ له زوجا لترعى الاولاد ..

وفكر فى انصاف ! ..

وكلم سالم .. وشعر سالم بالحرج فلم يجبه ..

فذهب الى انصاف نفسها يكلمها .. ولكنها قالت له انها لن تتزوج ..

ــ ليه يابت .. ما الواد اللى اترملت عليه كبر أهه واتجوز .

ــ أنا خلاص كبرت على الجواز .

ــ كبرت عالجواز ؟! دا اللى قدك فى مصر لسه ماتجوزوش دا انت فى عز شبابك ياانصاف .. غيرشى هو الهم ؟! فكرى ياشيخة

وفكرت انصاف ..

ومضى هلالى يوسط لها الشيخ طلبة ، وعبد العظيم ..

واقتحم على عبد المقصود فشغله بهذه الوساطة عند انصاف .

وعندما أعاد عليها الكرة قالت له انها لن تتزوجه حتى تسقط القرية رزق بيه فى انتخابات الجمعية التعاونية والاتحاد الاشتراكى .. انتخابات ؟! ولكننا لم نفكر فى هذا أبدا يا انصاف ! .. ياسلام .. انت والله امرأة بمائة رجل .. روحى ياشيخة اكسرى الباب المغلق على عبدالمقصود ليخرج معنا الى النور .. فوالله مافتح قلبه لموضوع منذ خرج الا لموضوع زواجك يا انصاف ..

نعم .. نعم يا أهل البلد ..

يجب أن تجتمع البلد كلها وتجرى انتخابات جديدة للجمعية التعاونية وللجنة الاتحاد الاشتراكى ..

وسيطرت الفكرة على القرية ..

وبدأ عبد المقصود يخرج من داره ليخالط الناس .. آه .. هكذا ياشيخ .. بدلا من أن تغص بمرارتك ياعبد المقصود ، فلتبصق كل ماعندك من مرارة فى وجوه الاعداء .

***

16

راح هلالى الى الشيخ طلبة فى داره يسأله عما انتهت اليه مباحثاته مع انصاف ، فهلالى لا صبر له حتى تجري الانتخابات ويسقط فيها رزق .. ربما نجح رزق ، أفتضيع عليه انصاف الآن ؟! مادخل الزواج ولم الشمل بهذا كله ؟! .. لعن الله كل شيء ! ..

وسمع له سيدنا وهو قاعد القرفصاء فى القاعة التى مازال يخفق فيها شعاع المصباح فى تلك اللحظات الأولى من الصباح .. وسيدنا يفكر فى أن هذه القاعة لم يوقد فرنها ليلة أمس ، ولا الليلة التى قبلها .. من ليال طويلة لم يجد من يحمى له الفرن .. منذ تزوجت ابنته تفيدة وتركت له البيت يعيش فيه وحده لتعيش هى فى الدفء عند سالم فى بيت أمه انصاف .

وسكت سيدنا طويلا ثم قال لهلالى :

ــ عاجبك ياهلالى قعدتى كده ؟ .. وشرف المصطفى ياشيخ أنا طول الليل نايم مقرفص ومرصرص من البرد .. صقعة ايه دى يا اخواتى ؟! وادينى فى آخر العمر باصحى أدور على لقمة .

وارتفع من وسط الدار صوت محتج يقاطعه :

ــ ليه بقى يابا .. ماأنا باشقر عليك الصبح والعصر ..

وقال الشيخ طلبة بألم :

— فضلة خير سي سالم ..

واستمرت تفيدة :

— أنا نسيت أحمى القاعة ليلة امبارح . يقطعنى .. الدنيا ماكانت دفت والربيع جه كده والقمح اصـفر فى الغيـطان .. أنا عارفة ايه اللى رجع السقعة تانى .. دا برد العجوزة يابا ..

وغضب الشيخ لكلمة العجوزة فشتمها .

ودخل هلالى قبل أن تستمر المناقشة يسأل سـيدنا عن رد انصاف ..

أتراه يعتمد كثيرا على مايستطيعه سيدنا الشيخ طلبة معها ؟ فانصاف لاترد له كلمة !!

أخذه سيدنا من يده وخرج به الى الطريق البارد ، وسارا تحت ضباب الصباح .. وشمس الربيع تقتحم الفضاء بجسارة وتستلقى على الطرقات المزدحمة بالناس والبهائم .

ووقفا أمام باب الحلاق .. لم يقل أحدهما للآخر الى أين يتجه . ولكن كلا منهما كان يريد أن يبدأ نهاره بالزينة .

وعندما فتح الحلاق بابه راعه منظر لحية هلالى .. كانت قد استطالت على نحو لم يعرفه أبدا ، وشعراتها البيض تغمر الشعرات السود .. وعلى الوجه سهاد وضنى ، وفى الجفون ذبول .. قبل أن يتبادل الرجال تحية الصباح ، صـفق الحلاق ضاحكا وهـو يسلم على هلالى ..

— أهلا .. أهلا .. سايب دقنك كده ليه ؟ يعنى مجنون ليلى

ياخى ؟ تعال ياخويا أزينك وأخليك عريس بصحيح بدل ماتدور فى البلد كده زى مجنون ليلى .

وضحك سيدنا ، ولكن هلالى رد غاضبا :

— جن لما يلهفك .. خد دقنى وانت ساكت ..

والتفت هلالى الى سيدنا :

— بدل الضحك ده ياسيدنا ماتخلصنى من شد المسخرة على فى البلد الغبرا دى ..

وضحك الحلاق وهو يسن الموسى على قطعة مشدودة من الجلد ..

— بقى العروسة مش فاضية ، مشغولة بالجمعية والانتخابات والعريس سيد الرجالة ، أبو زيد الهلالى ، حاله بقى عدم ؟ هع..! حالى عدم من كتر هجرانك : هع !.. والله دى بلد غبرا صحيح.

ولم يطق هلالى مزاح الحلاق فانفجر فى سيدنا ..

— دهدى ؟ قلت ايه ياسيدنا ؟ .. ايه رد الست أم سالم ؟!

ورد سيدنا :

— ياواد ياهلالى ما انت شايف بعنيك اللى حياكلهم الدود دول ان الدار صفصفت عليه من يوم ماتفيدة اتجوزت ! .. أنا قلت تلم كلنا .. تيجى تفيدة وسالم يعيشوا معايا ومعاهم الست أم سالم كمان .. خلى الدار اللى بقت خراب دى تعمر ياهلالى .. أيوه خلى الدار تعمر بالست أم سالم .

وضحك الحلاق والدهشة تعلو وجهه :

ـ الست أم سالم ؟ . انت ستت انصاف يا سيدنا..يبقى عليه العوض .

ثم ترك الموسى وذقن هلالى وصفق :

ـ الله .. الله .. دى القعدة حليت .

ورد هلالى ورغوة الصابون تغمر شفتيه :

ـ يعنى ايه معنات الكلام ده يا سيدنا . رسينى بقى .

ـ معناته؟..يا أخى ان الله لا يستحى من الحق .. معناته انى أنا اللى حاتجوز الست أم سالم .. انصاف يعنى .

ودفع هلالى يده فى صدر الحلاق بعنف فنحاه بعيداً .. وانقض على سيدنا :

ـ يعنى أسوقك عليها علشان تجوزها لى تقوم تخطفها انت لنفسك ؟

ـ أقعد ياواد ياهلالى مطرحك .. أقعد .. خطفك عفريت ويكون من الذين كفروا .. أخطفها قال !

ـ تتجوزها ازاى ياسيدنا ؟ .. تتجوز انصاف ازاى ؟ وهى ترضى بك ؟ دا انت سنك ييجى .. ييجى ثمانين ، تسعين ، قول ميت سنة . دا انت مولود قبل ثورة عرابى ياسيدنا .

ـ ياك تنسور فى دماغك ياهلالى . بقى أنا مولود قبل هوجة عرابى ؟ أنا يا هلالى ؟ .. بتقول الكلام ده علشان يبلغ الست أم سالم ؟! لا ياسيدى أنا مولود سنة ١٩٠٠ واحنا فى ١٩٦٥ يعنى

سنى ٦٥ سنة .. ايه يعنى ٦٥ سنة ؟ .. هه ؟ ابقى كبرت عالجواز؟ دانا فرخ أكتر منك ! .. ولو كنت بالعب عصا كنت غلبتك فى لعب العصا كمان !

ولم يجب هلالى غير أن الحلاق قال بخفة :

ـ على كل حال ياسيدنا الميه تكدب الغطاس ..

واحتد سيدنا الشيخ طلبة على الحلاق :

ـ احلق وانت ساكت غطست ماقبيت ..

وابتسم الحلاق :

ـ اسمع ياسيدنا أناحاقول لك كلمة ماتزعلشى منها .. اسمعنى كويس .. وانت حر بعدكده .. سيبك من الجوازةدى..انصاف لهلالى .. سنهم قريب من بعض ولايقين لبعض .. وانت ياسيدنا راجل كبير برضه وما يصحش يتقال ان هلالى وسطك تفتح باب الكلام فى الجواز مع انصاف علشان تدخل انت .. هم .. والله ان سمعت الكلام ده يبقى يا دار ما دخلك شر..وان ما سمعتوش،أنا يا سيدى مستعد أزينك وأهندزك وأخليك عريس بحق وحقيق.. وأخللى الحنة عندى وتنزف من هنا .. قال على رأى المثل انصح حبيبك من الصبح للضحى وكمل له بقيت النهار غش .

وارتفع صوت شاب :

ـ ماهو ده اللى ودانا فى داهية .. ماهو ده اللى ضيع كلمة الحق وأخر البلد .

ورحب الجميع بالقادم..كان هو سالم ابن الست أم سالم .

وقال الحلاق بخفة :

ــ بس .. آدى الجمل وآدى الجمال ..

وتحرج سالم وضاق صدره .. انه لايريد أن يناقش زواج أمه ، ولا أن يفكر فيه ، ولئن شاءت هى أن تتزوج أى رجل ، انه لن يحدثها فى هذا الأمر . ولكنه على أية حال لن يقول لزوج الأم يا عم . هلالى هذا كان صديقا لأبيه ، وكان أبوه يأخذه ويسهر مع هلالى فى نوبة خفارته يشربان الشاى ويتحدثان عما يلقيان . ولطالما سمع منهما بشغف وهو طفل الى حكايات عن رجال الليل وعن عفاريت من الجن والانس . ولكن هذا الأمر كله ينبغى ألا يشغل أحدا الآن .. أمه نفسها لا تفكر فيه وهى منذ أيام تدعو نساء القرية ليشهدن الاجتماع الذى سيعقد فى دار الجمعية بعد ساعة .. وهو نفسه قد طاف بكثير من الرجال يدعوهم الى هذا الاجتماع .. والأستاذ ريان يجمع الطلبة .. اننا فى يوم جمعة .. يوم اختاره عبد المقصود ليكون طلبة القرية الذين يدرسون فى عاصمة الاقليم موجودين فى القرية . وليكون الموظفون موجودين أيضا .. وان كان عبد العظيم لايرحب بدعوة الموظفين لأنهم ليسوا كالفلاحين ، ولأنهم قد يحسبون حساب الفصل ، أو التشريد .. والرجال من أمثال اسماعيل حين يضغطون على الناس فهم يلجأون الى كل ماهو غير انسانى ، حتى الفصل وحرمان الصغار من لقمة العيش . ولكن سالم طاف ببيوت جميع الموظفين . وطافت نفيدة ببيوت طالبات . وبحيرى يرمح فى طرقات القرية يدعو الناس بصوت

مرتفع الى اجتماع اليوم فى الساعة الثامنة صباحا .. انه يقلد أصوات المذيعين الذين يسمعهم فى الترانزستور .. هنا القاهرة .. فى الساعة الثامنة تماما ننتقل الى اذاعة خارجية فى دار الجمعية التعاونية ومقر الاتحاد الاشتراكى .. هنا القاهرة .. بحيرى لا يخبط على دار أحد .. ولكنه يطلق صوته بالنداءات ضاحكا .. لاتنسوا الساعة الثامنة .. وأطفال من القرية ينطلقون فى جماعات يغنون مصفقين (الساعة ثمانية فى الجمعية) لم يطلب أحد منهم هذا ، وما علمهم أحد هذا الايقاع .

كل القرية تحتشد لاجتماع الساعة الثامنة .

ولكن هلالى هنا مشغول بشىء آخر .. وهو مازال يلح على الحلاق أن يهذب له شاربه من هذه الناحية .. ومن الناحية الأخرى .. لا .. لا .. المقص جار على الشعر ، ساو اذن من جديد .. ثم يرتفع صوته مخاطبا الشيخ طلبة حول الزواج !

يا هلالى أخرج من عند الحلاق وانظر فى طرقات القرية .. أولادك الصغار يارجل ينادون مع أطفال القرية : (الساعة ثمانية فى الجمعية !) ولكنك أنت ! .. أنتم الثلاثة .. أى أمر هذا الذى فيه تختلفون !؟

***

وفى الساعة الثامنة كانت دار الجمعية التعاونية تفيض بالناس .. لم يتسع المكان للحاضرين .. جمعوا كل ما فى القرية

من كراسى ودكك .. وامتلأت الاماكن الخالية بين المقاعد بالواقفين وامتلأ الفضاء أمام الجمعية بالزحام .. والزغاريد ترتفع وأحد الرجال يحاول أن يسكت النساء .

ــ بتزغردوا على ايه ؟! يعنى خلاص ؟ البلد نالت المنى ؟! ماكينات وآلات الجمعية ماهى مقفول عليها والحال واقف .. ماحدش مستنفع بيها غير سى رزق ! .. جاتكوالغم . بكره ييجى لنا من مصر راجل تانى زى اسماعيل ! والا اسماعيل نفسه .. جاتكو الهم !

وخضت فى الزحام المتحفز النابض بالأمل الى أن وصلت الى مائدة كبيرة فى وسط المكان جلس اليها عبد المقصود وعبدالعظيم وريان وجميع أعضاء الجمعية التعاونية برئاسة رزق .

كان رزق هادئا .. استقبلنى بابتسامة عريضة ؛ وهو يتوسط أعضاء المجلس .. وأقسم أن أجلس على المائدة مع أعضاء المجلس ولكنى اعتذرت وأقسمت أن أقف وسط الزحام .. كنت أريد أن أشعر اننى حقا أحد هؤلاء الناس الواقفين .. كفانى بعدا عنهم طيلة هذه السنوات !

وحاولوا أن يتنحوا ليجدوا لى مكانا أستريح فيه على مقعد وتنادوا ليحضروا لى كرسيا لكنى أقسمت على الجميع أن يتركونى واقفا . فأنا هكذا بينهم سعيد ! .. لماذا يجب أن أتميز .. لماذا يشعرون حتى هم أنفسهم أنه من الواجب عليهم أن يميزونى

بمقعد ؟! كل هذا الانفصال بين الرجل منا وأهله ؛ لمجرد أنه عاش فى المدينة وأتيح له هناك مالم يتح لهم ؟!

وشعرت وأنا أقف وسط الناس بانفعالات غريبة لم أعرفها من سنوات .. لكم هو مؤلم أن نكتشف فجأة أننا عشنا السنوات نتحدث عما لانتقنه ؛ ونصوغ عواطفنا بالعقل والحكمة وبمنطق مايجب أن يكون ! لكم هو معذب أن نكتشف ان للناس رائحة غير التى تعودناها ، وان فى أعماق الفلاح عالما بأسره من الرؤى والخوف والأمل لايعرفه أحد حتى نحن الذين خرجنا من أرضهم لكيلا نعود اليها الا بعد الموت . وربما لم نعد حتى بعد الموت !

وشعرت بأن نظرات الذين وقفت فى وسطهم تستلقى على خفية .. فى شىء غامض من التساؤل ! لم تكن هى الكراهية ؛ ولكنه لم يكن الحب أيضا .. ولا الثقة ..

ماكان واحد يوجه مثل هذه النظرة المتسائلة المستخفية الى أخيه الفلاح .. ولكن لى أنا ؟! لكم اقتنصت من نظرات لم أشهدها من قبل .. ماكنت أعرفها وأنا معهم منذ سنوات .. ولكن بعد طول هذا الانفصال أصبحت عندهم رجلا من المدينة ، مسئولا الى حد ما عما تصنعه المدينة بالقرية .. لم تكن نظرات رافضة .. لا .. ولكنها أيضا لم تكن هذه النظرات التى تتلقاك بالترحيب؛ وتعانق موداتك فى حنان كنظرات الأبناء والاخوة والاعزاء الذين يلقونك بعد طول غيابك وتشعرك نظراتهم أنهم فى حاجة الى

وجودك .. أهى اللحظات الحالكة التى عاشهـا رجال القـرية فى سجن المدينة الكبيرة .. مدينتى القـاهرة ، خلقت هـذه الهوة بيننا ؟ ..

حتى نظرات عبد العظيم كان يخالطها شيء غريب .

والوقت يمضى .. وأنا أشعر بطمأنينة أكثر وسط الزحام وصوت رزق يرتفع موجهـا النـاس فى أدب وألفـة ومزاح أن يتنحوا بعيدا عن الجدران لكيلا يخفوا ماعليها من صوروشعارات والمقتطفات من كلمات الميثاق والرئيس ..

وقام هو بنفسه ينحى الناس .. ماكل هذا ؟ وعندما وصل الى همس بكلمات فهمت منها أنه عرف لقائى بأخيه فرحات وأنه قد استمع الى نصح فرحات ! وعاد يلح على أن أجـلس .. واذ كررت اعتذارى ذهب الى مكانه يعلن افتتاح الجلسة ، وتركنى محاطا بنظرات فيهـا الشك هـذه المرة ! .. لمـاذا يا أخى جئت تهمس لى ؟!

وارتفع صوته ثقيلا :

ـ يا توفيق ما تزقش حد .. الناس من نفسها فاهمة انهـا مايصحش تخبى الحاجات المتعلقة على الحيطان .. عامل النـاس بأدب ياتوفيق يا أبو حسنين أحسن أقطع جدرك من البـلد .. خليك اشتراكى . الملصقات دى تخص أهل البلد .. تخص الشعب وهو حريص على اظهارها .

وساد صمت ووجم توفيق حسنين الذى كان يدفع الناس بعيدا عن الجدران لتظهر الشعارات والمقتطفات .

وانطلق صوت رجل من بعيد فى نبرة متحدية .. كان هو ريان يقول :

ـ المهم ان الكلام ده نستوعبه بقلوبنا ونعمل به . مش المهم يعنى وضعه على الجدران ..

وتحفز ريان بعد كلمته للدخول فى مناقشة .. ونظـراته تستنجد بعبد المقصود وعبد العظيم .

وعلق رزق مبتسما :

ـ طبعا .. طبعا .. يا أستاذ ريان .. أنا والله دايما معجب بحكمتك وعمق تفكيرك .. ودلوقت يا اخـوان بصفتى رئيس الجمعية وأمين لجنة الاتحاد الاشتراكى .. وبصفتى واحد منكم لى كلمة مهمة جدا .. احنا طول عمرنا أهل .. وطول عمرنا يد واحدة من أيام المرحوم البيه الكبير ماكان واقف ضد الأمير .. ويوم مامات كانت البلد كلها بتبـكى عليـه بدل الدموع دم .. الفاتحة له ..

وسرت همهمة بقراءة الفاتحة .. تقطعها أصوات خافتـة :

« الله يرحمه .. لكن النار بتخلف رماد .. الله يرحمه ويحسن اليه أبوك كان حاجـة وانت حاجة .. أبوك ؟ انت فين وأبوك فين ؟ ايش جاب لجاب » .

كان رجلا طيبا أبوك هذا الذى تستنجد بذكراه يارزق .. وكان ينتمى الى حزب يصارع الأمراء . وكان الحلاق اذ ذاك يقول حين تتحرج الأمور — كما يقول الآن — انه مع الشعب والأمرا والوفد والوزرا .. نعم مامن أحد ينسى أباك .. كان الأمير دائما حانقا عليه وكان هو عضو الشيوخ عن الدائرة ، وكان عندما يستخدم الأمير رجال السلطة للعسف بأحد ، يذهب أبوك هو نفسه الى عاصمة الاقليم والى القاهرة ويقيم الدنيا على بطش الأمير فتكتب الصحف مقالاتها عن الحرية والحق ، ولا يعود أبوك الا اذا رد الى المظلوم حقه .. ولكن الفلاحين فى أرض أبيك .. كيف كانوا يعيشون ؟ أما كان هو أيضا يسلبهم ثمرات العرق ؟ !! انه لم يجلد أحدا كما جلدت أنت سالم .. حتى عندما كانت حكومة حزبه فى السلطة ، ماكان يجرؤ على هذا لأن صحف المعارضة كانت حرية بأن تمزقه ! والفلاحون يملكون الآن .. هؤلاء الذين كانوا معدمين فى أرض أبيك أصبحوا اليوم ملاكا .. ولكنك تسجنهم لأنهم يتمسكون بحقهم فى العدل يارزق ! .. لماذا هذا الخيار اللعين بين الحرية والعدل ! ولكن العدل هو حرية الانسان فى الحصول على كل حقوقه لو علمت يارزق .. فلا عدل بلا حرية ! ولكنك لا تفهم هذا . كان الناس يحبون أباك هذا حق ؛ لأنه لم يكن أمامهم خيار .. اما الاقطاعى الكبير واما هذا المالك المتوسط ! وأمام طغيان الأمير ؛ فان الاستغلال يهون .. وليس من يسلب الناس جزءا من الرزق كمن يسلبهم كل شىء .

كان الفلاح أيامها فى المأزق : اما العدل واما الحرية ! خيار مأسوى هو القهر بعينه ! .. ولكن الفلاح كان دائما يختار الحرية ! .. أتدرك أنت يارزق أية بلوى تنزلها بالناس أنت ومن يحمونك ؟! .. انه لبلاء عظيم !

فالذى كان أجيرا مستغلا أيام أبيك أصبح الآن يترحم على تلك الأيام على الرغم من أنه يملك الآن أرضا ، ولا أحد يستغله فيها بعد ! انه يملك قوام الحرية : الانعتاق من ضغط الحاجة ؛ ومع ذلك فرجال مثلك يسلبونه الثقة والأمن والانطلاق ! .. انك باسم الاشتراكية تسحق كل ماهو رائع ونبيل فى الاشتراكية: حلم الانسان بالحرية أمام الحاجة ، وبالانتصار على الخوف وبالقوة أمام المصير . شعور الانسان بأنه سيد الكائنات وسلطان الأرض . واحساسه بقداسة كيانه وروحه ! .. وبأن له الحق فى أن يحترم !

كل هذا أهدرته أنت واسماعيل تحت راية الاشتراكية يارزق .. وانت مع ذلك فلاح تملك سبعة عشر فدانا .. وترأس لجنة الاتحاد الاشتراكى والجمعية التعاونية ! . واسماعيل قريبك الذى يستعمل سلطان الدولة ليسحق كبرياء الرجال وليمتهن شرف الوطن ويثير الخوف فى القلوب . من أى أغوار العصور الهمجية شكل لنفسه وجدانا وأعصابا ووضع فى صدره قلبا ؟ ..

وأى جزاء يمكن أن يكون قصاصا عادلا من هذا الذى يسحق بالقمع كل ماهو متفتح فى هذا الوطن ؟

أمثالك انت واسماعيل قد سلطتهم قوى شريرة غاشمــة من خارج التاريخ على عصرنا هذا الوضيء الذى يريد فيه الانسان أن يكون أخا للانسان ، أنتم ؟! انكـم لعارنا ووصمتنــا .. يا من تحولون الحياة الى غابة ضارية تحكمها الافعى والوحش والخديعة .. ويتهرأ فيها تحت الاظلاف نخاع الانسان !

وأخذت أتأمل وجوه الرجال الاربعة الذين كانوا قد خرجوا من السجن مثقلين بأهوال العذاب..هذه الابدان الشريفة الرائعة احتملت كل هذا الهول ، والجلاد بينهم يبتسم وفى أغواره رضى عظيم على نفسه !

وثبتت عيناى على هلالى هذا الرجل الذى صارع الـذئب نفسه .. أى فخر ملاه ذات يوم وهو يقـاتل الذئب وأى خوف واشمئزاز من الحياة استبد به وهو فى السجن يتلقى العذاب من رجال يمشون على قدمين ويتكلمون . وهم بلا أنياب ولا أظفار!

ورأتنى انصاف أنظر الى عبد العظيم فى اشفاق كبير يخالطه الاجلال . مع ذلك فهاهو ذا هنـا يرفع الرأس مازال .. وما زال يملك الثقة فى الحق . . وما زال قادرا على أن يتحدث عن المستقبل وان يصنع المصير !

وعدت أدير النظر الى عبد المقصود وسالم . وثبتت نظراتى مفعمة بالدمع على هلالى .. ياهلالى .. أى الذئاب أكثر شراسة: الذى صرعته فى الحقل أم الذين عذبوك فى القاهرة ؟! وملأت عينى

الدموع فلم أعد أرى شيئا من كل ما حـولى .. فنحن مع ذلك نعيش ونستمتع بجمال الشمس والأزهار وعطر الليـالى ونطلق الضحكات ونعشق النساء ونعانق الأبناء ونفكر فى الأدب والفن ونقرأ شكسبير ونخفق لبيتهوفن ونحلم بالأيام السعيدة القـادمة ونشعر بلذة انفاق المال الذى نكسبه ومن حولنا خلف الأسوار رجال من أعز الناس علينا يلقون مثل الذى لقيه عبـد المقصود وعبد العظيم وسالم وهلالى ! .. لكم هو زرى هذا كله !

لو علمت ياهلالى ؟! .. هلالى .. ماذا عسى أن يقـول عنا الأبناء عندما ينكشـف كل شيء ذات يوم ؟! معـذرة ياهلالى ! ولكنك صرعت الذئب .. يا هلالى ..

وضج فى أذنى فجأة اسم هلالى .. كانت أنصاف تهز كتفى .. وتنبهت .. انها تحاول منذ حين أن تنتزعنى من شرودى الباكى وأن تضحكنى :

ــ شايف هلالى ؟! هلالى اللى جـاب الديب من ديله .. هلالى اللى واللى . مش تقول له يروح يغسل وشه ؟ بقى هلالى ييجى الاجتماع برضه ملغمط وشه زى حريم مصر ..! ما يحط أبيض وأحمر وزواق بقى ؟!

وراعنى أن وجه هلالى ملىء (بالبودرة) ثم رأيته يحشر نفسه فى الزحام وهو يلعن الحلاق وطول لسان الست أم سالم وينصرف الى الخارج .

وقرع رزق المائدة بيده ليُسكت الضجة التى أحدثها خروج هلالى • وحاول أن يتكلم •• وارتفع صوته فوق الضجيج :

ــ ودلوقتى عاوزين نقرأ الفاتحة للنبى عليه الصلاة والسلام اننا ننسى كل اللى فات ونبتدى صفحة جديدة وأنا رأيى اننا نعلن الثقة فى مجلس الادارة الموجود ونخلص ويا دار مادخلك شر •• وفى الحالة دى كل آلات الجمعية ترجع تشتغل للبلد كلها •

وانتفض الأستاذ عبد المقصود يقاطعه ؛ وارتفع صوته غريبا كأنه ينبع من حيث ينتفض الذعر :

ــ اسمعوا يا أهل البلد ! احذروا من النفاق والخـداع • احنا شفنا أشياء يشيب لهولها الولدان وحتى الأجنة فى بطـون الأمهـات •• والمسئول عن هـذا هـو عـدم وعى الفـلاح •• الذين عذبونا فى السجن هم من الفلاحين •• لـو كان عنـدهم وعى سياسى حقيقى كانوا رفضوا الأوامر • واذا أعداءنا فشلوا فى تسليطنا على أنفسنا ولم يجدوا من يسمع أوامرهم الظالمـة فان العدل هو الذى سيسود •• اسمعوا يا أهل البلد • اسألوا اللى كانوا معايه ، اللى عذبونا وظلمونا لا هم تتار ولا هم همج••دول زينا أولاد شعبنا •• ينفذوا فينا أوامر أعداءنا ليـه ؟ •• لأنهم ناقصين وعى • انه لا طاعة فى معصية •• ولو كل واحد رفض تنفيذ الأمر بظلم غيره ؛ العدالة حاتسود •• و ••

وفقد رزق كل ما كان يصطنعه من هدوء فوقف يزعق :

ــ انت بتلخبط بتقول ايه يا أخى •• انت عاوز تفرق البلد •• علشان ما خدت لك كـام يوم فى السجن • افرض حتى الملك اتظلمت تقوم تيجى تفسد البلد كلهـا ؟! وكلامك ده فى منتهى الخطورة عليك وعلى اللى بيسمعه ويسكت •

وارتفع صوت عبد المقصود فوق صوته :

ــ أنا باحذركم يا أهل البلد من النفاق والخديعة •• ده اللى أفسدنا وأخرنا •• لا بد من محاسبة الظالم وعزل الفاسد وعمـل انتخابات لاختيار العناصر الصالحة •• لازم كل واحد يفهم كويس ايه اللى بيجرى •• احنا اتاخدنا علشان نبقى عبره لكم • اتعذبنا علشان يخوفوكم وعلشان تسكت على الظلم اللى حاق بنا •

ووقف الشيخ طلبة مغضبا :

ــ يا أهل البلد •• الفاتحة على الظالم • لكن ده كلـه من النجس اسماعيل والله العظيم • رزق بيه مالوش دعـوة ! واجب برضه نكرم رزق حتى كرامة للمرحوم والده البيه الكبير الخير الصالح اللى ما كانش ينام لو الأمير حبس أصغر واحد فى البلد !

وتداخلت الأصوات •• ولم يعد من الممكن أن يسمع أحد ما يقوله الذين وقفوا يتناوبون الكلام •

وصاح ربان :

ــ شايفه يا سى رزق انت اللى بتفرق البلد ازاى ••

ورزق يحاول أن يستعيد هدوءه •• وأخيرا نجح في أن يسترد الابتسامة الى وجهه ، وأحد الموظفين يقول متهدجا :

— ما تدخلوناش فى مشاكل معاكم •• احنا موظفين وورانا عيال عاوزين نربيهم !•• الله بلاش توريط •• انتم داعيينا علشان تتفرج على الخناق •

وقال رزق بهدوء :

— العبارة كلها بسيطة •• أنا باقول الانتخابات دى بتفرق الناس وتغير القلوب •• الفاتحة للنبى •

وهب عبد العظيم يلوح بيديه فى الفضاء كأنه يضرب عدوا مجهولا •• لم يترك رزق يكمل وما كان أحد يستطيع منع عبد العظيم :

— اللى زيك ده فاكر الفلاح منا ايه يعنى ؟ بهيمة مطرح ما تسحبها تمشى ؟ دا احنا أصحاب البلد والاشتراكية دى بتاعتنا.

وقال رزق بهدوء :

— أقعد يا عبد العظيم ما تبقاش داعية خلاف •• هدى نفسك كده واستهدا بالله •• أستغفر الله العظيم يارب • انسى مرارة الأيام اللى فاتت وفكر كويس فى أن الانتخابات دى بتفرق الناس وتزعلها من بعض ••

وقال أحد الموظفين :

— أمال يا سيد رزق يعنى لما الانتخابات بتثير الفرقة والفتنة ايه بقى فايدة الديمقراطية ؟ ما بلاش بقى •• والأمر يبقى شورى بينكم ازاى ؟!

وأجاب رزق :

— طب بس نقرأ الفاتحة للنبى اننا نصفى لبعض وننسى اللى فات ••

ولم يستجب أحد •• وتسمرت النظرات على وجه رزق

واحتد توفيق أبو حسنين :

— يا ناس •• رزق بيه بيقول لكم اقرأوا الفاتحة للنبى •• هو انتم ايه ؟ كفرة ؟ مالكم قلبكم اسود كده ؟ اخص على كده

وهاج بحيرى ••

— انت اللى قلبك اسود انت ورزق بيه بتاعك •• واللى خلفوك كمان

وجرى بحيرى الى توفيق فأمسك بخناقه ولكن الموجودين فرقوا بينهما ، وانقض سالم يناصر بحيرى فضرب توفيق بقبضة يده على رأسه •• وأبعده الناس •

وتداخلت الأصوات •• ورزق هادىء لايقول شيئا •• وارتفعت أصوات الطلبة والطالبات تنادى بأن الغاء الانتخابات خديعة •

ووقف عبد المقصود واتخذ هيئة خطيب ليقول انهم انما

اجتمعوا لاجراء محدد ولا بد من المضى فيه •• لا بد من انتخاب لمجلس ادارة جديد للجمعية ولجنة قيادية جديدة للاتحادالاشتراكى •• وعاد رزق يدعو الى الوئام والى نسيان ما مضى ، وتصفية القلوب الطيبة مما فيها •

وأخيرا وقف عبد العظيم :

ــ احنا قلوبنا بيضا •• أنا سامحت توفيق أبو حسنين على عمله •• الرجال مالهاش حمل •• واحنا مستعدين كلنا نقرأ الفاتحة للنبى ان قلوبنا تصفى. ولو انى مش حانسى أبدا اللى حصل لنا فى السجن من تحت راسك •• لا انا حانسى ولا البلد حاتنسى

وهب الشيخ طلبة :

ــ الفاتحة ان ربنا ينتقم من اللى ظلموكم ••

وارتفعت الأصوات بالفاتحة ••

ثم استمر عبد العظيم :

ــ لكن لا بد عن الانتخابات •• هه ••

وزعق سالم :

ــ نصفى لبعض ازاى ؟ دا كلام ؟ •• بعد اللى جرى دا كله •• وحتى ان صفينا احنا السيد رزق حايصفى لنا !

وقال رزق فى هدوء وضح فيه أنه يضبط نفسه بجهد :

ــ وأنا أول واحد أقرأ الفاتحة • وأنا قلبى صافى يا لبن

فردت أنصاف :

ــ وهو الديب عمره يصفى للغنم ••

واعترض بحيرى :

ــ بقى احنا غنم يا خاله أم سالم ؟ احنا غنم يا خاله أنصاف؟! الله يسامحك ••

ولوح توفيق حسنين بيده :

ــ يعنى البيه رزق هو اللى ديب ! بقى رزق بيه ديب ؟ ياك تنديب يا بحيرى ••

وصاح أحد الطلبة :

ــ يا جماعة دا صراع طبقى •• لا يمكن تصفيته بقراءة الفاتحة أبدا ولا حتى بقراءة القرآن كله •• صراع شاق ومرير وأعداؤنا بيستعملوا فيه كل الوسائل حتى الهمجى منها ••

وتساءل بعض الناس عما يعنيه ابن عبد الواحد ولكن هلالى كان قد عاد بعد أن غسل وجهه وأزال اثار (البودرة) ليعلن بخطورة :

ــ أنا اديت اشارة بالتليفون ان البلد فيها انتخابات • اشارة لمدير الامن علشان ما حدش يرجع يقول لنا عملتم انتخابات واجتماعات من غير اذن ليه ؟ أعمل ايه ؟ اذا كان العمدة سايب البلد وقاعد فى مصر • سايبها كده بلد من غير عمدة •

وقالت أنصاف ضاحكة :

ــ ما انت آهه قمت مقام العمدة وأكتر .. هو فيه حد غيرك فى البلد قدر يجيب الديب من ديله

وصاح الشيخ طلبة غاضبا :

ــ الله.الله يا ست أم سالم ! ايه لزوم الكلام ده ؟ لزومه ايه يعنى الكلام الفاضى ده ؟ دهده .. دهده يا بت يا أنصاف !

وقفز عبد العظيم فوق المائدة بغتة نافذ الصبر ووقف فارعا مهيبا يصيح :

ــ اسمعوا بقى بلا كتر كلام احنا فاض بنا خلاص . ولا عاد فيه حاجة تهمنا . يعنى حانشوف ألعن من اللى شفناه ؟ أعداءنا حايعملوا فينا ايه أكتر من اللى عملوه ؟ يا البلد تكون بلد بصحيح عارفة حقوقها وتعرف تدافع عنها يا نروح نتردم كلنا ونخلص .. آه نروح ندفن نفسنا بالحياة .. ما فيش تهاون مع العدو .. ما فيش رجوع .. الاشتراكية بتاعتنا واحنا اللى حانعملها .. اسمعوا يا أهل البلد... اللى موافق على ان رزق يقعد رئيس جمعية وأمين لجنة يرفع صباعه

وساد صمت غريب .. لم يرتفع اصبع واحد ، الا ذراع توفيق أبو حسنين ! وكان الشيخ طلبة قد رفع اصبعه ... ولكنه عاد فهز رأسه بأسى وأنزل اصبعه ... وكذلك صنع أحد الموظفين .. رفع اصبعه وهو يرى رزق ينظر اليه ثم هبطت ذراعه دفعة واحدة

وهب رزق يصرخ وقد احمر وجهه وأصبح بلون الدم :

ــ دى فوضى .. دى مش طريقة انتخابات .. انتم فاكرين اننى محتاج للمجلس والا للجنة .. الجمعية واللجنة والبلد كلها فى جزمتى .. أنا برضه رزق بيه ابن عطا الله بيه .. أنا حاعرف ازاى أربيكم ! .. انتم ضدالثورة .. ضد الاشتراكية ده ارهاب

وساد وجوم مفاجىء . واقتحم هو الزحام ينحى الناس عنه بغضب .. وتدافع الناس الى الجدران حتى سقط بعض ما علق عليها ودهس رزق عليها بحذائه فى غيظ .

وقبل أن يخرج قال عبد المقصود بهدوء :

ــ أوعوا حد يقرب له . الكلام ده لن يمر من غير حساب.. أوعوا حد يغلط ويرد عليه .. فيه أسلوب تانى للرد .. أولا يجب اسقاطه وعزله عن كل عمل سياسى أو جماعى

ولكن رجلا زعق :

ــ البلد كلها فى جزمته ازاى ؟! وايه يعنى بقى اللى قولة انه حايربينا ؟ طب ما احنا نقدر نشتمه ونضربه كمان ونربيه قليل الرباية ده ؟ ده ايه الافترا ده .. وواحد يهين بلد كلها كده ونسيبه ؟!

وكان رزق قد خرج ووراءه توفيق حسنين . وتمسح به توفيق قائلا :

ــ يا سعادة البيه .. انت برضه سيد الناس .. ارجع بس . خللينا نتفاهم .

فهوى رزق بكل غيظه على وجه توفيق •

ــ امشى يا ولد •• ارجع يا كلب •• هو انتو ناس.!

ورنت الصفعة وسط الصمت الواجم ••

ولكن سالم زعق ، ورزق يمضى :

ــ بكره يا رزق تشوف مين فى جزمة مين ؟! آه •• يا رزق حاف مافيش سى ولا حاجة

وضحك بعض الطلبة •• وقال ابن عبد الواحد :

ــ ده اللى كان عايز يصفى الخلافات ؟! كله علشان يهرب من الانتخابات •• الصراع شاق ومرير وطويل ووسائله غريبة !

وقاطعه عبد المقصود :

ــ يا أهل البلد •• دلوقت علشان كل شىء يبقى قانونى وسليم •• لازم نعمل الانتخابات •• أولا •• نقترع على الثقة فى المجلس واللجنة •• اللى عاوز يغير مجلس ادارة الجمعية التعاونية ولجنة الاتحاد الاشتراكى يرفع صباعه •

وارتفعت الأذرع وتشابكت وانطلقت الزغاريد وتعالت من ناحية تجمع الطلبة هتافات منغمة راقصة : (شيلوا المجلس ••• شيلوا المجلس)

ثم وقف عبد العظيم يطالب من يريد ترشيح نفسه بأن يقدم اسمه الى الاستاذ عبد المقصود •

وجرت الانتخابات فى سرعة •• كان الرجل أو المرأة يقترح

اسما ما ، فلا ينتخب الا بالاجماع •• وهكذا سقط توفيق أبو حسنين والحلاق ••• ونجحت أنصاف •• ونجح سالم • لكن عبد المقصود قال ان سالم دون السن الواجب

وانتخب عبد المقصود رئيسا للجمعية التعاونية وعبد العظيم أمينا للجنة الاتحاد الاشتراكى وأنصاف أمينة للصندوق فى الجمعية يساعدها ربان ••

وارتفع صوت يغمر الزغاريد :

ــ دلوقت عاوزين ناخد آلات الجمعية •• الواحد قلبه انقطع من العزق •• عاوزين المكن اللى بيحرت •• عاوزين نشتغل بالمكن •• مش عاوزين نرجع لورا تانى

وزاحمه صوت آخر :

ــ ووابور ضم الغلة ؟ كل المكن لازم ناخده •

وقالت امرأة :

ــ وحياة النبى لنزف المكن زى العرسان ••

واندفعت الجموع الى حيث كان رزق قد أغلق على آلات الجمعية فلا يخرجها الا لتخدم أرضه •

وأخرجوا الآلات •• وساقوها أمامهم وهم حولها يرقصون فى زفة كزفة عرس لم تشاهدها قريتى طول العمر •• الأولاد يتواثبون والبنات والنساء يزغردن ويرقصن والرجال يتعانقون ويلعبون العصا كل عدة خطوات ••• وكأن قريتى لم تبك من قبل أبدا

قال بحيرى :

ـ يا ريتنا جبنا الطبل الكبير

وصاح هلالى ضاحكا :

ـ أنا اللى حاجيبه ان شاء الله يا جدع

ثم التفت الى أنصاف ضاحكا :

ـ البودرة وغسلناها ••• والانتخابات ونجحنا فيها ورزق وسقطناه •• ناقص ايه بقى ؟! ناقص ايه بقى يعنى على الطبل الكبير ؟!

تعالت الضحكات،وانصاف تضربه بيدها فى صدره،وتدارى فمها المبتسم بأطراف أناملها ، وعيناها تلتمعان •• وقد غمرت وجهها راحة مشعة ••

واتجهت الى الطريق الزراعى وأنا أفكر فى كل ما حدث وأقسم أن أعود الى القرية فأعيش فيها عدة أيام من كل شهر •• وعندما أعلنتهم اننى مسافر من ساعتى أقسموا ان يودعونى على الطريق الزراعى والا ينصرفوا حتى تأتى العربة الكبيرة التى ستحملنى الى القاهرة

وانتظرنا العربة على مقربة من بيت رزق •••وعبد المقصود وعبد العظيم وريان وأنصاف والشيخ طلبة يبعدون الناس عنه

ومن بعيد ثار غبار كثيف من وراء منعرج الطريق••حسبها الناس عربة الركاب القادمة من القاهرة •• حسبنا سآخذها الى عاصمة الاقليم • ومن هناك أسافر ؛ بدلا من الانتظار الطويل

للعربة القادمة من الاتجاه الآخر •• ولكنها كانت عربة سوداء فاخرة جدا حديثة الطراز •• وتوقفت أمام القرية •• وصمت الناس وهم يرون رجلا بالغ الاناقة ينزل من العربة يصاحبه رجل آخر أشد أناقة •

وخيم على الجو ذهول رهيب ••

كان هو اسماعيل وصاحب له !

وتقدم اسماعيل فى هدوء الى الواقفين •• ونظر الى عبد المقصود ثم عبد العظيم وأخذ يفتش عن سالم وهلالى •• وقال بهدوء غريب :

ـ انتو طلعتوا ازاى !

وترددت أصوات شاحبة :

ـ انت اللى طلعت ازاى ••• جت لنا تانى ازاى ؟!

ونحى اسماعيل الناس عن طريقه فى ازدراء وأنفة ! ودخل الى بيت رزق !

ولم ترتفع كلمة من كل الواقفين فى وجوم •• ولاحت على الوجوه دهشة يخالجها الخوف •• كيف عاد ؟! ولم عاد ؟

وأخذ الشيخ طلبة يحتضن ابنته ويخفيها وسط الزحام •• ويده على رأسها لتحنيه فلا يبين لها وجه ! وهو يقول :

ـ يابركة يس !

ولكن سيارة مقبلة من عاصمة الاقليم أطلقت من بوقها أصواتا متتالية •• ليست هذه هى أمارات سيارات الركاب ••

وأخيرا ظهرت السيارة من المنحنى •• كانت سيارة مدير الأمن خلفها سيارة أخرى مليئة بالجند •

وهبط من سيارته مسرعا والجند وراءه من سيارتهم ••

وقال بخفة :

ــ واقفين كده ليه ؟! الانتخابات تمت على خير ؟

وقال عبد العظيم :

ــ كله تم بخير ••

ــ الحمد لله

وقال الشيخ طلبة :

ــ بس اسماعيل بيه رجع •• مع انى قارى عليه عدية يس ف السلطان الحنفى •• يابركة يس !

ورددت القرية فى رهبة :

ــ رجع •• يارب لطفك ••

وضحك مدير الأمن •• قائلا :

ــ واتتم مالكم وماله ؟ كل واحد يرجع لشغله •• واطمئنوا •• روحوا شغلكم ولا يهمكم واتكلوا على الله •• وسيبونى لشغلى •• أنا اطلعت على كل حاجة وراجع مكتبى على طول •• أى حاجة تحصل اتصلوا بى •• ولو باشارة تليفونية •

وحاولت أن أفهم شيئا من الفرماوى •• ولكنه سلم على بخفة وثقة ونصحنى أن أسافر •• وأن يهتم كل بشغله •• وأمر أحد جنوده أن يستوقف العربة الكبيرة الذاهبة الى القاهرة •• هكذا أنت يافرماوى لك دائما نفس الثقة بالنصر •

وعندما جاءت العربة قال لى :

ــ مش قلت لك الظلم مالوش رجلين • لكن •• لسه المعركة كبيرة •• أنا راجع مديرية الأمن فورا •

وصعدت الى العربة •• وقد بدأت الأصوات ترتفع من زحام أهل القرية وأنا أسلم عليهم :

ــ أوعى تنسانا وانت فى مصر •• شق علينا • خللى مصر تحوش عنا اسماعيل •• خليهم يكتبوا عنه فى الجرائد • خللى جرايد مصر تقف معانا وتحكى على اللى حصل لنا •

وهمس لى الفرماوى :

ــ رجالة بلدكم دول يتاقلوا بالدهب •• بكرة تبان حقائق كثيرة •• أنا داخل فى معركة جامدة قوى مع اسماعيل ده •• ادعى لى •• لكن النصر لنا ان شاء الله •

آه يافرماوى •• انه حقا لصراع طويل ، وشاق ورهيب !

وانطلقت بى العربة الكبيرة فى الطريق الزراعى الى القاهرة •• والقلب يجيش !

هذا كله وانسام الربيع الدافئة تهب على حقول القمح ، والأعواد اللينة تتدافع أمام النسمات وتتموج كأنها شعر امرأة شقراء فاتنة •• حقا •• فالأعواد قد اصفرت الآن وأصبحت ذهبيات السنابل •• ولكن •• لماذا كأنها شعر امرأة شقراء ؟!

كانت الحقول تنتظر سواعد الرجال ••

لقد نضج القمح الجديد !


STAG
الشركة التونسية لفنون الرسم

الثمن : 1.500 د. ت